



المكتبة الأهلية . بمصر

عَلَامَةُ الْغَرْبِ

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدينة : فرنسا ، وانكلترا ، ألمانيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وسويسرا ،
والبايك ، وهولندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والستانية ، ومصر ، والشام
ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الأطول ، ولا سيما صلات
الغرب مع العالم الإسلامي ، والعرب منه خاصة ، في جنوب إيطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الثاني —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ - المطبعة الرحمانية - بمصر ١٩٢٣ م

غرائب الغرب

الطبعة الثانية

حقوقها محفوظة للمكتبة الاهلية - بمصر

الرحلة الثالثة

العربية والفرنسية

٧٠

لما رست بنا الباخرة سفنكس في ميناء الاسكندرية منصرفنا من دمشق الى باريز (يوم ١٥ تشرين الأول) ١٩٢١ خرجت سيدة باريزية عائدة من سياحة لها قصيرة في القطر المصري فذكرت عند أول حديث ماشاهدته ودهشت به في القاهرة من انتشار اللغة الافرنسية بين طبقات الشعب وجمهور الغربيين النازلين في تلك العاصمة فقلت لها لا تعجبي فان علاقة الفرنسيين مع العرب قديمة جداً رد الى أكثر من ألف سنة وبعبارة أصح ترجع الى القرن الأول للهجرة أيام دخل العرب الجنوب الغربي من أوربا فاتحين واسـتولوا على شبه جزيرة ايبيريا أو اسبانيا .

ولقد سردت على السائحة بعض ماعلق في الذهن من علاقة الأمتين احداها بالآخرى فرأيت أن لا يفوت هذا الموضوع قراء المقتبس أقدمه بين يدي نجواهم بعد طول العهد بمحاورتهم وعساني أغنم هذه الفرصة السانحة وأحدثهم بما يقع لي في هذه السياحة الثالثة يضيفونه الى (غرائب الغرب) التي طالما حدثتهم بها لا تزلماً ومصانعة بل حب الفائدة والاطلاع ورجاء ان ننسج في حضارتنا على منوال من سبقونا اليوم أشواطاً في ديار الغرب ونستعيد بعملنا حضارتنا التي أدهشت ابن القرن العشرين وما هي الا ابنة القرن الثامن والناسع والعاشر ونشفع عمل الأجداد بما يتلقفه الاحفاد عن أهل الحضارة الغربية الحديثة .

بدأت اللغة الافرنسية بالانتشار في القطر المصري في القرون الحديثة على عهد دخول نابوليون الأول وقد صحبه جمهور من العلماء قاموا بأعمال علمية لا تزال ترددها مصر بالشكر وجميل الذكر على وجه الدهر . ولما افتتح محمد علي جد

الأُسرة السلطانية الحاضرة القطر المصري واحتاج الى تنظيم شؤونه كان أعوانه على ذلك علماء فرنسا فأعانوه في تنظيم رى القطر المصري واصلاح جبايته وانشاء مدارس وتأليف جيشه البرى والبحرى

وما برحت تلك الروح الشريفة التى بثها علماء فرنسا فى مصر على عهدى نابوليون ومحمد على سارية فى أعصاب مصر حتى يومنا هذا حتى كانت سبب سعادتها وعلى الرغم من احتلال الانكليز القطر المصري منذ أربعين سنة وحرصهم على نشر لسانهم شأن كل أمة راقية لم يبرح العمل الذى قام الفرنسيس بوضع أساسه فى وادى النيل يتسلسل ويجود وجمعياتهم ومجامعهم العلمية ومدارسهم شاهد عدل على ذلك .

ولقد تركت مصر منذ اثنى عشرة سنة وكان يصدر فيها عشر جرائد يومية باللغة الافرنسية وتصدر بها جريدة واحدة باللغة الانكليزية ولكن وجهها الثانى باللغة الافرنسية ومن هنا يدرك القارىء مبلغ تعلق المصريين باللغة الافرنسية وكذلك من فيها من النزلاء اليونان والطلليان والأرمن والسوريين وغيرهم من أم البحر المتوسط . فادا شاهدنا المصريين منذ أول نشأتهم الحديثة يفتشون المدارس فى فرنسا أكثر من انكترا وغيرها من أم الحضارة الحديثة واذا شاهدنا لغة فرنسا منتشرة أى انتشار فى القطر المصري فلا عجب اذا ادعينا والدليل معنا ان مصر ولاصراء حسنة من حسنات المدنية الافرنسية كما هى بزراعتها حسنة من حسنات النيل المبارك . ومثل ذلك يقال عن سورية بل عن البلاد العثمانية جمعاء والأمة العثمانية كانت أشد الأم الشرقية علاقة بفرنسا وغنها أخذت علومها وبروح حضارتها وسياستها تشبعت منذ عهد سليم الثالث . وكذلك فعلت فارس فى القرن الماضى

تلطفت فرنسا فى بث لغتها بطرق مختلفة وأهمها المدارس الدينية والعلمانية التى أنشأتها الجمعيات وأمدتها بالمال وحمتها على مايجب وأرخصت أثمان كتبها وجرائدها وجعلت عاصمتها مثابة المتعلمين والمسترشدين منذ القديم ولا سيما من

سكان الشرق الاقرب فاستحكمت على الزمن علائق الحب بين الأمتين العربية والافرنسية وان ما نراه اليوم من الحركة الاجتماعية السياسية في مصر والشام وآسيا الصغرى ان هو الا من آثار الجامعات الافرنسية ونور سرى في عقول العرب والترك في هذه الديار فانبعثت منه هذه الشعلة التي نراها ويمجب بها الغرب قبل الشرق . فنور الشرق الابعد لعهدنا ظهر في جامعات السكسونيين ونور الشرق الأقرب تجلى من معارف الفرنسيس اللاتين

ومن الأدلة على توطد الصلات القديمة بين العرب والفرنسيس ومنها كان انتشار لغة هؤلاء بيننا ان العرب أطلقت على أمم أوروبا اسم الافرنج أو الفرنجة وهو تحريف (فرنك) Les Francs

وما الفرنك في الحقيقة الا الفرنسيس أنفسهم اذ كان للغتهم الكفة الراجعة بين لغات أوروبا في الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر فقد ذكر ميشو^(١) المؤرخ في كتابه الحروب الصليبية ان الافرنج في سورية لم يكونوا يتكلمون في الحرب الصليبية بغير اللغة الافرنسية وكان اسم فرنسا في الحروب الصليبية يمتزج بجميع الحوادث العظيمة في تلك الحرب ويسمون المستعمرات التي وراء البحار في هذا الشرق بفرنسا الشرق

وهذا ولا جرم مبدأ جعل اللغة الافرنسية لغة دولية رسمية بين أمم الحضارة منذ الزمن الاطول فكانت المفاوضات والاجتماعات والعقود والمعاهد السياسية والتجارية تجري باللغة الافرنسية بينهم وخلفت هذه اللغة اللاتينية في أوروبا في هذا المعنى وكان لها المقام الأول الى النصف الأول من القرن الماضي وقد كانت فرنسا هي المرجع الأول في السياسة الاوربية ولم يكن ذلك بصنع رجال السياسة من أبنائها فقط بل بصنع علمائها وما توفرُوا عليه من خدمتها أمثال باسكال وموليير وفولتير ومونتسكيو الذين أقاموا دعائم مجدها ودعوا سياسة الامم الى الاعتماد عليها في السياسة والتجارة والاصطلاح عليها في المخاطبة والمكاتبة

(1) Michaud : Histoire des Croisades

لما فيها من الخصائص ولأنها من بين اللغات الاوربية أكثرهن وضوحاً ومنطقاً
وحياناً ولاذاتاً القرن ساوى تام في ذاته لا مثيل له في آداب الامم الاخرى بشهادة
كثير من الالمان والانكليز .

نعم كانت الافرنسية وما زالت شائعة عند أبناء الطبقات المستنيرة والشريفة
في روسيا وفنلندا والدانمرك وألمانيا والنمسا وإيطاليا والمجر وهولاندا واسوج
وزوج واسبانيا والبورثقال بل وفي انكلترا . دعرومانيا واليونان والتشكوسلافيا
واليوغوسلاف ومصر والجزائر وتونس وغيرها ولم تضعف العناية بها الا بانتشار
فكرة القومية بين الشعوب المتحضرة فاضحت كل أمة تعنى بلغتها الوطنية قبل
كل لغة وتنقل الى لغتها جميع ما تحتاجه من العلوم والصنائع عن أشهر علماء الأرض ومع
هذا ظل للافرنسية المقام الأول بين لغات الغرب وان كان الناطقون بالانكليزية
والالمانية أكثر عدداً

في الأرض مائتان وثمانون مدرسة جامعة، من صنوفها تنبعث منها أشعة
المدنية وفرنسا يصيبها من هذا المجموع سبع عشرة (١) في أرضها وأربع
في البلجيك تدرس بالافرنسية وأربع في سويسرا كذلك فلغة يتعشقها أهل
الطبقات المستنيرة في الارض وتخدمها في كل العلوم خمس وعشرون جامعة هي
لغة حية يحتاج الناس اليها بحسب قربهم وبعدهم عن بلادها وعلائقهم الحاضرة
والغابرة بأهلها

مواطن اللغة الافرنسية

٧١

انتشار لغة الامة تبع لحاجة الناس اليها ولسياسة أهل تلك اللغة وتفوقهم

(١) أنشئت جامعة باريز سنة ١١٥٠ وجامعة مونبليه نحو ١١٨١ وجامعة كرونوبل ١٣٣٩ واكس
مارسل ١٤٠٩ ويزانسون ١٤٨٥ وبوردو ١٤٤١ وكان ١٤٣١ وكلمون ١٨٠٨ وديجون ١٧٢٤
وليل ١٥٣٠ ونانسي ١٥٧٢ وليون ١٨٠٨ وبواتيه ١٤٣١ وورين ١٧٣٥ والجزائر ١٨٤٩
وستراسبورغ ١٨٧٢ وتولوز ١٢٣٠

في مضمار الصنائع والتجارات . ان تاريخ نشوء اللغة الافرنسية لا يتجاوز العشرة قرون فمن المؤرخين من يرى ان ذلك يرد الى معاهدة فردون التي عقدت سنة ٨٤٢ ولكن هذه اللغة لم تؤلف حقيقة الا في القرن الحادى عشر وكلما كانت سياسة فرنسا تقوى تزداد لغتها انتشاراً ويعتمد عليها في كتابة العقود والعهود والمخاطبات فأصبحت على الزمن لغة علم وسياسة ودامت محتفظة بهذه المكانة الى أواسط القرن الماضى

جاء في تاريخ اللغة والآداب الافرنسية ^(١) ان هذه اللغة لاسباب سياسية كثيرة ولكثرة ما لقيت فرنسا من المصائب والانتباه العام في روح القومية في شعوب أوروبا المختلفة كل هذه الأسباب جعلت من المستحيل بقاء الامتياز الذى كان لفرنسا في القرن الثامن عشر . واذا بقيت لغة السياسة فذلك أشبه بالسلطان في احتفاظه بالاستانة لان خروجه منها يولد منافسات كثيرة ولم تعد اللغة التى يضطر الرجل المهذب ان يحسنها كما يحسن لغته

وما برح الناس من مدريد الى بطرسبرج يعتبرون تعلم اللغة الافرنسية من دواعى الفarf والبهجة والفائدة ولئن نازعت اللغة الانكليزية الافرنسية في عالم التجارة وأصبح الناس في أكثر الموانى البحرية يفهمونها وكذلك انتشرت الألمانية وأضرت في بعض المحال باللغة الافرنسية وكذلك عم التكلم باللغة الايطالية في البحر المتوسط فان الافرنسية مارالت منتشرة في مستعمرات فرنسا القديمة مثل سان بىر ومكلون والكوازلوب والمارتينيك والرينيون ولوزيان وعدد النازلين في تونس والجزائر من أصل فرنساوى ٣٢٢ الفأعدا الجيش . وقدر واسكان كندا الفرنسيس بنحو مليون ونصف وكذلك سكان دومينيك وسانت لوسى وموريس وسيشل . ومن المتعذر تقدير عدد المتكلمين في أوروبا الغربية باللغة الافرنسية أو باللهجات الافرنسية ولا يفوتنا النظر ان كل من يسكنون أرض فرنسا لا يتكلمون بالافرنسية فان مليونى نسمة من سكانها يتكلمون بلهجات اخرى من أصل جرمانى أو سلتى أو

(١) Petit de Julleville : Histoire de la langue et de la littérature française.

ايطالى أو لغة أخرى ومنها جزيرة كورسيكا وفوق ذلك فان نحو أربعة ملايين نسمة يتكلمون باللغة الافرنسية خارج حدود فرنسا منهم ٢.٨٧٧.٠٠٠ فى الباجيك و٩٠٠٠ فى بلاد ماليدى فى بروسيا الرنانية و٢١٧ ألفاً فى الالزاس والاورين و٦٤٣ ألفاً فى سويسرا وفى تورين فى أودية الالب بضع مئات الالوف يتكلمون الافرنسية أيضاً وكذلك سكان جزائر الانكليز النورماندية فانهم يتكلمون بلهجة نورماندية بحيث انه يمكن تقدير من يتكلمون باللغة الافرنسية فى أوروبا الغربية بأربعين مليوناً وزيادة

وهذا العدد قليل بالنسبة للشعوب التى تنمو سكانها نمواً كبيراً كالشعوب الانكلوسكسونية والشعوب السلافية ولذلك رأينا كثيرين من فلاسفة فرنسا ورجال الاجتماع فيها ينادون بتلافي هذا النقص ابقاء على مجد أمة عظيمة عاشت بمعنوياتها كثيراً كما عاشت بماديّاتها ومنهم الفيلسوف فوليه فى كتابه نفس الشعب الافرنسية (١) قال : الى الموانع الحربية والاقتصادية الناشئة من قلة السكان يجب أن نضيف تقهقر لغتنا من العالم فقد كان يتكلم بها فى العالم الأوروبى ٢٧ فى المئة من السكان واليوم لا يتكلم بها فى العالم كله سوى ٤٦ مليوناً (فرنسيس وسويسريون وبلجيكيون وكربايون وكناديون) فى حين يتكلم بالالمانية مئة مليون وبالانكليزية ١١٥ مليوناً و١٤٠ مليوناً من الخلق لغتهم الرسمية هى الانكليزية . قال : والتجارة لا تكون خاصة الا بين الشعوب التى تتكلم لغة واحدة فمن الاسف ان عدداً الذين يتكلمون بالافرنسية ينقص اه

هذا ما قاله عالمان حججتان بشأن انتشار اللغة الافرنسية ونحن نرى انها آخذة بالانتشار كثيراً فى المستعمرات الافرنسية وفى البلاد التى لها علاقة سياسية أو تجارية مع الفرنسيين ولكن المسألة الصعبة هى فى حل معضلة تناقص نفوس الفرنسيين بالنسبة لجيرانهم وبهذا كتب التفوق لهم فقد قيل كثرة العيال أحد اليسارين

(1) A. Fouillée : Psychologie du peuple français

ومن أجل ما قاله أحدهم مؤخراً أننا إذا لم نغلب معاشر الفرنسيين بكثرة عديدنا فسندخل على الدوام بنبوغنا وعبقريتنا . أما لغتهم فتعد في الطبقة الاولى بين لغات الغرب وان عرضت لها بعض الموارد كما يعرض للأفراد والامم فانها بالذكاء واتخاذ الاسباب تزول وتضمحل

وبيننا انا أنشئ هذه السطور جاءت الصحف تحمل خطبة للمركز روبر دى فاليرا أحد أعضاء المجمع العلمى الباريزى (في اللغة الافرنسية والحرب) قال فى جملتها : منذ وجد البشر وأخذوا يتكلمون نشأت لهم ثلاث لغات واستحقت ان تدعى عامة وهى اليونانية والرومانية والافرنسية فقد قالوا ان اليونانية ترشحت من غناء الارباب والريزان Gigales فأصبحت لغة الجمال أما لغة الرومان فقد تألفت من جهاد المطامع التى كانت تنبث من عمل المقننين والجنود فأصبحت لغة الحكم والسلطة وكانت اللغة الافرنسية لغة الظرف والعقل المسالم بتساوق نغمتها ووضوح عبارتها . وهذه خاصية غريبة عرفت بها على الدوام ولا شك ان ذلك أتاننا من تمازج العنصر الساتى باللاتينى ونعم التمازج وذكر ان شارل كان كان يقول بانه لو أحب ان يخاطب المولى مخاطبه بالاسبانيولية ولو أحب أن يخاطب النساء مخاطبهن بالاطليانية واذا أحب أن يخاطب حصانه يخاطبه بالالمانية ولكن اذا أحب أن يخاطب الرجال فيكلمهم باللغة الافرنسية قال فالغة الافرنسية هى من بين اللغات اللغة البشرية وبها انتشرت معظم الحقائق على الارض وبالافرنسية أعطيت اجل الوعود وجرى العمل بها .

قال جان جاك روسو أن لغات الجنوب هى ابنة الفرح ولغات الشمال ابنة الحاجة . وقالت مدام دى ستايل ان اللغتين الايطالية والاسبانيولية هما موزونتان للايقاع والتلحين بل هما كالغناء الرخيم . والافرنسية لائقة بالمحاضرات والتخاطب ومناقشات النواب . والنشاط الطبيعى فى الامة الانكليزية قد أورث لغتها حالة فى التعبير تقوم مقام السجع فى اللغة . واللغة الالمانية أكثر فلسفة من الايطالية وأكثر شعراً متيناً من الافرنسية وأكثر ملائمة للقوافى فى الشعر من الانكليزية ولكن يبقى لها نوع من اليبوسة جاءت على الغالب فى كونها لم تستعمل فى المجتمع ولا فى الجمهور .

ان البحث في علاقة العرب بالفرنسيين يحتاج الى محاضرات طويلة فنقتصر من لباب هذا الموضوع على هذا القدر معتمدين على مقاله سيديليو صاحب كتاب تاريخ العرب وهو من الذين أنصفوا العرب جداً في التفلسف في تاريخهم كما أنصفهم كثير من علماء الغرب ممن لم يتأثروا بالعوامل الدينية والسياسية ولا أعمتهم الاغراض التجارية والاستعمارية

حدثنا التاريخ ان العرب استولت من أرض فرنسا على إقليم سبتمانيا في الجنوب الغربي من غاليا (فرنسا) على ساحل البحر المتوسط وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمالهم الحربية واستولوا أيضاً على مدينة كاركاسون ونيم واتون وبون وسانس وافنيون وبوردو^(١). ولما أراد الامير عبدالرحمن ان يستولى على تور قام له بين هذه المدينة وبين پواتيه رجل اسمه شارل مارتيل من أمراء تلك البلاد وصده عن بلاده فتراجع العرب ولو ظفروا في تلك الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا وسرى منها الى سائر أقطار أوروبا

ثم استولى العرب على مرسيليا وأرل بل وعلى إقليم البروفنس في جنوبي فرنسا ووصلوا كما قلنا الى پواتيه وهي على ٣٣٢ كيلو متراً من جنوبي غربي باريز. حتى شارل مارتيل شمال فرنسا من غارة العرب (٧٣٢ — ٧٣٩ م) وترك للعرب إقليم سبتمانيا حيث أقاموا أما كن دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم في الاصطلاحات اليومية في الحياة وكان رجال الكهنوت في تلك البلاد يؤثرون حكم العرب على حكم الفزاة من الجرمانيين لان هؤلاء لا يستنكفون ان يستولوا على أملاكهم الكنائسية. وقد أخذت الصلات العديدة

(1) Sédillot ; Histoire générale des arabes.

تتعقد بين المسيحيين والمسلمين فتزوجت إحدى بنات الدوج داكيتين من أمير عربي

ولما رجع العرب عن اقليم سبتمانيا سنة ٧٥٩ احتفظت العرب هناك باملاكها وبيوتها وعلى عهد شارلمان توطدت العلاقات بين العرب وشارلمان ملك فرنسا وتبودلت الهدايا بين هذا وبين هارون الرشيد

وبينما كان التوحش ضارباً أطنابه على غالباً وجرمانيا كان العرب قابضين على زمام الاحكام في جنوبى فرنسا من جبال البيرينات الى جبال الالب يحملون من مستعمراتهم الى بورغونيا وسويسرا في الشمال والى التيرول ولومبارديا في الجنوب ما تعلموه من العلوم في مدارسهم

وفي ذلك العهد انتقلت الى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل عربية صرفة ويذكر سيديليو ان التعابير الدائرة جاءت اللغة الافرنسية من العربية أكثر من اللاتينية وان كان في الافرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية فمن العدل ان يقال انه كان مثل ذلك من اللغة العربية قال فالعرب اساتذتنا في العلوم بل في سائر المعارف البشرية

ومع أن علاقات العرب بالاسبان كانت أكثر من علائقها مع الفرنسيين فان عبد الرحمن الثالث الاموى كان على اتصال دائم مع أمراء من اسبانيا وفرنسا والمانيا والممالك السلافية (الصقالية) وكان القصر الملوكي في تولوز (فرنسا) صورة من صور قصر الخلافة في قرطبة يتبارى فيه الشعراء ولما انتقل أحد أمراءهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ ادخل مأخذ عن العرب تبديلاً حقيقياً في باريز من حيث الأخلق واللغة .

أما الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١) فقد ساعدت على هذه الحركة الاجتماعية كل المساعدة واختلاط الفرنسيين خاصة بالعرب في الشام ومصر ولا سيما في حملة سان لويس الذي بقي عدة سنين في الشرق وكان لفريدريك الثاني

المعاصر لهذا الأمير حرس من العرب ويستقبل في قصره أبناء ابن رشد الفيلسوف وكان علم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ في كتب العرب ولما انجلى العرب عن اسبانيا (١٤٠٣ — ١٥٧١ — ١٦٠٩ م) جاءت قبائل عربية كثيرة الى فرنسا من جديد ونشرت فيها أسماء بيوت جديدة وكذلك كان من فتح الجزائر فانه أدخل في الافرنسية ألفاظاً عربية كثيرة ولا شك ان هذه الصلات التي لم تنقطع مدة قرون بين العرب والفرنسيين قد نقلت الى الافرنسية عدداً وافراً من التعابير والمصطلحات الشرقية

ومن البديهي ان العرب كانوا سادة البحر المتوسط في القرن السابع وبعده فاعطوا الطليان والفرنسيين الالفاظ البحرية وكان الطب العربي أساس علم الطب عند الفرنسيين أخذوه مع كثير من الالفاظ العربية . وكان ملوك فرنسا من أهل العنصر الثالث يقلدون العرب في كل شيء والعرب نقلوا الى الغرب علوم أتينة ورومية وعنهم وبلغتهم وصلت الى أوروبا بل الى أهل المدينت الحديثة . ويقول الأب لامنس ^(١) في كتابه ملاحظات على الالفاظ الافرنسية المشتقة من العربية ان نحو تسعمائة لفظة أخذتها اللغة الافرنسية عن العربية وأدخلتها في معجمها واستعملاتها .

هذا مثال صريح من اختلاط الامتين منذ القديم وكان من أثره تأثير لغة العرب في لغة الفرنسيين ونقل كثير من العادات الشرقية العربية الى أواسط أوروبا وغربها والفرنسيين ولا سيما سكان الجنوب أشبه بالعرب في طبائعهم ومناخ بلادهم . لا جرم ان طول العشرة تؤثر في كل مظاهر الحياة في الأمم ولما كانت الشعوب اللاتينية أقرب ببلادها من بلادنا في أوروبا وآسيا وأفريقية كانت سابقة الأمم الى الحضارة ومنها انتقلت هذه الى جرمانيا وبريطانيا وغيرها . فكان تأثيرنا بها وتأثرها بنا أكثر من غيرنا من أمم الشرق الكبرى كالصين والهند فسيحان المعز المذل المحول المقلب

(١) Lamneus : Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe

دعاني صديقي الأستاذ المسيو كابريل فران من رجال المشرقيات في باريز الى حضور محاضرة له يلقيها في مجمع الابحاث الاوقيانوسية . وهذا المجمع العلمي يبحث في كل ماله علاقة بالشؤون البحرية أنشأه من ماله ألبير الأول أمير موناكو وهو من فضلاء رجال البحر خدم العلم البحري خدما جلي ، ومما قام به انشاء مساير (جمع مسبار) لمعرفة أعماق البحار قاس بها الى تسعة آلاف متر في المحيط الباسيفيكي وأخذ ينطق عن سعة زائدة على هذا المجمع وغيره مما يخدم علم البحار وخص بذلك فرنسا لأنه تعلم في مدارسها وتأدب بأدبها وبلاده صغيرة لا تحتل هذه العناية ومساحتها عبارة عن بضع مئات من الكيلومترات ، وأهلها بضعة ألوف من الخلق فقط لا يزورهم الا قاصدهم .

وأول ما يذهب الذهن اليه عند دخول هذا المعهد الفخم : ومعرفة تاريخ امارة موناكو وأميرها وافضاله على العلم يخلد بذلك اسمه ويخدم البشر ترى ماذا عمل أغنياء الترك وأغنياء العرب لاخير العام منذ أربعة أو خمسة قرون الا اذا كانوا استحلوا أكل الأوقاف وعرقوا لحم الفلاح ، ونهبوا أموال الأمة بالطرق المحرمة في العقل والنقل ، ومع هذا يحترمهم بعض الاغمار ويسجد لسلطانهم عبيد الدنيا وان لم ينالوا من أفضالهم وتوالهم وكان من حقهم أن يجبهوهم ويرذلوهم لانهم كالحلدة الطفيلية في جسم أمهم يغتذون من دماءها ولا يعطونها واحداً من مئة مما يجب عاينهم اعطاؤه

يجاد عليكم بأموالكم وتمطون من مئة واحدا

وخلاصة محاضرة المحاضر العلامة البحث في البحرية في الشرق ، ولا سيما في الصين والهند وجاوه وسواحل بلاد العرب وبحر القزم والأبيض والظلمات

وذكر أيادى العرب على علم البحار فى القديم وبعض الاسفار البحرية التى قام بها الملاحون من أجدادنا فى القاصية وأثمرت الثمرات المطلوبة الى أن تطرق فى الكلام الى ذكر ابن ماجد الملاح البصرى الذى قام بأعمال بحرية كبرى فى عهد الملاح البورتقالى فاسكو دى غاما الذى كان أول ملاح مهد سبل السير فى البحار على الغربيين وقال ان الملاح العربى اجتمع بالملاح البورتقالى وأظهر له نواقص سفينته وعلمه ما لم يكن يعلم .

ولابن ماجد هذا كتاب فى الملاحة دخل دار الكتب العربية بدمشق نسخة منه وتكلم عليها فى أحد أجزاء مجلة المجمع العلمى العربى ، وظفر المحاضر بنسخة منه فى مكتبة باريز وهو الآن آخذ بطبعها بالعربية كما ألفها مؤلفها لانها حوت من الحقائق عن طرق البحار قبل ايجاد البخار ولا سيما فى المحيط الهندى وما يلزم للبحار فيه وما يعترض فى طريق سالكه من الجزر والتيارات والاهوية وغيرها ما هو المعجب المعجب

وبعد أن أفاض على هذا النحو تعرض لذكر الخليفة المأمون العباسى وعدد ماله من اليد البيضاء على العلم ، وذكر كيف جمع العلماء على اختلاف نحلهم من أقطار البلاد التى كانت مشهورة بارتقائها فى عهده للبحث فى العلوم والصناعات وعلمهم بعمله التسامح وكيف لما غلب ملك الروم طلب اليه أن يسلمه كتب العلم التى عنده وهو عمل مدهش لم يمهد لملك ولا لحكومة ان طلبت مثله من عدوها فى القديم ولا فى الحديث ، وبه يعرف قدر المأمون وثقافته فى خدمة الانسانية .

وقال ان عملا واحداً مما عمله المأمون أفضل مما ينسب لوالده الخليفة هارون الرشيد من ليالى ألف ليلة وليلة .

ذكر هذا والحماسة قد بلغت منه مبالغها حتى سرى من كهربائيتها شظايا نالت قلوب الحضور فى ذلك البهو البديع ، وبعد ان استرسل على هذا النحو فى الكلام على مدنية العرب ، وان على الاوربيين أن يعرفوهم أكثر مما عرفوهم تفضل

وذكر اسم كاتب هذه السطور وذكر له عمله العلمى فى بلاده ، ثم علق آمالاً على دمشق وسورية وخدمة علمائها للعربية والمدنية ورد على من قال من الانكليز ان الغرب والشرق لا يجتمعان وقال بل يجتمعان ويتمازجان وينتفع أحدهما بأخيه كما هو حاصل الآن وكلما تعارفا زالت الوحشة وزادت الفائدة والعائدة وختم المحاضرة بعرض بعض صور السفن الشرقية القديمة والحديثة بالقانوس السحرى وانفض الجمع وكان من طبقات مختلفة

قلت وكلام العالم المحاضر على الشرق والغرب خاصة كلام من ذاق وفهم وعاشر وسامر . ومعظم أرباب الفهم من علماء المشرقيات فى الغرب على هذه الصورة فى تقريب القلوب ، ورفع غشاوات الجهل والتجاهل ، والامم لا تتحد الا باتحاد المقاصد وبالتساند والتعاقد والشرق محتاج الى الغربى والغربى كذلك وهذا لا يتم الا بالاختلاط ، وأخذ المتأخر عن المتقدم ما تشتد حاجته اليه من العلوم والصناعات .

احتفال الفرنسيس

بالادب والعلم

٧٤

فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثالث من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢١ احتفل المجمع العلمى الفرنساوى تحت قبة مازارين المشهورة وهى مقره فى مدينة باريس بقبول المسيو جوزيف يديه عضواً فى المجمع العلمى خلفاً للمسيو ادمون روستان المتوفى منذ ثلاث سنين وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من العلماء والأدباء والسادة والقادة والأوانس والعقائل من أهل هذه العاصمة لا يقل عددهم عن ثمانمائة انسان وكان فى جملة الحضور المسيو ميلران رئيس الجمهورية

الافرنسية بصفته أحد أعضاء مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية لابصفته رئيساً للجمهورية ، وجلس على كرسى الرئاسة المسيو بارتو مدير المجمع العلمى ، وناظر الحربية والمسيو فريدريك ماسون أمين سر المجمع الدائم ، وجلس أعضاء المجمع الخمسة فى مقاعدهم ناحية .

تكلم العضو الجديد أولاً فذكر طرفاً من منشأه . ثم أفاض فى بيانه ما شاء وشاءت الاجادة وعدد أيادى سلفه الشاعر روستان على الأدب ، وما كان من احسانه فى شعره ورواياته الشخصية التى أدخلت فى التمثيل الفرنساوى روحاً جديدة أقربها أكبر النقاد والباحثين من أهل العلم حتى من كانوا يقاومون سرّاً شهرة الشاعر ويضعون العثرات فى سبيل نبوغه

ولما استرسل على هذه الصورة من تحليل روح سلفه الشعرية والأدبية ، وأورد شيئاً قليلاً من قصصه وأشعاره ومراميه السامية جاءت الذوبة للمسيو بارتو فأجاب العضو الجديد معدداً له خدمه العلميه ونشأته ومن تخرج به من الناشئة منذ عشرين سنة وهو أستاذ فى مدرسة دار المعلمين العالية ثم أستاذ فى كولييج دي فرانس ، ثم تطرق الى ذكر الشاعر روستان وأشار الى حسنات أخرى له وحاله من وجهة ثانية تحليلاً كيماويا أدبياً ببيان هو آخر ما وصل اليه البيان الفرنساوي بعد معالجة أهله له عشرة قرون

دهشت وأيم الحق بما تلا العالمان من خطايهما اللذين تمثلت لى فيهما الآداب الفرنسوية بأجل مظاهرها والبلاغة الحقيقية التى أخذت باهداب الموضوع من عامة أطرافه فكان اللفظ فى كلامهما على قدر المعنى والتفنن فى الابداع بالغاً الغاية فى النيقة ، وقد حوى كلامهما من جمال الأسلوب وسحر البيان ما يشهد لهذه الأمة بأنها سابقة الأمم الغربية بأسرها فى البيان والتبيان

سمعت ماتلاه الخطيبان وقرأته فى المساء بحرفيته بامعان وكنت أود لو أعربه لقراء المقتبس لولا أن فيه جملاً تحتاج الى شرح حتى يدرك المقصد منها من لم يتأدب بأدابهم من أبناء العربية على ان ترجمته بلساننا تستغرق أعمدة أربعة أعداد من هذه الجريدة على الأقل

تمثلت لى فى هذه الجلسة التى دامت نحو ثلاث ساعات حالة الأمم الغربية فى الثبات وتسلسل الفكر وتقديس الخلف لما قام به السلف فهذا المجمع المؤلف من أربعين عضواً ويسمونهم « المخلدين » مازال يعمل على احياء اللغة وخدمتها منذ نحو ثلاثة قرون يجتمع فى قصره المنيف محافظاً عليه كما كان على عهد انشائه وله من ريع أملاكه ثروة طائلة وكلهم يسرون سيراً واحداً ويضربون الى هدف واحد فى خدمة لسانهم ولا يرون من أمتهم الا التنشيط ولا من الحكومات التى توالى عليهم الا العطف والحرمة . تمثلت هذا وتمثلت بمجمعنا العلمى العربى فى دمشق وما لقي من الحكومة العربية ومن بعض السخفاء لأول مرة من ضروب المقاومة والسخرية فقلت وهذا أيضاً سر من أسرار الخالق فى خلقه يقضى على الأمم المريضة بعقلها فى أيام محنتها وسعادتها ان تنكر المحسوسات وتجادل فى البديهيّات وتستعدى الصاحب والعشير . والجاهل عدو نفسه .



لم أكد أفرغ من هذه التصورات حتى حملت الصحف نبأ مفاده ان رئيس الجمهورية غادر باريز الى موبليه فى جنوب فرنسا ليحضر الاحتفال بمرور سبعة قرون على جامعة موبليه الطبية فاستغربت هذه المصادفة لأن جامعة موبليه هى ابنة العلم العربى فلنا فيها حصّة معاشر العرب لافى بنائها ولا أملاكها ولا فى عروضها وخرئتها وكتبها وأدواتها بل فى وضع أساس علم الطب فيها وغيره من العلوم المادية التى كان فيها العرب أيام عزهم سادة الأمم كافة وكانت الأرض تقتبس منهم ويفاخروا الأذكىاء بالأخذ عنهم .

نعم ان علماء العرب والاسرائيليين الذين قرأوا على عرب الاندلس العلوم الطبيعية على ما كانت معروفة به فى القرن الثانى عشر للميلاد هم الأولى أدخلوا الى موبليه كما حملوا الى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وغيرها بضائع العلوم المختلفة التى خاض فيها العرب وبرزوا وهذا الرأس المال قليلا كان أو كثيراً هو الذى نماه أبناء الغرب فارتقى الى الصورة التى نراه عليها اليوم ولولا العرب لتأخرت مدنية

الغرب قرونًا كثيرة بعد وربما ظل الى اليوم كانه فى ظلمات القرون الوسطى
كثير من باباواتهم وكرادلتهم وأساقفتهم وقساوستهم كانوا يأتون الاندلس
ويحضرون العلوم المختلفة على علماء العرب ويرجعون الى بلادهم يبشرون بها
ومنهم من ارتقى الى كرمى البابوية بفضل ما لقفه عن العرب وكم من كتاب عربي
فى علم شريف كالعلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء اتصلت بأهل الغرب
ترجمته اللاتينية ككتب « كرمونة » الطليانى وفقد اليوم أصلها العربى وبالإلحاف
أما الاسرائيليون الذين كانوا يومئذ فى أوروبا محقرين مضطهدين فقد كان لهم
عند عرب الاندلس مكانة وأى مكانة فجاء منهم نوابغ أيضاً خدموا العلم وأخذوه
عن العرب وبشروا به فى بلاد الغرب

فاذا قال بعضهم اليوم ان علم الطب الذى أخذته جامعة مونبليه عن العرب
منذ سبعمائة سنة كان مؤلفاً من تقاليد شرقية ومن بقايا الكتب التى نجت من
حريق مكتبة البطالسة فى قوله الفخر أيضاً لنا ويكفى أن كلام أبقرات وجالينوس
لم يبلغهم الا من طريقنا وبلغتنا فترجمه أطباء يهود من العرب وعلق عليه ابن سينا
وابن رشد والرازى وابن زهر . وجميع المادة الطبية التى أخذها الغربيون عنا
كانت مدة القرون الوسطى بل دامت الى القرن السابع عشر مادة تدريس الطب
فكانت مونبليه تقرأ بها العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها !

فاذا فاخرت جامعة مونبليه اليوم بتعداد نوابغ رجال الطب والعلم فيها
وعددت غناها بأبحاثها العلمية ومبادئها وحياتها وانها أول جامعة فى أوروبا أحدثت
فيها قصر للتشريح وحديقة للنبات فان هذا الفخر ينالنا منه ولا شك نصيب
عند المنصفين ولكن ما الشأن الآن فينا وماذا ينفع الفخر اذا لم نكون نحن اليوم
بأخذنا عن الغربيين ما أسلفه أجدادنا اليهم من العلم عاملين على أن نمثله بل
نمضغه ونهضمه ونخرج به علماء جديداً فلا نكون مقلدين بل مقلدين أو مجتهدين
مما . وعقل البشر ماسدت عليه منافذه وفضل الله لم ينحصر فى شرقي ولا غربى

بل فيمن يعلم ويعمل . فهل يتعلم قومي ياترى حتى ينبغ فيهم أمثال أعضاءالمجامع
العلمية في باريز وأساتذة جامعة مونبليه حتى يضموا اسمنا في قائمة الأمم
المتحضرة الحديثة

كتب مؤخراً أحد كتاب اسوج كتاباً سماه سرالحكمة الفرنساوية عدد فيه
أهم الصفات التي اشتهر بها الفرنسيون فقال (١) الذكاء وسرعة الفهم (٢)
العشرة اللطيفة والانسانية (٣) فكرة الاسرة (٤) الفردية وحب الذات (٥)
تصلب الرأي (٦) حب الاقتصاد (٧) احترام المرأة

صفحة من تاريخ فرنسا^(١)

٧٥

عرفت معظم أمم أوروبا بالتنقل في البلاد من القديم ، وزاد فيها هذا الخلق
مع الحضارة زيادة كبرى . وكلما استفاضت الحضارة كان التنقل أكثر وأفيد .
ومن الناس من يحب الهجرة ، فاذا نزل بلداً ليصرف فيه ابتغاء الكسب أشهراً
أو أعواماً ، يستميله حب ذاك البلد فيقيم فيه ، وربما آخذه بعد ذلك وطنه ،
ونزل في سبيل حبه عن مشخصاته ومقوماته ، وتلبس بعادات الأمم التي نزل
عليها ، وتعلم لسانها وأصبحت عاطفته مع الزمن عاطفة أهلها . والشعوب
الانكلوسكسونية أكثر حباً للهجرة والاستيطان في أرض الغير من الشعوب
اللاتينية ولا سيما الشعب الافرنسي منها الذي عرف بأنه أقل الشعوب هجرة وسياحة
لجمال بلاده وحبها ولأنها بلاد عريقة في المدنية حوت كل شيء . ومنذ عهد

(١) اعتمدنا على كتاب زهرة التواريخ الافرنسية لهانوتو Hanotaux : La fleur des
histoires françaises و على كتاب لتاريخ العام للافيس ورامبو Lavissee et Ram Band :
Histoire generale وعلى تاريخ الحضارة لسينوبوس Seignobses :
Histoire de la civilisation

الحروب الدينية لم يعهد أنه هجر أرض فرنسا عشرات الألوف من الفرنسيين صبرة واحدة كما فعلوا يومئذ وراحوا يهاجرون الى أرض وجدوا فيها منفذاً لحريتهم الوجدانية .

لا يكفي الانسان أن يعيش ويسكن وان ينتقل من مسكنه فن فطرته أن يتحرك وينتقل . هو في حاجة الى الحركة واستعمال رجليه ليذهب الى القاصية يرى غيره ويحدثهم ويأخذ عنهم أموراً ويقايسهم لافي أصناف السلع والبضائع فقط بل يتبادلواياهم الافكار والعواطف . ينتقل ليستعمل قوته العاقلة وينمي موارده ويوسع دائرته . البشر سواء كانوا منظمين أهل أوضاع وشرائع أو همجالات يدخلون تحت نظام وسواء دعوا قبيلة رحالة أو أمة ساكنة شأنهم شأن الفرد فان الشعوب تنهض وتضرب في طول الأرض وعرضها ترى ماذا كان فيها وما يكون .

كان الغاليون أجداد الفرنسيين مولعين بالحوادث يركبون الاخطار لنيل الفخار ولم يكن العالم القديم في نظرهم من السعة بحيث يكفيهم في حملاتهم ورحلاتهم ولا عجب فهم من نسل أولئك الشعوب الرحالة التي انتقلت من سهول آسيا وكانت العالم القديم من عامة أطرافه وقد نقلوا الى أخلافهم هذا الدم المتحرك في أجسامهم ومن القبائل من يجب الاعتصام وراء جباله ومنهم من يجب الاستكانة على سواحله والفرنسيين يحبون الأرض والبحر على السواء . وقد تجلت فكرة التنقل تجلياً غريباً في الحروب الصليبية فلم يستهو ذلك الفرنسيين فقط بل استهوى معظم أمم أوروبا وكثرت العوامل التي قادت الى هذه الحروب وأدت الى غزوة الغرب للشرق على تلك الصورة دهرآ طويلا . وكيف كانت الحال فان من هذه الحروب بدأ انتشار الفرنسيين في الشرق وعرف أهله وعرفوهم .

ولما رجع الفرنسيين في احدى الغزوات الصليبية من سورية دعاهم في الطريق مدينة سالرن الى الأخذ بناصرها وتخليصها من أيدي العرب الذين كانوا أخذوا بمخنقها فهب منهم رجلان مهذبان من أهل نورمانديا وهما ولدا تنكريد دي هوتفيل : رويرلافيزي وزوجر فأعانوا القوم على تحريرهم ثم انصرفوا ولما كانوا

قد تذوقوا جمال تلك البلاد المنيرة عادوا اليها وأسسوا فيها ملكا طال عهده قرنين وبواسطتها عرف في صقلية وايطاليا الجنوبية اسم فرنسا وأخلاقها وعلومها كما عرفت في الشرق كله أو شرق البحر المتوسط وأصبحت بلرم ومسينا ونابل الايطالية اليوم مدناً أفرنسية أمس وترى في بعض بيع صقلية الهندسة الغوطية الى جانب الهندسة اليونانية القديمة ومعها الهندسة العربية والهندسة البيزنطية وقد تركوا أسماء افرنسية وشارات افرنسية في تلك الارض التي هي أول ما استعمره الفرنسيين .

أتت عدة قرون والمسألة الايطالية والصقلية والنابولية كانت مما يهتم له ساسة المرئسيين ودام ذلك الى عهد حروب ايطاليا التي جمعت مسالح الشعبين الافرنسي والايطالي واجمعا على مقصد واحد في المدنية وقاما بما سمي « النهضة » . أن النورمانديين وهم ملوك البحر لم يقتصروا على دائرة خاصة في تطوافهم وفتوحهم بل كانت سفنهم منذ أوائل العهد الاطول للقرون الوسطى تخرج عباب البحار الاسبانية والبورقالية وتجتاز جبل طارق وتسير مع شواطئ افريقية فغرفوا جزائر آسور وكناريا والرأس الاخضر وقيل أنهم أسسوا مراكز تجارية لهم في شاطئ الذهب وشاطئ العاج حيث قامت في العهد الحديث مستعمرات افرنسية مهمة حتى لقد ادعى بعضهم أن هذه الرحلات البحرية التي وصلها النورمانديون الفرنسيين قد سبقتهم بها خريستوف كولمبس فاتح أميركا الى معرفة العالم الجديد ورأوا أرضاً وهم يشقون العباب على سفنهم الشراعية .

ومن المحقق أن أحدهم جان دي بيتانكور احتل سنة ١٤٠٢ جزائر كناريا باسم ملك فرنسا ولكن حرب المئة سنة في فرنسا قطعت الرغبة في مثل هذه الأعمال . ولما كشف فاسكو دي غاما الملاح البرتغالي طريق رأس الرجاء الصالح وخريستوف كولمبس الجنوى قارة أميركا ، فكشفنا بذلك طرق العالم الجديد الكبرى كانت فرنسا مستعدة للدخول في هذا العراك .

كانت المدنية الى ذلك العهد محصورة في عبر البحر للمتوسط فقط ، وقامت

المدينتان القديمة ، وعاشت على ضفافه وفي القرون الوسطى كانت رومية مركز الدائرة العقلية والأدبية في الأرض وموانئ البحر المتوسط برشلونة ومارسيليا وجنوه ويزا والبندقية وسيطات التجارة مع بلاد الشرق .

وعلى عهد النهضة انبعثت المدينة الحديثة من شبه جزيرة ايطاليا التي ورثت مباشرة تقاليد فيزانتية وتراثها ومالبت القوم في أوروبا ان عرفوا بوجود أراضي واسعة وراء ما عرفوه من الشرق ومن بلاد الهند التي طالما طمع فيها الطامعون وأيقنوا أن وراء البحار جزائر وقارات ثمينة وسكاناً ودعاء ينزلون بلاداً كثرت فيها مواد القوى الطبيعية وأصبح معبها فائضاً لا ينضب . ولما عاد أرباب الرحلات الاول من تلك الاصقاع النائية ذكروا لقومهم عظمة البلاد التي رأوها متجلببة بجلباب الغنى والسعادة وحدثهم عن الانهار العظمى وما تظل من البقاع البكر وعن وفرة المناجم وغناها وعن سهولة العيش في تلك المشاهد الغريبة .

ولم يمض زمن طويل حتى قامت الاساطيل التي كانت حصرت وكدها في التطواف فقط في الابعاد المحدودة في البحر المتوسط تطوف في بحر الظلمات والبحر الغربي كما كان الاوربيون يعرفونه . ففتحت في العالم طرق عريضة للعمل واستسهلت المخاطر والرحلات الطويلة التي تحتاج الى كثير من الاقدام واقتحام العظام واقتضى لتلك الثروات الجديدة رجال جدد وعقول جديدة . فعلى شواطئ ذلك المحيط قبالة تلك القارة التي ظهرت من العدم الى الوجود نشأت ونمت بطول العراكة والنشاط العظيم شعوب قوية بعيدة مجرى الهمم طموحة الى العلاء والثناء فكان الاسبانيين والبرتغاليين المقام الاول المحمود في هذا الشأن ثم للفرنسيين والانكليز ثم جاء الهولنديون والالمان وكلهم من سكان شواطئ بحر الظلمات وبحار الشمال فكانوا على استعداد لاجتياز البحار اذ كانت هذه أملاكهم وعلى ضفافها بلادهم وكانوا عرفوا طرقها أيام تشرد بعض أبنائهم في أسفارهم البحرية فأخذوا يقذفون بأنفسهم في تيار هذا المعتكف فاعتموا ان احتلوا أرض خريستوف كولمبس التي أحرز أميريكوفيسبوسى الملاح القلودنسي

شرف نسبتها اليه (أميركا) فأنشأوا فيها أمماً جديدة ، وأحدثوا مدنيات هي بنات علومهم وآدابهم ، وهكذا قبضوا على قياد المسائل العظمى بين البشر .
وبينا كان الفتور يعمر الأمم البحرية ويضجرهم العمل حتى أوشكوا أن يتركوا خوض البحار ويذهبوا في البحر المتوسط وخوض لجه قام مهندس افرنسى مسوقاً بنابل من نبوغه وقريحته الى فتح ترعة السويس ، فوصل الشرق بالغرب وعادت قوى الأمم الى نشاطها ، وأخذت كل أمة تفكر بإيجاد مملكة لها على البحر كما لها مملكة في البر . وكان للفرنسيين في ذلك شأن عظيم . ففي سنة ١٥٠٣ اكتشف ملاح نورماندى فرنساوى البرازيل وفي سنة ١٥٠٦ وصل ملاح فرنساوى آخر الى الأرض الجديدة وفي سنة ١٥٢٩ وصل آخر الى صومطرا وقد طاف أمثال هؤلاء الملاحين جميع شواطئ أفريقيا ، واستعمر الفرنسيين الأرخييل فرنساوى ، ثم استولوا على كندا ، ومع كل هذا فان البرتغاليين والاسبانيين ثم الانكليز والهولانديين قد كتب لهم النجاح في مستعمراتهم أكثر من الفرنسيين . فان هؤلاء لم يستطيعوا لاختلاف كلهم في الداخل أن ينشئوا ممالك باقية لهم كما فعلت الأمم البحرية الرابع .

بدأت فرنسا باستعمال السيفغال وسيراليون وشاطلي العاج ورينيون وجزيرة موريس في أفريقية وبعض أجزاء الهند في آسيا وجزائر الارخييل وكويان ولوزيان وكندا وذلك في أوائل القرن الثامن عشر : وأظهر بنوها استعداداً للاستعمار من المفاداة والجرأة والعمل حتى صح أن يقال ان كل حفنة من تراب تلك البلاد جبلت بدم افرنسى لأنها كانت تكره نزول الغرباء عليها ، حتى اذا انتصف القرن كان ريع تلك المستعمرات عظيماً جداً .

وكان من نتائج اشتغال فرنسا بحروب لويس الخامس عشر أن فقدت مستعمرتين عزيزتين عليها كندا والهند ، وذهب عمل أبطاها وعقل علمائها ومنظميها أدراج الرياح . ولما شغلت بالثورة لم تضع الأزيمة أوزارها حتى لم يبق لفرنسا بحرية يعتد بها وفقدت زهرات من مستعمراتها .

وفي القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيين بالانتشار في الاقطار وصحت عزائمهم على الاستعمار فبدأوا باستعمار الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ فافتتحوها عقيب حروب هائلة مستخلصين لها كما قال هانوتو من شعب صعب القياد لا يخضع ولا ينقاد ، ثم خفق العلم الفرنسي على خاليدونيا الجديدة وأرخيل تاهيتي في المحيط ، وأخذت فرنسا الكوشنشين من مملكة اتام سنة ١٨٦٣ وعلى عهد الجمهورية الثالثة الحالية تم امتلاك الجزائر بالاستيلاء على تونس . وانضمت الى مستعمرة الرينيون الحقيرة بلاد مدغسكر وأراضى الأرخيل المحيطة بها ثم كومور ومايوت وتومسي بي وأضيفت الى خاليدونيا الجديدة بلاد الهيريد الجديدة ، وانضم الى الكوشنشين كبودج واتام والتونكين الى حشد مكوئنج . لا جرم ان أهم مستعمرات فرنسا هي على مقربة منها في شمال أفريقيا ، فإذا تم لها استصفاء سراكش مع ريفها خفق عليها على جزء عظيم من بلاد العرب في الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، واتصل ذلك بمستعمراتها في داخل أفريقيا وغربها فتتشر بذلك تجارتها ولفتها وأخلاقها وامجادها وتكثر بأهالي تلك البلاد سوادها

* * *

إذا القينا رائد الطرف على تاريخ فرنسا نجد أنها ظهرت في مظاهر الحياة في حالتها بؤسها ونعيمها ولما تمت لها وحدتها واستدارت رفعتها واتسعت في القاصية مملكتها رأت كما قال مؤرخوها أن المرء لا يعيش منفرداً بل هو يريد أن يحب ويحب وأن الكامل من صدر عن كرم ودعته الحاجة الى التفكير في خير الناس وأكثر الشعوب قوة من اذا آتت من نفسها ذلك رأت دافعاً منها يدعوها لان تعمل ما حولها وأن تنشر في الخارج شيئاً من مواردها وأن تفيض ذرواً من فضل نشاطها الذي غرسه الطبيعة فيها ، قالوا : ولطالما تكرر لفرنسا بل ربما أتت ذلك مرة في خلال النرون الماضية أن أثبتت شجاعتها الادبية بأن خفت الى معاونة الشعوب الضعيفة والمغلوبة ومن خانها نكد الطالع وسوء البخت فافتقرت وتقطعت أوصالها فقدمت اليهم معاوتها المادية وبذلت نحوهم عواطفها وكثيراً

ما كانت تهب دفاعاً عن عاطفة أو تأييداً لفكر وقد انتقدتها الأمم الأخرى على هذه الاخلاق وعدوا ذلك فضولاً منها ودخولاً فيما ليس من شأنها وكثيراً ما كان ذلك يضر بها ويجلب نفماً لغيرها ولكن هذا الخلق على ما يظهر طبيعى فى الفرنسيس فقد فطروا على حب الدعاية وبث الدعوة لما جبلوا عليه من حب التآلف والميل الى الانس والتعارف

حب العشرة حاجة من حاجات القاب والسعى فى التقرب ممن لا يعرفك هو مبدأ حبه لك وحبك له ومن عادة الذكاء الفرنسى ان اشتدت حاجته الى التفاهم والاتصال بالغير ولذلك زعموا أن من أول امتيازات اللغة الفرنسية ان كان فيها من الوضوح والجلاء ما ليس فى غيرها من لغات الغرب . وما دام الفرنساوى لم يستول على قلوب من يحفون به لاشراب قلوبهم ما يعتقده حقاً فانه يفتش على أساليب فعالة لفهامهم ما يراه هو بنفسه فالرجل الفرنساوى اذا كانت له عقيدة لا يكون سعيداً الا اذا شاركه فى ذاك من يحب من الناس ولذلك كثرت أسماء الفرنساويين فى قائمة المجاهدين فى سبيل بث فكر أو نشر مذهب فى كل قرن وتجلى ذلك فى القرون الوسطى فامتزج فى أجدادهم حب الايمان بحب التنقل فى البلدان فكانوا يحجون الأراضى المقدسة ويوزرون المعتقدين بحسب عرفهم . وكان لرومية والقدس وسان جان دى كوه بوستل ولورد وغيرها نصيب وأى نصيب من تلك الزيارات كما تزور الامم اليوم باريز ورومية وآثينة لانها مهد مدنات عظمى . وكانت هذه الرحلات فى القرون الوسطى من أعظم الاسباب فى التواصل والتعلم والتحسس فيلتقى الناس على الطريق ويتفاهمون ويقص بعضهم على بعض أموراً ويأخذ أحدهم عن الآخر أشياء . ومن الأغاني القديمة نشأ فى الفرنسيس الميل الى طرد العرب من أرض فرنسا بعد أن استولوا منها على شطر عظيم . من التغنى بتلك الأغاني أولع قومهم بالحج الى بيت المقدس وقبر المسيح وأثرت فيهم مواعظ رجال الكنيسة والرهبان الذين رأوا أن ينشؤا فى عالم النصرانية مذهباً أدبياً واحداً باسم الكثلثة الرومانية بتلك الاغاني

استعدت الافكار لالقيام بحملات في القاصية ولا سيما على المسلمين وبذلك نشأت الفتوة والفروسية فيهم والقسورة عندهم هم الذين يفادون بمالهم وراحتهم وحياتهم ليقوموا على الارض بعمل عظيم من الشجاعة والعدل وطيب السريرة ثم فسد هذا المثال من الرجال ولكن كان في ابان انتشاره من أشرف ماتطمح اليه النفس البشرية من مظاهر الشرف والفخار على رأى هانوتو اذ كان واحدهم يرمى الى مقصد عال من خدمة الدين والعطف على اليتامى والمنهوكين والاخذ بأيدي المهجرين والعائرين . وسرت العدوى عدوى التجنن بالصليب في فرنسا كما وصفها كتابهم واستولت على أفئدة السذج وكان داعية ذلك بابا افرنسى الأصل اسمه أوربانوس الثانى وراهب وهو بطرس الناسك وهما اللذان أوقدا جذوة الحروب الصليبية وجعا الناس في فرنسا لغزو الاراضى المقدسة وسكانها فهرعوا ألوفاً ألوفاً وقضوا فى الوصول اليها زرافات ووحداناً وبعد سنتين فتحوا أنطاكية ثم بيت المقدس وغيرها وكان معظم الامراء الذين استولوا على شطر من سورية من الفرنسيس ولكن عرضت لهم معاييب ومصاعب اضطررتهم بعد سنين طويلة الى ان يرجعوا ادراجهم ولو كتب لهم البقاء لكانت دعوتهم فى البلاد التى غزوها سرت من ذلك الحين بيد أن قواتها خاتهم ومن وراءهم من الامم لم تمد اليهم أيدي المعونة ورفعت فرنسا صوتاً مرات فى حمل الامم الغربية على مناصرتها فلم تفلح فلما جف لديها معين الاقناع لم تر الا الرجوع ونادت بالرحيل ثم جهزت حملة ثانية بدعوة القديس برناروس وبعمونة ملكهم لويز السابع الفرنساوى وكونراد الثالث امبراطور المانيا فأخفقت أيضاً وهكذا اشترك الفرنسيس فى الحملات الصليبية الثمان التى حملها الغرب على الشرق . وكانت السابعة والثامنة بقيادة أعظم ملوكهم القديس لويس الذى كان يرى أن يهاجم القوة الاسلامية فى أهم حصونها أى فى مصر وتونس لافى فاسطين وسورية فاستولى على دمياط ومصر وغلبه المسلمون فى المنصورة وأسروه فى تلك الوقعة ولم يطلق سراحه الا بارجاع دمياط ثم جهز حملة قوية سنة ١٢٧٠ على تونس وهلك

هناك بالطاعون ولكن الفرنسيين لم يفسوا تونس فخاؤها سنة ١٨٨٠ يحددون ذكر ملكهم الشجاع التقى في نظرهم الذي عبد أمامهم الطرق الى فتحها

وبعد قرنين استخلص العرب من الصليبيين بلادهم في سورية وابلى الفريقان في ذلك بلاء حسنا وبذل الفرنسيين خاصة دماء وشجاعة وبسالة واقداما . وقد عادت هذه الحروب على شعوب أوروبا بالفوائد العظيمة فحركت دمها ومازجت بين عالمين وعرفت قصور مدنيها وأدركت أموراً من مدنيات قديمة واتسع أمامها مجال العمل والاقدام وكان في تجديد الحملات الصليبية تجديد النهضة وكان الاشتراك بها يعد من السكّال البشري لان الانسان قلما فادى بحياته في سبيل غاية كل هذه المفاداة المخلصة وكان لفرنسا المقام الاول في هذا الباب لما أحرزت من المجد فانتشر ابناءؤها على شواطئ البحر المتوسط وتنقلوا من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب وبيننا كان الفكر الديني هو العامل الاقوى في الفرنسيين على عهد القرون الوسطى جاء دور النهضة العالمية ويطلقون اسم « النهضة » على العصر الذي جاء بعد القرون الوسطى مباشرة وليس معنى ذلك أن القوم قطعوا ما بينهم وبين الماضي من الصلات وطلقوا الغار ليأخذوا بأهداب الجديد الحاضر فان ذلك صعب والتاريخ كالطبيعة لا يعمل طفرة ولا ركضا وعمله تدريجي . وقد اختار من سبقوا من الكتاب أن ينعتوا ذلك العصر بعصر النهضة لانهم كانوا مأخوذين بلطفه الذي يشبه الربيع فان البذور التي رقدت طويلا في الارض أخذت فجأة تقوى وتنمو فانبعثت المدنية كما تزهر الاشجار في آذارها وكان العامل الاقوى في هذه النهضة استمتاع الناس بحياة حرة أكثر من العصور السالفة وتمتعهم بعيش طيب فيه البذخ والرفاهية . مظاهرات الى ارتقاء الفكر ارتقاء محموداً والى الابداع في التصوير والنقش

خلصت القوميات في أوروبا من قيودها . واذ كان عمل الجماعة أقوى وأثبت اواشد احكاماً مما كان عليه في القرون الوسطى أصبح الميدان فسيحاً لمرض الافكار الحرة والمقاصد التي تحتاج لتعمل الى زمن ولم يعد الاشخاص فقط ولا

جماعات خاصة ولا المدن ولا النواحي تعمل وتستحصل مشتركة بل كان العامل في ذلك الشعوب والاطمان وكانت المدنية ترمى بحمد ذاتها الى مقاصد فتحت لها منافذ واسعة الى العالم والمستقبل وأخذت الامم يختلط بعضها مع الآخر ويتبادلون الافكار والاكتشافات وقد استفادت في حوض البحر الابيض خصوصاً تجارة مهمة عقيب الحرب الصليبية وسكنت بعض السكون نفحة الطوائل والثارات بين جميع الشعوب البحرية سواء كانوا كاثوليكاً أو روماً أو مسلمين . وكانت بين مدن البندقية ويزا وجنوة ونابل وبلرم ومارسيليا وبرشلونة وبين الاستانة والاسكندرية وتونس والجزائر صلات مستديمة وكان تعليم الملاحين في البحر المتوسط متحداً ويتكلمون لساناً واحداً وكانوا حيث يحلون يعثرون بآثار نفيسة من عظمة القدماء وهم اليونان والرومان . وأخذ الناس في كل مكان يتغالون في أوربا باقامة البيع واعلاء قباهها ونصب التماثيل وأعمال العمران من ملاعب وميادين وحجار وموان وعمد وأروقة وأهرامات . وأنشأ أهل الشمال يجلبون صنائعهم الهندسية وعلومهم العملية يمزجونها بما لدى سكان الجنوب فظهر من ذلك نور أخذ بالا بصاراً وكاد وحصل من ذلك صنائع سموها بضائع النهضة وكانت النهضة ايطالية بادية بدء ولكنها تأثرت بمؤثرات سكان الشمال فنشأ في ايطاليا من نوابغ المهندسين والمصورين أمثال ليونارد دي فنسي وميكل آنج ورافائيل لم ينبغ في جميع الامم الاوروبية أمثالهم في عصرهم ولا في الذي بعده

ولم تكف في قيام صنائع النهضة مسجة (ملققة) البائين ولا ريشة المصورين ولا مقراض النقاشين . بل زاد ولوع الناس بالتعلم والحكم على الأشياء بفهم وأخذوا يتطلبون من كل مكان الكتب وكانت نادرة ثمينة بحيث بنيطونها الى سلاسل في خزائن الكتب القليلة التي كانت تجعل فيها وكان تطلب الكتب عاماً والاسفار الى ذاك العهد تنسخ يبطء واحداً بعد واحد لتعفظ في قلايات الاديان ويخص بمطالعتها الملوك وكبار السادة والأعيان أو أغنياء الرهبان ، أما الطلبة ومحبو الاطلاع فكانوا يكتفون بتلقيها وتلقيها بالكلام أو بالتصوير

والعالم طامح الى التعلم والمعارف . وفي هذه الاثناء اخترع غوتنبرغ الطبع فكثرت المؤلفات والكتب وتناولاتها الأيدي بسرعة فوحدت الافكار والذكاء البشرى ووسعت العقل فتوسع العالم . وبينما كان غوتنبرغ يخترع الطبع كان فاسكو دى غاما وخريستوف كولمبس يكتشفان أميركا . فاشتركت فرنسا في هذه النهضة المباركة المعجبية ، ونزلت في الميدان الذى فتح أمام الذكاء الغربى وبينما كانت البندقية وجنوة ويزا في ايطاليا آخذة بالانحطاط كانت بوردو ولوريان ونانت والمهاجر من بلاد فرنسا آخذة بالا-نفادة والارتقاء . فكانت فرنسا في الصف الأول بين الممالك المتحدة الموحدة وكانت لها ميزة على الأمم الغريبة لان ملوكها جلبوا اليها من حروب ايطاليا كل ما استطاعوا اقتطافه من ثمرات النهضة وذلك لاختلاطهم بسكان شبه جزيرة ايطاليا قبل غيرهم .

هذه صفحة جليلة من تاريخ الفرنسيين وتنقاهم في البر والبحر وما أبدوه من مظاهر الشجاعة في الدهر الغابر بحسب عرفهم وتصورهم وعلى ما تقتضيه درجة ارتقاءهم وتطورهم وكيف غزوا الشرق يوم تدنيهم باسم المدنية . واستعمروا بعض أقاليمه يوم نهوصهم باسم المدنية . فسبحان مبدل الأفكار ، ومكور الليل على النهار .

قصر فونتينبلو

٧٦

عمر الملوك منذ ألف البشر اجتماعهم قصورا كثيرة ذكرها التاريخ ولكن قل فيها ما تماورت الأيدي على تنميته . مثل قصر فونتينبلو على ٥٩ كيلو مترا من باريس ، ونظن كثيراً من القصور التى اشتهرت في القديم اذا جعلت الى جنبه تمهد أكرواخا ويوتا ضئيلة ، قصر تهيجتك عظمته لان فيه ما حوت العظمة من

المعاني في المباني . قصر تتجلى فيه الصناعة والهندسة والتفاني في الابقاء على آثار الأجداد ، ان كان ظاهره كسائر القصور باهت لانه بنى بحجر وأجر غير وبقهما الدخان وتناول الأزمان ، فان في الداخل مالا يكاد يتصوره العقل من آثار الصناعة والتفنن ، زرته في اليوم الثامن عشر من كانون الاول ١٩٢١ والشمس مشرقة تخرج بأشعتها أعاليه وساحاته وغاباته فما أبهج وما أعظم .

لا يزيد سكان المدينة التي قامت بالقرب من هذا القصر على خمسة عشر ألف نسمة وكان يأتيها السياح من العاصمة ومن الآفاق بالمئات يقضون ساعات وأياما على مقربة من عادياتها التي تدل على ان العظمة تسلسلت في فرنسا منذ زهاء خمسة قرون ، وان ما اشتهر بنيتها من سلامة الذوق وقوة الابداع حقيقة لا يتماهى فيها اثنان .

ذكرت فونتنبلو في التاريخ لأول مرة في القرن الثاني عشر وكانت قلعة باديء بدء وأقام فيها لويز السابع بيعة ووسع سان لويز القصر وأقام فيها شارل الخامس دار كتب وهي التي نقلت بعد الى باريز وكانت النواة التي منها ألفت دار كتب الامة في عاصمة الفرنسيين . ولقد كان فرانسوا الأول هو الموجد الحقيقي لقصر فونتنبلو مخاطب كبار الرسامين والنقاشين والبنائين من الطليان فلم يجبه منهم الا أناس كانوا يعدون في الطبقة الثانية بعد ميكل آنج وليونارد دي فنسي ورافائيل وظل هنري الثاني يداوم على العمل الذي بدأ به سلفه فرانسوا الاول

وكان هنري الرابع بعد فرانسوا الاول أكبر بان لقصر فونتنبلو . فعمل في بنائه منذ سنة ١٥٩٣ الى سنة ١٦٠٩ وأتفق فيه مليونين ونصف مليون ليرة وجاء لويز الثالث عشر وعمل أيضاً في بناء القصر ، وكان لويز الرابع عشر يأتي فونتنبلو كل سنة وأصلحت ماري انطوانيت بعض جهات من القصر . ولما نشبت الثورة الفرنسية ترك القصر زمناً . ولما قبض نابليون الاول على زمام الملك أتفق فيه اثني عشر مليون فرنك وأصلحه . وفي هذا القصر كتب هذا الامبراطور صك تنازله عن الملك سنة ١٨١٤ وفي قاعة كتب القصر اليوم

مسودة هذا الصك وفيه ودع حراسه فسمى المكان الذى خرج منه صحن الوداع وقال فى مفكراته عن قصر فوتينبلو ، وهذا ولا شك منزل الملوك بل منزل المصور .

وما زال القصر منذ وجد يزوره ملوك أوربا ويأتون اليه فى الاوقات الرسمية وينشاء رجال فرنسا من ملوك ورؤساء جمهورية زائرين متصدين يتألف القصر من عدة أبنية مختلفة بنيت كمارآيت فى مختلف المصور بدون رسم خطة معينة ، ولذلك دعى بمجمع القصور وفيه نموذج من مدنيات خمسة عصور فى البناء والفرش والآنية والرسم والنقش وكل قصر بل وكل شعبة من قصر صرفت فى تزيينها القرائح وبذلت فى ايجادها الاموال ، فترى فيه سرر الملوك والملاكات . وغرف زينتهم ومطالعتهم وجالوسهم وأماكن حظياتهم ووصيفاتهم وكتمة أسرارهم وغرف انتظارهم زوارهم وقاعات استقبال العظماء فى المواسم وجوقات موسيقاهم ومحال رقصهم ومناضدهم ومقاعدهم ومتكائهم وساعاتهم وأدوات تسليتهم وخزانة الكتب التى وضعت فى ممشى طوله ثمانون متراً فى عرض ستة أمتار وزيادة وفيها نحو ثلاثين ألف مجلد مذهب وكثير من المخطوط القديمة والعاديات فى النقش والرسم مالمو أردت وصفه لاستغرق عدة صفحات .

أما الغابات المحيطة بالقصر فهى من أجل ما خلق الخالق وتعاورته الايدى بالتحسين وساحتها ١٧ عشر ألف هكتار ولها ألفا كيلو متر من الماشى والطرق و ١٦١٦ هكتاراً للمتزهات و ٤٠٠٠ هكتاراً من الصخور وفيها من أشجار السنديان والزان والصنوبر والسندر ، والسنديان أكثر الشجر وهى من العظمة والضخامة على جانب لا تشتغل الفأس فيها الا مرة كل ثلاثين سنة وريمها نصف مليون فرنك ، ولكل ناحية من هذه الغابة مزايا وفضائل أفردتها القوم بالتأليف وغالوا فى درسها والبحث فيها ولا سيما أحجارها وأشجارها . ومن أشجارها ما دعوه باسم آلهة القدماء تنويها به وجعله المفكرون متزههم والشعراء مدعاة

قرايحهم والعاملون سلوى نفوسهم . وأدهش ما يدهشك في القصر . والغابة
في فونتنبلو تسلسل الفكر في الفرنسيس وتقانيهم على اختلاف الادوار التي
أتت عليهم من ماسكيات مطلقة ومقيدة وجمهورية في الاحتفاظ بالقديم
والعمل على تحسينه وتزيينه لتذكر الاحفاد . اعلم الاجداد . فلاعجب اذا كانت
فونتنبلو بهجة النفوس وهي خلاصة قرائح كثيرة وأيد لا يعلم عددها . فونتنبلو
احدى العاديات التي تفاخر بها فرنسا وحق لها أن تفخر لانها تم على عظمتها
وثرورها .

الموسيقى المصرية

٧٧

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، مهونة
الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل
النفسية أصدق عامل على التحمس والتحمس ، أقوى دافع الى النهوض . معاملة
أتقع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن
مزلق الشباب وطيش العلوم ، فيها يتجلى العقل البشرى الفعال بأشارات وأى
اشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ولذلك تجدها في كل صقع
من أصقاعهم نفمة وردنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وترأخاً ، بل أوتاراً
تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب بالمستمع
الى ميدان المضاء وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوسوس
والهواجس ، وتجعله في الذروة يشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها
في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا يجتمع

دينياً كان أو مدنياً . ولا ملهى ولا مسرح ولا ما لعب ولا مرقص . ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيه يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مفروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولاً ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتماعاً ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الاسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والامنى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهر ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، واجمت كلمتهم على عموم تفعها . والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دى ستايل انك لا تجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحرائين من لا يعرف الموسيقى فى المانيا فى أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما تسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يعجّدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة فى الغرب ولكن العصور التى تخرجها مختلفة وان أسمعوك فى بلد ما هو من صنع غيرهم فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن فى أمة أخرى . وأمم الغرب مها تباعدت فى المقاصد وتباينت فى المصالح لا تجدها الا متفقة فى تمجيد المفاين من الموسيقيين يضربون أوتارهم غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التناز مداه فى صدورهم فليس لهم شى أجمعوا على تقديسه مثل نعمة تصدر عن يد صناع ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرق أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيمهم ولانه ألف لغات أخرى . وان لم يفهمها ولكنها قريبة من مصطلح قومه مؤتلفة مع مناخه ومحيطه . ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربى يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والألف . والفارسى يحب الموسيقى العربية

لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويث الروابط بين الامم . وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم . والمبعدات بين القلوب . زاد طرب الجار من نعمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولاندة والبلجيكا واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية أكثر من غيرها لأنها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لأنها ترشح من موسيقانا ، وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحجون في البلاد ، مشتهدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لأنها أرقاها وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنعمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية . وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعله فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخرآ مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية وتبيع بنفسجآ ترشقه على الحضور فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجل مآرائه العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى ، وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كانت لنا في بر الشام موسيقى راقية فكادت تندثر لزهد الناس في هذا الفن لأنه دليل ارتقاء الأمة ، والأمة كانت مشغلة بنفسها ترجع القهقري ، وكان المستغلون بهذا الفن مردولين ممتهين ، فبينما نجد الموسيقار والمنشد في الأمم الأخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعماً مرفهاً اذا مات مشى في جنازته

العظماء - كما فعل الفرنسيين بجنازة سازه ساين الموسيقى - وعدوه من المفضلين على أمتهم ومجدوه وقدسوه ، ترى مثيله في أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفنه حاش فقيراً ومات خاملاً حقيراً ، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تخطى عن هباته خشية ان يلحق به العار . وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يحبه ، وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد في الطبقة التي هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غني بالأجرة ^(١) ويتساحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه وكانوا يعدونه فناً يفقر صاحبه ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بآدبه ، ويرزق عشرات الألوف منه . فاذا مات مات عن ثروة طائلة وخلف لأهله مجداً وغنى .

لغة عامة

٧٨

بعد انتظام سير القطارات والسيارات والمركبات الكهربائية في البر والسفن في البحر والطائرات في الجو اشتد اختلاط الأمم بعضها ببعض وأصبح الشرق لا يستغنى عن الغربى ولا الاوربى والاميركى عن الاسياوى والافريقى والبشر في حاجة تزيد مع الايام مساساً الى التخاطب والتكاتب والتعامل والتواصل للتجار والاستثمار والعلم والسياسة وغير ذلك من مقاصد الحياة والاجتماع . أمسى البشر في حالة من احتكاك أبناء اللغات المختلفة لاسبيل معها الا الى التفاهم لان حياتهم مناط ذلك وهذا يشمر به حق الشعور من ساح في بلاد بعيدة ونزل على

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء وازواة باعلى المعيد للدفتوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

أمم وعناصر متباينة . ان من يحسن الانكليزية أو الافرنسية من لغات الغرب ومن يعرف العربية أو الفارسية من لغات الشرق مثلاً قد تسهل عليه السياحة أكثر من غيره في الغرب أو في الشرق ولكن هذا غير كاف للاختلاط والتعارف والكسب والتعلم وكم من دانيمركي أو هولاندي أو أسوجي أو فنلاندي أو بهيمي أو بورتيغالي أو مجري أو عربي أو فارسي أو تركي أو جاوي أو ياباني أو صيني لا يحسن غير لغته فإذا جئت تتجر معه أو تأخذ عنه شيئاً من مظاهر الحياة التي لا تجدها عند أمتك تخفق لعدم فهمك وفهمه .

أكثر الطبقات المستنيرة في الأمم تعرف لغة أو أكثر غير لغتها فالفرنسي المتعلم قد يعرف الانكليزية أو الالمانية والايطالي قد يحسن الافرنسية والالمانية والياباني قد يتمكن من الانكليزية . ولكن العبرة لا بالفرد بل بالمجموع فانك اذا كنت على بضعة كيلومترات من الجنوب الغربي في فرنسا ودخلت أرض اسبانيا وكنت لا تعرف غير الافرنسية لانجد في الشعب من يكلمك الا بالاسبانية وكذلك اذا اتجهت صوب الشمال فترات اسكلترا أو هولاندة أو السويد أو زوج خالك كذلك اليك الحال في أوربا والخطب في أميركا أقل لان الأثرية في شمالها تتكلم الانكليزية وفي الجنوب يتكلمون الاسبانية والبولية والبورتغالية وفي كندا يتكلمون الافرنسية والانكليزية . أما أوربا وآسيا وأفريقية فهي برج بابل بتبلبل السنة سكانها وناهيك بهذا طاق عن التمازج والتعامل فقد اعتصمت كل أمة في حدودها وتناغت بحب لغتها ولا سيما بعد تقرير مسائل القوميات وجعلها في الاغلب المعيار الأول لان يكون علمها واحداً

دعت الحاجة تيمورلنك في القرون الوسطى وكان جيشه مؤلفاً من عناصر تتكلم بلهجات شتى وهو في حاجة الى توحيد مقصده فألف لغة الاربدو أي الجيش ليتفاهم جيشه فرسخت هذه اللغة المصطلح عليها في الهند حتى كادت تكون أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً وساعدته على فتوحه وارتفعت بها اشكالات عظيمة . واخترع أحد ضباط الروس منذ بضع سنين لغة سماها « الاسبرانتو » أخذها من

أصول اللغات اللاتينية على الأكثر لتكون واسطة التخاطب في العالم فنجح في بث اختراعه وعلى كثرة مالتى من معارضة المعارضين أربى عدد المتكلمين بلغته الجديدة على مليون متكلم يتعلمها المرء في ثلاثة أشهر كما أكد المعارفون بها وأصبح الدعاة اليها كثيرين من رجال العلم في الغرب قائلين أن نحول لغة الاسبرانتو يتعلم في ساعة ومفرداتها خصوصاً لمن يعرف إحدى اللغات اللاتينية كالفرنسية والإيطالية والاسبانية والبورقالية يمكن حفظها في أسبوع ويكتب بها من يتعلمها عقيب الشهر من بداءته بها على أي سروج وفي ختام الثلاثة أشهر يتكلم بها جيداً ويكتب بها فيجيد وقالوا أن من القوائد المادية والمعنوية التي تنشأ من انتشار هذه اللغة أن تتحاب الأمم في الغالب لانهم يتفاهمون في الحال على اختلاف مداركهم وطبقاتهم وكم من مشاكل حدثت لسوء التفاهم وكم بغضاء تأصلت ومنشؤها عدم الفهم والتفاهم .

وعلى ما في هذه اللغة الجديدة من السهولة يكون السبق فيها للشعوب اللاتينية أو لمن يحسن فهم إحدى لغاتهم وعدد هذه الشعوب في أوربا وجنوبي أميركا يربو على مائتي مليون نسمة يؤلفون كتلة مهمة امام اللغات الانكلوسكسونية والسلافية والجرمانية التي يزيد المتكلمون بها كل يوم لوفرة سكانهم ومواليدهم . أما الانكليز والاميركان والجرمان مثلاً فيردون على الاغلب هذه الفكرة فكرة اللغة الواحدة ويقولون كان علماءنا في القديم يتخاطبون ويتفاهمون قديماً باللغة اللاتينية وناهيك بها من لغة ونحن اليوم نتفاهم مع الشعوب الأخرى بإحدى اللغات الحية كالانكليزية والالمانية والفرنسية ثم أن احداً قد يحسن التخلص بتعلم إحدى هذه اللغات في بضعة أشهر لسهولة طرق التعليم والتدريس وخير للانكليزي أن يتعلم الفرنسية مثلاً لغة حوت أجل القرائح وهي لسان عشرات الملايين من الخلق من أن يتعب نفسه بلغة ملفقة كلغة الاسبرانتو لا نبوغ فيها ولا عبقرية .

قال أحد الدعاة الى تعلم الاسبرانتو وهو من كبار رجال العلم في فرنسا بعد

أن عدد مزايها ولا يتوهمن واهم ان نشر هذه اللغة خيال في خيال أو تقويم باطل أو حلم حالم فان عدد من يتكلمون بهذه اللغة ويكتبون بها الآن في العالم مليون انسان فاذا بذلت العناية قليلا بها لا تلبث النتائج أن تزيد والفائدة أن نعم . ولعله يأتي يوم وليس بعيد يعجب فيه أبنائنا توقفنا في الاصطلاح على لغة عامة سهلة التعلم وكيف لم نقبل على الاخذ بها بادئ الرأي . لاجرم أن صغار احفادنا سيتجاوزون حد الاستغراب متى قرأوا الحجج الصبائية التي يدلى بها المعارضون لفكرة اللغة الواحدة . أن دعاة التقليد واعداء التجديد وانصار الارتجاع واحباب النقيض والساخرين والمهاككين المدعين والمتعالمين ورثة من كانوا يبرزون بالقائل بدوران الارض ويقبحون مكتشف حركة الدم ومخترع السكك الحديدية والسيارات والطائرات — أن المدافعين عن كل قديم مهما رث وبلى قد اخترعوا لهم اعتراضات صبيانية لقلّة الفهم ولذلك تقيم لهم الاعذار فعدم الفهم معذرة وعلة . نعم أنهم لم يدركوا أن تعلم لغة بسرعة خارقة للعادة ليس في قواعدها شاذة ومفرداتها لا تينية معدلة قد يغير وجه العالم كل التغير وذلك يوم يستطيع البشر أن يتبادلوا العبارات باللسان والقلم وبهذا الابداع السهل المختصر ينشأ عهد جديد في صلات الانسانية .

هذا ماخص ما قاله شارل ريشه أحد اعضاء المجمع العلمي في باريز وقال أن طبقة المتعلمين ممن يصرفون اليوم ستين طويلة في تعلم لغة أو لغتين غير لغتهم ثم هم لا يحسنونها يخلصون من هذا العناء الثقيل وتصرف كل أمة وكدها الى تعلم لغتها الخاصة وتكون اللغة الحديثة مموّناً للكل ولا يؤثر ذلك في سير لغة من اللغات الحية المتعارفة بل تزيد العناية بها أكثر من ذي قبل . قلنا تزيد العناية بكل لغة بين أهلها ولكنها لا تنتشر عند الامم الاخرى فالناس اذا انتشرت الاسبرانتو لا يحرصون كثيراً على تعلم غير لغتهم مهما بلغ من سمو آدابها وحيوت من المعارف والفوائد وربما جاء زمن على الاسبرانتو ان تكتب بها كل العلوم وتكون لغة السياسة والتجارة العامة وينبغي فيها الشعراء والكتاب

والممثلون والخطباء فان لم تتراجع اللغات الحية بذلك يقل الراغبون فيها . على أن جامعة باريز نفسها أخذت تلتقى دروساً بالاسبيرانتو على طالب تعلمها وتجد في بعض البلاد الهولندية قد كتب على احدى نوافذ دور البريد عندهم « هنا يتكلم بلغة الاسبرانتو » ويوشك أن تكون العناية عامة بهذه اللغة بين الامم على كثرة المقاومين والمعارضين وستأخذ قاعدة بقاء الانسب حكمها على شدة المعارضة والمقاومة في الامور المفيدة موقته لا تثبت الا عشية أو ضحاها فسبحان من جعلنا شعوباً وقبائل وجعل من آياته اخلاف السننتنا وألواننا .

البليجيك

٧٩

كنت أظن بعد أن أصيبت البليجيك في الحرب العامة بوطأة الألمان وخربت لييج وبروكسل ولوفين ونامور ان هذه البلاد أصبحت قاعاً صفصفاً ولما زرت عاصمتها بروكسل في شهر كانون الأول ١٩٢١ رأيت فيها ما أدهشني . رأيت في طريقى جميع القرى والجسور والمحطات التي خربتها المدافع الألمانية قد أعيدت الى أحسن مما كانت ولم يبق لتلك الحرب الطاحنة الا آثار في مآلياتها لا يراها الغريب . أظهر البليجيكيون في حربهم الى جنب الحلفاء (فرنسا وانكلترا وإيطاليا وأميركا) انهم من أول الشعوب في أمور الحرب كما هم من أول شعوب العالم بالصنائع والزراعة . ولقد أردت زيارة نموذجات من مدارس البليجيك لازورها كما زرت كليتها الحرة في بروكسل فقل لي انها كلها تنسج على منوال المدارس الفرنسية أما أنا فلم أصدق ذلك لأنني رأيت لبليجيكيين أسلوباً مخالفاً للألمان والانكليز والفرنسيين في بعض مظاهر مدنيتهن فالأولى أن يكون للمعارف قسط من هذا الخلاف

كان نابوليون يدعو بلجيكا «ساحة حرب أوروبا» وسماها الجغرافى اليزهركاو «ساحة تجربة أوروبا» وما من مملكة في العالم ضيقة النطاق الى هذا الحد يبذل فيها أبناؤها مثل هذه الهمم والعزائم فقد وقعت الامة البلجيكية في مقدمة العالم من حيث سير الافكار الاجتماعية وهذا وجه مكانتها . نشأ لها ذلك من دوؤها على الاخذ بأسباب الارتقاء . وان جميع المسائل الكبرى التى تهيج لها أعصاب الشعوب العظمى هياجاً قل أو كثر لتحدث في البلجيكي غلياناً دائماً فيجد لها أبناؤها أساليب من الاصلاح يحلون بها أحسن حل ^(١) . فأصبحت البلجيكي بحياتها المجتمعة وقوتها الداخلية والخارجية المزدوجة ونشاطها البطيء في الظاهر ولكنه منتج خصب لانه متواضل وشجاعته العتيدة وصحتها المتينة وعقلها الرشيد - أشبه بعمل اجتماعى بديع .

ولقد تنشأ من ذلك أعراض التسمم الزائل في ذاك الجسم اذ يصاب بشيء من تأثيراته بيد أن تركيب الشعب البلجيكي قد بلغ من القوة بحيث يحتمل كل ضروب التجارب بدون خشية . ومما لا جدال فيه ان الافكار مهما كان نوعها اذا دخت بوتقة العقل البلجيكي تتركب تركيباً مقولاً وتلبس صوراً حقيقية من المنافع . لا تصنع بلجيكا الماس بل ينحت فيها الماس الخام فيصبح حلياً في السوق تعمل منه كميات كبيرة . البلجيكي بلاد معامل الحديد وتصفيحه وتحليله فهي معامل لكل فكر جديده كما هي معامل للحديد .

البلجيكي بلد الصناعات والتجارة وأحسن الاقطار بزراعة تربتها فهي من أغنى بلاد الارض وان موقعها الممتار بين ثلاث ممالك كبرى هي منبعث أشعة المدنية - انكلترا وفرنسا والمانيا - قد جعلها كالصلة والعائد بين هذه المدنات والسكامة العامة الشاملة وهي تستدعى أعجاب الممالك الأخرى وتفوقها بنحسب تربتها ففي أرضها البالغة ثلاثة ملايين هكتار تجد جميع أنواع التربة . ومعادن الحديد لا تبعد كثيراً عن سطح الارض . ولذلك زكت أرضها ونمت صناعاتها وتقدمت بتجارها .

(١) بلجيكا الحديثة لهنرى شاربو Henri Charriant : La Belgique moderne

قالوا أن الاندلس « حديقة الزهور في أوروبا » ويقال في البلجيكي بما فيها من كل نافع تنتجه أنها « مبقلة أوروبا » . وليس في البلجيكي الاكل نافع وفيها اللطيف أيضاً . ونعني بذلك مناظرها الجميلة وجبالها التي يأتيها سياح الغرب كما يأتون سويسرا يلتمسون الراحة والهناء في ربوعها وحماماتها البحرية المقصودة وعلى ضفاف أنهارها البديعة . وفيها من آيات البناء والنقش والتصوير بدائع مذهشة وفي بروكسل وبروج ولوفين أجمل دور البلديات في أوروبا وفيها من العاديات كل بديع جميل . في ثلاث ساعات يقطع القطار هذه المملكة وأنت تنتقل فيها من غريب الى أغرب . بروكسل من أجمل عواصم العالم وأقرس من أهم موانئها واذا وافيت الفلاة والخللاء فكأنك رجعت بضعة قرون الى الوراء

ان الشعب البلجيكي مثال الشعوب الصغيرة بمددها الكبيرة بأعمالها فمدده ٧،٥٧٢،٠٠٠ ومساحة بلاده ٢٩.٤٥٦ كيلومتراً مربعاً عندما أضيف اليها من مقاطعتي أوين وماليدى بعد الحرب وصادراتها ٣٩٥١ مليوناً ووارداتها ٤٩٥٨ مليوناً وخطوطها الحديدية ٩٤٦٤ ويترل في كل كيلو متر من أرضها نحو ٢٦٠ شخصاً وهو اقصى ما بلغتته أرض غصت بسكانها . وهي على البحر الشمالى تمتد على ضفافه من الشمال الغربى ٦٧ كيلو متراً ويحدها من الشمال والشمال الغربى هولاندة على ٤٣١ كيلو متراً ومن الشرق المانيا على ٩٧ كيلو متراً ودوقية لوكسمبورغ الكبرى على ١٢٩ كيلو متراً وتحدها فرنسا من الجنوب والغرب على ٦١٤ كيلو متراً . وامتازت البلجيكي بمهندسيها وطريق الحديد وتوليد الكهرباء حتى ان معظم شركات الكهرباء في مصر والشام هي ملك شركات بلجيكية كما امتازت بمصوريها ونقاشيها وموسيقيها . ولها في الشعر والادب مقام محمود منذ استتمعت باستقلالها السياسى سنة ١٨٣٠ ومن كتابها في أيام الثورات من كانوا يكتبون باللغتين الافرنسية والفلامندية على السواء . وهاتان اللغتان هما لغة البلاد تتقاسمان السكان نصفين ففي الجنوب والغرب الافرنسية مستحكمة وفي الشمال والشرق اللغة الفلامندية وهي أشبه بالهولاندية احدى فروع اللغات الجرمانية .

ان اختلاف البلجيكيين في اللغة لم يفصل عراهم في الوطنية كما هو شأن كثير من الامم يختلفون بلغاتهم ولكن كلهم واحدة في سياساتهم . فقد رأينا السويسريين يتكلمون أربع لغات ولا يحبون أن يقولوا أربعة عناصر بل جميعهم وطنيون سويسريون لا فرقاً بين الذي يتكلم الالمانية والافرنسية والاطالية أو الرومانشية . ورأينا الفاسكونيين والبروتنيين والبورغونيين والسافوايارديين والباسكيين وغيرهم يتكلمون لهجات مختلفة وتجمعهم الجامعة الافرنسية وشاهدنا الكاتالانيين والاندلسيين والجلالقة والبيسكانيين يتخالفون في عاداتهم وطبائعهم ولهجاتهم ثم تجمعهم جامعة الاسبانية فيقال لهم كلهم اسبانيون

ومن الغريب في البلجيكيك أن ترى شعباً نازلاً في هذه البقعة الضيقة من الارض ولا تخرج اجزاؤه بعضها الى بعض ولا يتداسى مشيخصاته على حين تجمع بين هذين العنصرية وهم الفالونيون والفلامنديون المصالح المشتركة والخطوط الحديدية والطرق النهرية الى غير ذلك من ادوات التمثيل والامتزاج . بعض المواد اذا جعلتها في بوتقة واحدة نفضت بفعل الحرارة ان تتحول الى مادة جديدة وتذهب مميزاتها بنة . وان اقليمي الفلاندر وفالونيا اللذان تتألف منهما بلاد البلجيكيك لتمزجها بوتقة مدنية واحدة محصورة فيختلطان ولكن لا يتمازجان ويظل كل عنصر سالماً من مؤثرات جاره واجتماعهما صناعي لا طبيعي .

رأينا الشقاق بين أهل هاتين اللغتين على أشده في كل مكان بين الخاصة والعامة ولم يفت اختلافهما في عضد الوطنية ومع هذا لا ترى في البلجيكيك الا فالونيين وفلامنديين ممدل على أن الدولة لا تتحول كما أن طبقة الشعوب كذلك فالوطن في الحقيقة كما قال توسيديد مجموعة مدن وبيوت وقلاع واسوار بل الوطن هو الروح الحية في المدينة وما تقرأه في قلوب الوطنيين ان هو الا بقايا مما كان في قلوب الاجداد .

الى اليوم ترى الخصام على أشده بين هذين الشعبين اللذين يؤلفان شعباً واحداً في معظم مظاهر الحياة ولكنهم في المسائل الوطنية لا فرق بين ابن الشمال

وابن الجنوب فينقاتلون بالمدى كما يتقاتل أبناء البلاد الحارة كالاسبان والطلليان ولكن كلمتهم في الشدائد سواء على نحو مارأيناها يوم الحرب العامة فكانوا مثال الوطنية كما هم أجل مثال في المدنية .

وما برح الخصام بين الفلامندية والفرنسية مستحكمة حلقاته فقد تحررت البلجيكيك من هولاندة واسبانيا والنمسا بالتأثيرات الافرنسية واللغة الافرنسية وما زال شعار الفلامندية منذ نحو قرن « حرية بلا لسان » وشعار مدينة أفرس للنساء الفلامنديات :

لا تسمحن أن يجرى الحديث بالافرنسية

فان لغتنا الوطنية تموت

وبعد فقد أحرز البلجيكيون على الرغم من تطاحنهم في مسائل الاشتراكية والدين واللسان مقاماً عالياً في مظاهر الحضارة حتى صحت فيهم كلمة ستوارت ميل : « لا تعمل أعمال كبرى رجال صغار » فالمعظاُم للعظام وعمل العظيم عظيم زرت قاعدتي البلجيكيك بروكسل وأفرس ورأيت منافستهما في طريق المدنية واختلاف صورهما كاختلاف لسانهما واختلفت الى المتاحف والقصور وعجبت من تبرز أهلها في كل مرة كيف لم يجملا ولو في احدى الجامعات البلجيكية (بروكسل - لوفين - غاند - ليج) درساً للعربية تباع فيه عن الاقل مستوى الدانيمرك وسويسرا واسوج ونروج فهذه من الممالك الصغيرة التي لا تميل الى استعمار قطر من الاقطار العربية ومع هذا تجد في جامعاتها نصيباً من العناية بالعربية لغة المدنية القديمة

في البلجيكيك زهاء سبعة آلاف مدرسة ابتدائية فيها نحو مليون من الاولاد الذكور والاناث ومع هذا تجد عشر أهلها أميين على حين لا تجد في هولاندة أكثر من ٢٣ في الالف وفي فرنسا ٤٧ في الالف . والاحزاب المتغلبة فيها ثلاثة أحزاب حزب الاحرار والحزب الدينى وحزب الاشتراكيين وليس في بلجيكا كما تقدم روح بلجيكية كما ليس في المانيا روح المانية ولا في فرنسا روح فرناوية

ولا في انكلترا روح انكليزية . ومامن شعب في الارض يملك روحاً خاصة بل هو مزيج أرواح مختلفة واسكنها مؤتلفة .

رأيت في بروكسل صورة جميلة من الحياة أحب أن لا يفوتني تدوينها . رأيت رجلا في الثانية والخمسين يمسك بيده ولداً عند بائع القند والسكر عمره أربع سنين يبتاع له بقدر ما يستطيع أن يحمل ثم التفت الى أبوه وخاطبني بقوله يجب أن يقوى هذا الولد أتدري أى نمرة هو بين أولادي ؟ قلت لا . قال : هو ابني الثامن عشر فدعوت له ولأولاده بالصحة والهداء . وفي ذلك دليل كبير على كثرة تغالي هذه الأمة بتكثير نسلها ومبالغ العناية بأولادها مما يشهده الغريب في كل دقيقة وهو سائر في الشوارع فيرى الأم تحمل طفلها وهي سائرة مبهجة به واذا ركبت في المركبات الكهربائية أو دخلت في محال الزحام يوسع لها ليرتاح طفلها وبقدر ماتجد في الشوارع من أبناء العاشرة أو العشرين مثلاً تجد من أبناء الاشهر أو السنتين والثلاث ولذلك كان مستقبل البلجيكي باهراً لتوفرها على النسل وكان أهلها كثيرين جداً اذا قيسوا بالأرض التي ينزلونها .

عمراه هولاندة

٨٠

هولاندة أو ندرلاندة أو الفلمنك أو بلاد القاع هي من البلاد الغربية بتركيبها الطبيعي كلها بسائط لا جبل فيها اللهم الا أكمات على الحدود الألمانية لا يتجاوز أعلاها ثلثمائة متر أى علو برج أيفيل في باريس أما من جهة البحر فان سواحلها نازلة عن الشواطىء قليلاً ولذلك سميت بلاد القاع .

بلاد صغيرة اذا قست طولها من الشمال الى الجنوب لا يتجاوز الثلثمائة كيلومتر ولا يكاد عرضها من البحر الى تخوم ألمانيا يتجاوز المائتي كيلومتر ومجموع مساحتها

السطحية ٣٨ ألف كيلومتر مربع منها ٣٣ ألفاً أرض تصلح للزراعة و ٥٠٠٠ كيلومتر ماء . وتعد من حيث مساحتها السطحية المملكة السابعة عشرة ولكن عظمة الممالك لا تقوم بكبر رقعتها بل بما فيها من مواد العظمة الحقيقية وأدوات الحياة الطيبة .

ليس في الأرض مملكة تحارب المياه والمياه تحاربها مثل هولاندة ففيها على ضيق مجالها أربعة أنهر كبيرة وهي الرين والموز والاسكوت والايسل . واقنية لا تكاد تعد تقطع القرى والمدن وتجري الى كل وجهة وبحيرات داخلية بل بحر داخلي ويسمى الزويدوزيه تبلغ مساحته ٣٥٠ ألف هكتار ويشغل جزءاً مهماً من أرض البلاد فهو لانددة تعيش بهذه المياه تحمل الى تربتها الخصب واذا غفلت عنها داهمتها من البر والبحر ولا سيما من البحر فاخربتها وهناك البلاء . ولذلك ترى الهولاندى أبداً في حرب دائمة مع الحياة منذ العصور المتطاولة . ومن أجل وهذا قالوا : ان الخالق خالق العالم ماعدا هولاندة فان الهولاندين أوجدوها . وقالوا في أمثالهم القديمة التي يتغنون بها : من لم يوقف سير المياه لا يستحق أن يملك أرضاً .

وكم من أرض كانت بحراً فردمها الهولانديون فاصبحت مياقل ومباخس وكم من أرض طفا عليها البحر فاصبحت جزراً وجزيرات . عراك منذ القديم بين الهولاندين والمياه وفي هولاندة « وزارة المياه » كما فيها وزارة مالية ووزارة مستعمرات مثلاً . خصوصية لها لا يشاركها فيها غيرها ولها في سطو البحر عليها وسطوها على البحر تاريخ خاص غريب .

في ثلاثة وثلاثين ألف كيلومتر مربع من الأرض ينزل نحو سبعة ملايين من الهولاندين ويعدون من أغنى شعوب أوروبا وأكثرها عراقة في الحضارة وأشدها اختلاطاً بالأُمم وآملماً للغات المختلفة وقد يحكم على المتعلم فيها أن يدرس الألمانية والانكليزية والفرنسية خلال التعليم الابتدائي واللاوسط وقل أن تأتي متعلماً لا يحسن التخاطب بلغة أولفتين ماعدا لغته وكثير منهم يتعلم اللغتين الجاوية والمالايو لارتباط تجارة بلادهم بالهند الشرقية

قالوا في الهولاندى ان بشرته قست وطبعه جف (١) بما يهب عليه من هواء البحر وندى المياه وان الشعوب كالاطفال فكما ان الطفل الذى قاسى العمل يختلف عن الولد الذى عاش في النعيم والسعادة هكذا الأم التي عاشت في الهناء والمجد ليست بتصورها كالأم التي ارتقت في العمل وتحت التهديد وضربات الايام والليالي . لاجرم أن ألفة التجارة بل الذوق الطبيعي في الهولاندى لها يفسر ولو بعض شيء ما تراه فيه من الحذر والاحتياط . فأخذ الهولاندى باسباب الحيلة حتى لا يخدعه أحد من الناس قد جعل فيه طبيعة خاصة . ثم ان النزاع القائم بينه وبين المياه منذ الزمن الاطول ومدافعة الناس عن حدوده كحروب هولاندة مع اسبانيا وحروبها مع فرنسا وانكلترا وحروبها الدينية التي كانت على أشد حالاتها في بلادها نشأ منها هذا الخلق في الهولاندى خلق الحذر والجفاء . وكان آخر المحن التي أورثته شيئاً من هذا القبيل تجنيد هولاندة ستمائة ألف جندي خمس سنين خلال الحرب العامة حتى نجت من شر الحرب اذ كان الالمان يمسون بها من البر ويريدون أن يدخلوها في الغمار والانكليز وحلفاؤهم يشدونها من البحر يريدونها على الاشتراك معهم فانجأها الله بحيادها وفرط استعدادها .

الهولاندى رجل عمل لامثيل له في موضوعه ويعتبر الهولانديون في مقدمة تجار أوروبا فان روح التجارة تحمسهم أبداً . للهولاندى رأس موزون بصير كل البصر في المسائل . عملي لا ينظر الى ما بعد بل يتقن النظر الى ما قرب منه ويعمل ما يعمل مدفوعاً بمامل الفكر في الحكمة أو الحساب أو لا استعداد فطري فيه يدعو الى أن يتلبس بالعدل فهو عادل والعدل يفضي به الى المساواة التي يحبها .

اشتهر الهولانديون بنظاماتهم الاجتماعية وشركاتهم ونقاباتهم بحيث ترى

(١) كتاب روح شعب وحياته أو مولادة في العالم لهنري أسلين : Henry Asselin :
L'âme et la vie d'un peuple.. La Hollande dans le monde

بلادهم كلها بمجموعة شركات واتحاد جماعات ونقابات في كل ضرب من ضروب الاجتماع والتعاون . الهولاندى كالصينى يحتقر الوقت بعض الاحتقار ويتجاهل الساعة خلافاً للانكليزى الذى يقول الوقت نقد . وترى الهولاندى مع هذا يعيش جيداً ويعمل جيداً ويربح كثيراً ولا يتعجل ويسرع خطاه . هو يصحو من نومه متأخراً ويأتى الى عمله فى الساعة التاسعة أو العاشرة وينصرف فى الخامسة أو السادسة ليستقبل ضيوفه أو يذهب الى التمثيل أو يتعاطى شيئاً من غير أعمال النهار . فالهولاندى لا يضبط نفسه بالساعات فى العمل بل يعمل على هنيئته عملاً متقناً يفيد فى مجموعته .

عرفت المرأة الهولاندية بأفراطها فى حريتها وهى فى ظاهرها ربة دار تعنى باصلاح داخليتها وتتولى نظام مسكنها ومطبخها على أنها فى الحقيقة راقية بعلمها تميل كل الميل للمسائل العقلية وتحب الاطلاع على أعمال الفكر الانسانى تطالع كثيراً وفى أربع لغات على الأقل ولها وقوف على أقوال الحكماء والأدباء والحركة العلمية وتشدو شيئاً كثيراً فى العلم والادب . ولا تعرض بضاعتها من ذلك لأنها الى السذاجة والعزوف عن الظهور .

ولقد فطر الهولانديون على الحرية فلا تسمع منهم ما تسمعه اذا لقيت أحداً من الشعوب اللاتينية كقوله انه سر للتعارف اليك وانه ليفرح اذا لقيك فى منزله ومحلّه فان هذه الالفاظ لا أثر لها فى حديثه فاذا قال لك الهولاندى أنه يسر ان يستقبلك فى داره أو يحترمك فان كلامه خال من كل رياء يمكنك أخذه على ظاهره لانه الحق المجرد خال من المبالغة والحشو والظرف المألوف عند الطليانى والاسبانى والفرنساوى .

زرت أحد علماء المشرقيات فى ليدن وانصرفت من لدنه بعد ساعة لزيارة خزانة جامعته فتقدم الى أحد تلامذته وخطبني باللغة العربية بقوله أن السيدة فلانة زوجة استاذى تدعوك مع زوجها غداً الى تناول طعام المساء فى دارها على أن لا تستصحب معك الترجمان . فمن يسمع لأول وهلة بطرز هذه الدعوة

بحسبها جافة والحقيقة أن فيها كل الظرف خصوصاً والترجان لا فائدة له لأن الداعى وعقيلته يتكلمان الا فرنسية . وطبقة التراجمة في الغالب من احط الفئات فى أوربا فلا يليق أن تجاس الى مائدة أمثال تلك الطبقة الراقية العاملة .

وبعد فقد سبقت هولاندة غيرها من الامم بحريتها ومعاهدها الحرة المنظمة وبينما كان الفرنسيون وغيرهم يقتاتلون الملوك ورجال الدين والنبلاء لاستحصال حرياتهم كان الهولنديون قد تخلصوا من ظالمهم ممتعين بحريتهم حتى لقد جلا اليهم من فرنسا وحدها مئة الف برتستانى فى الحروب الدينية عقيب أن أهلك الكاثوليك فى فرنسا عقيب مذبحه القديس برتلماوس مئة الف انسان فى خمسة أيام وهنا البابا ملك فرنسا اذ ذاك على ما أتاه ورجاله من هذه المنقبة : وبينما كانت المراقبة شديدة على الافكار فى فرنسا كان روسو وفولتير وأمثالهما من الحكماء يطبعون كتبهم فى هولاندة هربا من ظلم الظالمين وسخافة المراقبين .

ومع هذا فقد كان شارل كان ملك اسبانيا وأمبراطور ألمانيا وسيد سبع عشرة ولاية هولاندية هو الذى حكم على لوثيروس صاحب المذهب البرتستانى فى فررمس وتعهد بسحق الاصلاح الدينى الذى كان سرى فى انحاء أوربا وكان العدو اللدود للوتيريين والكالفينيين من الهولانديين . وكانت شدة ديوان التنقيش الدينى الذى أقيم فى جنوبى هولاندة أى فى أرض البلجيك اليوم لمصادرة العقول من جملة اتقصال الهولانديين عن ابن شارل كان فيليب الثانى . والبرتستانية هى المذهب السائد الآن فى بلاد القاع و٦٢ فى المئة من أهلها برتستانات أو انجيليون و ٣٥ كاثوليك و ٢ من الاسرائيليين فالبرتستانية هى دين الحكومة وفى هولاندة كما فى البلجيك أربع جامعات وهى جامعة ليدن وأوترخت وامستردام وغروننغ ويكفى أن يقال أن ستة من علماء هولاندة نالوا جائزة نوبل مما لم تحصل عليه أمة من أمم الأرض . وفى هذا برهان على كثرة نوابغهم وعلمائهم فى كل فن ومطلب . زرت أمهات مدن هولاندة والمسافة بينها قريبة فى السكك الحديدية مثل ليدن ولاهاى واوترخت وامستردام وروتردام ورأيت

كثيراً من قراها وأكثر بنائهم بالقرميد والآجر لقلة مقالعهم وكم من دار مررت بها وقد كتب عليها أنها عمرت في سنة كذا من القرن السادس عشر وحيثما طفت ترى عناية الامة باللغة باطقالها فتراهم ينزهونهم في البرد الكالح ودرجة الحرارة ١٨ تحت الصفر والوجوه باسمة مستبشرة . والهولانديون كثير نسلهم بحيث اكاد أحد علماء الاحصاء أنهم سيبلغون ثلاثين مليوناً بعد عشرين سنة

هولاندة والاسلام

٨١

الهولانديون قليل عديدهم ضيق نطاق أرضهم كثيرة فعالهم متسمة مستعمراتهم . شعب في الغرب عدده سبعة ملايين يقود في الشرق أربعة وأربعين مليوناً من البشر . ونعني مستعمرة الهند الهولاندية أوجاوة وما إليها من مئات من الجزائر . وقد شبهها أحد كتاب هولاندة بنطاق من الزمرد يتثنى على طول خط الاستواء . ومساحة هذه المستعمرة ٣٥٣١ ميلاً جغرافياً صرباً أي مساحة قارة أوربا ما عدا روسيا الوسطى وروسيا الشرقية ^(١) تزرع الشاي والقهوة والخيزران والقطن والارز والمطاط وقصب السكر والقرفة والفلفل والصمغ والطبرخة « غوتابرشا » وجميع أثمار البلاد الحارة والمعتدلة وبقولها حاصلاتها وفيها من المعادن البترول والبتزين والكازولين والقصدير والذهب وغيره .

دخل البورتغاليون هذا الارخبيل قبل أن يفتحوا ملقة سنة ١٥١١ يوضع سنين وجاء الاسبانيون خصماً و هم من الشرق الى جزائر الملوك فلم يلبثوا ان تراجعوا الى جزائر الفيلبين الشمالية وفي أواخر القرن السادس عشر توفق بضعة شعوب من الاوربيين الى بلوغ تلك الجزائر فجاء الانكليز سنة ١٥٩٤ والهولانديون سنة ١٥٩٦

(١) مقالة الهند الهولاندية في الموسوعات الاسلامية

ثم الفرنسيون والدانيمركيون والاسوجيون على سفنهم الحربية ليبتاعوا الالبازير والافاوية والاحجار الكريمة وغير ذلك من الحاصلات . وكان البرتغاليون والصينيون وسكان آسيا الجنوبية قد احتكروا لانفسهم هذه الاصناف . وفي سنة ١٦٠٢ توحدت الشركات الهولاندية الصغرى وكانت عديدة تتجر في تلك البلاد باسم شركة الهند الشرقية الممتازة فتوسعت أعمالها خلال القرن السابع عشر وزادت تقوذا في السياسة والاقتصاد وامتدت كاملتها من أفريقية الى اليابان وعلى شواطئ جنوبى آسيا وأرخبيل الهند الشرقية وتوحدت أقدامها فى تلك الاصقاع الى أواخر القرن الثامن عشر . وفى سنة ١٨٠٠ نزلت هذه الشركة الى حكومتها عن جميع حقوقها فكان شأن هولاندة مع شركتهم هذه شأن الشركة الانكليزية التى فتحت الهند . وكانت الشركة الهولاندية تدير شؤون البلاد وتعقد مع بقايا أمراء المسلمين محادثات ولما فقدت هولاندة استقلالها فى حرب نابليون انقلت أحكام هذه المستعمرة الى أيدي الانكليز ثم تقرر فى مؤتمر فيينا إرجاعها الى هولاندة فأخذت ننظمها وتستثمرها وفى سنة ١٨٢٥ حدثت فيها ثورة اضطرت معها هولاندة الى أن تقوم ببعض الإصلاحات وتأصلت كلمتها فيها فتوطدت العلاقات بين الوطنيين والهولاندين ومعظم السكان من أهل الاسلام بلغوا (١) خمسة وثلاثين مليوناً وفيهم كثير من الهنود المولدين وألوف من العرب الحضارمة أهل حضرموت وقد وصفوا كلهم بالذكاء وأخذوا يقتبسون المدنية الغربية وان من أبناءهم من أدهشوا باستعدادهم الفطرى أقرانهم من الهولاندين فى جامعات أوترخت وامستردام وايدن ومدرسة الادارة فى دلفت

قام استعمار هولاندة بين الجاويين على تبادل المنافع وارتبط الهولانديون بالجاويين برباط المصاهرة وقد يصبح الهولاندى وأولاده جاويين أكثر مما يصبح

(١) سياسة هولاندة الاسلاميه لسنوك هرغرون
L. Snouck Hurgronje :
Politique musulmane de la Hollande

الجاوى هولاندياً . وذلك لما عرف به الجاويون من التسامح وحب السلام ولما عرفت به ادارة هولاندة من اللين فى الجملة بعد شدتها خلافاً لما تعامل به دول الاستعمار — فيما قيل — البلاد التى يسكنها سكان من الجنس الاسود أو الأحمر أو الأصفر . ومن دواعى الفخر لهولاندة بما يصح ايراده دليلاً على حسن استعمارها ان سكان الهند الهولاندية مازالوا على نمو متصل خلافاً لما عرف من أن الشعب المظلوم المستعبد يقل نسله ويتراجع أمره فان سكان جزيرة جاوة وحدها وهى أكبر تلك الجزائر وأعظمها جمعاً بين المدنية الاسياوية والمدنية الاوربية قد بلغ فى الأحصاء الأخير ثلاثين مليوناً منهم ٢٥٠ ألفاً من الصينيين و٦٥ ألفاً من الاوربيين وكلهم من المولدين فى الجزيرة على حين لم يكن عددهم سنة ١٨٩٥ سوى خمسة وعشرين مليوناً

ترك الهولانديون للمسلمين حريتهم الدينية يحججون ويذكرون ويقيمون الصلوات ويحلون مشاكل الزواج والطلاق وغيرها على ما يشاؤون . والغالب ان الاسلام دخل الجزيرة منذ سبعة قرون فتم اسلام أهلها فى ثلاثة قرون وأخذ بعض شبانها منذ قرنين ونصف قرن يرحلون فى طلب العلم الى مكة المكرمة ويعودون الى بلادهم ينشرون كلمة التوحيد بين الوثنيين والبوذيين فيزداد الاسلام انتشاراً بواسطتهم وبواسطة التجار وهم ناجحون فى هذا الشأن أكثر من الأديان التى لها دعاة منظمون وجمعيات تنفق للدعاية الى مذهبها عن سعة .

وقد انحصرت تجارة الداخلية بالحضارمة والوطنيين على الاغلب والتجارة الخارجية بالأوربيين ولا سيما الهولانديين . وللعرب هناك زهاء بضع صحف عربية تكتب باغة لا بأس بها وهذا دليل على كثرة من يقرأون العربية ، وكما راعت هولاندة قاعدة حرية الأديان مع الأكثرية من المسلمين رخصت لدعاة البرتمانتية والكثلكة بإنشاء مدارس فى تلك البلاد فأسسوا زهاء ألفى مدرسة فيها ١٥٠ ألف طالب وفى مدارس الحكومة أكثر من ٢٧٠ ألف طالب وربما بلغ عدد تلاميذ المدارس فى تلك المستعمرة ٤٣٠ ألفاً اذا حسبت المدارس

الخاصة ، وهناك مدارس عالية لتدريس الطب والصنائع النفيسة والحقوق وغيره
تتمة سلسلة التعليم العام . والمستعمرة متصلة مع سائر موانئ الشرق والغرب
بسفن تجارية آية بنظامها ونظافتها . ويتكلم بالهولندية كثير من الوطنيين من
تجار وموظفين ومتعلمين بحيث انتشرت لغة هولاندة هنا انتشارها في جنوبي
أفريقية بواسطة من توطنها من الهولانديين .

في هذه المستعمرة اليوم حركتان سياسيتان وهى عبارة عن حزب كبير
يدعو الى الاستقلال الادارى فى البلاد لاعتقادهم ان الوطنيين أصبحوا قادرين
على رؤية شؤونهم بأنفسهم وحزب صغير وهو مؤلف من هنود ووطنيين ،
يقول بالاستقلال المطلق لتلك الجزائر ونزع ربة الحكم الهولاندى . وهناك أناس
يخافون من هذا الاستقلال اذا تم مخافة أن يرفع على البلاد العلم اليابانى أو
الانكليزى يوم يرتفع عنها العلم الهولاندى

ولا تعتمد هولاندة فى الغالب الى القوة فى قتال هذه الأفكار التى تضر
بمستقبلها خصوصاً وهى تعرف ان الجاوين ليسوا أمة حربية ، وقد جعلت لهم
جيشاً مؤلفاً من أبنائها وهم نحو ثلثه لحفظ النظام . ولهذه المستعمرة أسطول
حربى خاص بها . وقل ان حدث فى الماضى حوادث بين المستعمر والمستعمر كما
حدث فى الهند والجزائر مثلاً اللهم الا ثورة سنة ١٨٢٥ ومعظم شؤون الهند
الشرقية بأيدي الوطنيين ولا يزال هناك بعض أمراءهم من المسلمين الذين أبقت
عليهم هولاندة يتمتعون بحقوقهم الا قليلا وترجع الاعمال الكبرى الى أناس من
الهولانديين والحاكم هولاندى يعينه ملك بلاد القاع .

هولاندة والعرب

٨٢

سألت العلامة الأستاذ هوتسما Houtsma مديرة دائرة المعارف الاسلامية وعضو المجمع العلمي العربي وناشر كتاب زبدة النصر للعماد الأصفهاني وناربخ ابن واضح اليعقوبي والاضداد لابن الانباري وغير ذلك من كتب العرب - عن منشأ الاستشراق العربي في هولاندة والسبب الذي دعا اليه فأجابني حفظه الله وهو الحجة الثقة في هذا الباب بما تعريبه : « عملاً بوعدي أرسل اليكم عجالة في مبدأ الدروس العربية وارتقاءها ويرد ذلك الى الزمن الذي أسست فيه جمهورية الولايات الهولاندية المتحدة أواخر القرن السادس عشر التي نشأت من معارضة البرتستانات للحكومة الكاثوليكية الاسبانية . وأول ما صرفت اليه العناية في تعليم اللاهوت البرتستانتي درس تفسير الكتاب المقدس ودرس اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ولا سيما العربية . وهناك سبب آخر كان يدعو الى تعلم العربية وهو كثرة اتجار الهولنديين مع سكان البلاد المغربية (مراکش والجزائر وطرابلس) وأهل الشرق الاقرب .

وربما كان الأستاذ توما اربنيوس^(١) Th Erpenius المتوفى في ليدن سنة ١٦٢٤ هو مؤسس هذه النهضة . وذلك انه كان تلقف من اللغة العربية حظاً صالحاً مستغرباً بالنسبة لعصره وعزم أن يرسل الى الشرق لان الكتب المطبوعة بالعربية كانت على عهده نادرة جداً ومن بواعث الاسف انه اضطر الى العدول عن سياحته هذه فبلغ في رحلته الى البندقية ، ولكنه توفى الى الاجتماع في باريز وغيرها بعرب من الجزائر ومراكش وجمع كمية من المخطوطات العربية فتوسعت معلوماته . ولما عاد الى ليدن نشر (سنة ١٦١٣) كتاباً في نحو اللغة العربية

(١) في معجم لاروس اربن Erpen ولعله هو هو

واللاتينية وفي سنة ١٦١٥ نشر حكايات لقمان وأعد للطبع كتاب التاريخ العام للشيخ المكين الذي طبع بعد وفاته سنة ١٦٢٥ ولطبع هذه الكتب أنشأ بنفسه في ليدن مطبعة جهزها بأهمات الحروف العربية ما زالت الى اليوم باقية على ما تماورها من التغيير الذي اقتضاه الزمن .

وكان تلميذه يعقوب غوليوس Y Golius أسعد حالا منه فانه رافق بعثة الولايات الهولندية المتحدة الى مراکش سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٤ ثم زار الشرق وقد دخل أخوه بطرس في الرهبنة الكرملية وقضى جميع حياته في الشرق ، وترجم كتباً مسيحية بالعربية وبقي يعقوب في ليدن ودرس العربية الى حين وفاته سنة ١٦٦٧ واشهر معجماً عربياً لاتينياً وأعد للطبع كتاب الفلك للفرغاني الذي ظهر سنة ١٦٦٩ وقد ظل طول حياته على اتصال مع أصحابه من العرب الذين لقيهم في سياحاته ، أو من كانوا يأتون نادراً الى هولاندة ، وعنى كل العناية بابتياح مخطوطات عربية لخزانة كتبه الخاصة وخزانة المدرسة الجامعة ، وقد اغتنت مجموعة الجامعة بعد قليل من الزمن ب وفاة وارنير I. . warner من تلاميذ غوليوس وسفير هولاندة في الاستانة (١٦٥٥ - ١٦٦٥) الذي وقف عليها مجموعة كتبه العربية والفارسية والتركية وكان أكثرها من خزانة حاجي خليفة المشهور بمعرفة الكتب^(١) ومن تلامذة غوليوس أيضاً رلاند A. Beland أستاذ في جامعة اوترخت في بداءة القرن الثامن عشر . وصاحب التصانيف الكثيرة بالجغرافية والآثار القديمة في فلسطين وكتاب في الدين المحمدى (١٧١٨) خلا من شوائب التعصب للانصرانية وكتب لغاية علمية صرفة . ولم تلبث العناية

(١) من غريب الاتفاق ان كاتب شلى أو الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وجهاتنا وغيرهما من الكتب الجيدة قد أخذ الرياضيات والطبيعات الجغرافيا وغيرها من القسطنطينية عن عالم هولاندى جاء تلك الماسة ليدرس اللغات الشرقية ودان بالاسلام ولما هلك كاتب شلى بيعت كتبه فافتنى أكثرها السفير الهولاندى وهى التى وقفها على حامة ليدن فكانت المادة المهمة لتبويب مجموعة الكتب العربية من ليدن عن غيرها لانها انتقاء عالم كبير مثل كاتب جاي وفيها لباب العلوم ولم تؤخذ سقيا ورعياً وليس فيها الفث والسمين . هولاندة على كاتب شلى يد بيضاء بتلقينه علومها لا عهد للترك بها تعلمها وآلف فيها وأعاد وقابلها على صنيعها بان أعطاها من علوم العرب والاسلام مالا عهد لهولانديين به (المترجم)

بالدروس العربية بعد الأستاذ رلاندا ان ضغفت عن القرن السابق . وذلك لان التجارة مع الشرق لم يعد لها تلك المكانة التي كانت لها سابقاً . وأصبحت الصلات مع الشعوب الذين هم من أصول عربية تقع على الندرة فلم يرحل الى الشرق عالم واحد ليأخذ عن أهله علومهم . وقل الاتصال مباشرة مع الحياة الشرقية . ولم يعد للغة العربية من فائدة الا لعملاء اللاهوت ممن رأوا فيها غناء في فهم الكتاب المقدس وأشهر هؤلاء المستعربين شولتنس A. Schultens من أساتذة جامعة ليدن (١٧٢٩ — ١٧٥٠) الذي حاول ارجاع معنى الكلمات العبرية الى أصل عربي وبهذه الصورة يتأتى شرح جميع مشكلات التوراة وكان من أمر ابنه وحفيده وكلاهما أستاذ في العربية ان سارا على خطته مثل كثير من المستعربين في ذلك العهد . وقد نشر شولتنس (١٧٣٢ — ١٧٥٥) سيرة صلاح الدين لبهاء الدين . وعلى ذلك العهد كشف مجد علوم المشرقيات في هولاندة وأصبحت في ظلمات بانبعث النور من ناحية المشتغلين بالمشرقيات من الفرنسيين بذبوغ سلفستر دى ساسى Sylvestre de Saey أوائل المائة التاسعة عشرة وكادت تمجز عن مجارة علماء المشرقيات من الألمان وعلى هذا فلا أقول شيئاً في هاماكير Hamaker ونييس Neynis وجونبول Juynebol وغيرهم من أساتذة العربية وان نشر الأخير عدة كتب منها جزء من تاريخ أبي المحاسن والمعجم الجغرافي مراصد الاطلاع .

وما الداعية الحقيقي للغة العربية في هولاندة الادوزى R.P.A. Dozy أستاذ جامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٨٣) الذي وسد اليه ويا للأسف تدريس التاريخ العام بدلا من تدريس العربية الذي كان يشغل منبره اذ ذاك الاستاذ جونبول وقد غنى لأول أمره بتاريخ العرب في اسبانيا الذي جلاه للأبصار بسلسلة من المطبوعات مثل كتب عبد الواحد المراكشى (١٨٤٧ — ١٨٨١) والبيان المغرب لابن عذارى (١٨٤٨ — ١٨٥١) وابحاث على التاريخ السياسى والأدبى في اسبانيا خلال القرون الوسطى (الطبعة الثالثة سنة ١٨٨١) وتاريخ مسلمى

اسبانيا (١٨٦١) وهو من أجل ما كتب في بيان النبوغ العربى ومن حيث أسلوب انشائه . ولم تقتصر أبحاثه على تاريخ العرب في اسبانيا بل نشر سنة ١٨٤٨ معجماً مطولاً في أسماء ألبسة العرب ونشر في آخر عمره (١٨٧٧ — ١٨٨٠) ذيلاً علماً لمعاجم العربية وهو من أهم المصنفات لكل المستعربين الأوربيين . وكذلك كتابه في تاريخ الاسلام الذى كتبه سنة ١٨٦٣ باللغة الهولندية ونقله شوفين الى الافرنسية وأظنه ترجم أيضاً بالعربية .

وهنا أنجز معروضى الوجيز عن الدروس العربية في هولاندة فان ما قام به تلامذة دوزى في هذا الشأن مثل دي خوى ^(١) M.j.de Goeg ويونغ P. de Jong معروف لديكم فلا أطيل بشكراره هنا .

ولكم بما رأيتم من هذا البيان الجلى أن تحكموا بأنفسكم على ما بذله الهولنديون من النيرة التى لا تعرف النصب ليتمكنوا من معرفة لغتكم الشريفة ويدركوا أسرار الآداب العربية وبديهي ان علماء المشرقيات من الهولانديين يهتمون جد الاهتمام للعمل الباهر الذى تقومون به في الشام لحياء هذه الآداب لتعيدوا للعرب ما كان لهم قديماً من المقام المحمود في ساحة العلم البشرى اهـ .

هذا ما تفضل به صديقنا الكريم من المعلومات النافعة عربناه شاكرين له يده البيضاء على آدابنا ولغتنا . ولا شك ان القارئ قد تبين له مبالغ عناية الهولانديين بل معظم أجيال الغربيين بالعربية وآثارها . ولا عجب فهم مثال الدوؤب على كل عمل نافع وقد أفادوا بما نشره من آثار أسلافنا تاريخ مدنية باهرة . ولا بأس بأن نشر بهذه المناسبة الى المطبعة الشرقية التى أعانت المشتغلين

(١) أن العلامة دى خوى المتوفى سنة ١٩٠٩ ، نشر كتاب تجارب الامم لابن مسكويه والعيون والحدائق ومكتبة الجغرافيين العرب وهى مؤلفة من جغرافية الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وابن الفقيه وابن خرداذبة وابن رسته وابن واضح والمسودى مع الفهارس وناسخ تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى — قد عدت من أعظم علماء المشرقيات في الغرب لحيائه هذه الكتب النفيسة ولا سيما المكتبة الجغرافية وتاريخ الطبرى فهو من مفاخر هولاندة بلا مراة . أما الاستاذ يونغ فهو ناشر كتاب المشتبه للذهبي وكتاب الانساب لافى المفضل المقدسى ولطائف المعارف للشعالي وكتاب الحراج لابن آدم وغيره فيعد من كبار المستعربين أيضاً (المترجم)

بالمشروعات من بلاد القاع وغيرها على نشر ما أحيوه منذ ثلثمائة سنة من كتب السلف الصالح في ضروب المطالب المدنية كالتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والآداب واللغة والشعر والاجتماع بل والحديث والفقه والاصول . وما زالت هذه اللغة من لطف الله بها يخدمها الاعاجم ويغار عليها من ليسوا من أبنائها . فيحسن خدمتها الدخيل أكثر من الاصيل . وكيف لانهى الهولانديين وقد خدموا لغتنا وشرعوا بنشر آثارها يوم لم يكن لنا مطبعة واحدة في جميع بلاد هذا الشرق القريب ولا من يفكر من علماءها وأدبائها في طبع رسالة أو كراس أو كتاب من علومها يوم كان الانحطاط باديا في جميع مظاهر حياتنا

كانت المطبعة التي أسسها في هولاندة مؤسس النهضة العربية فيها هي التي أنشأها في ليدن المستشرق اربنيوس بمعاونة حكومته . وما زالت هذه المطبعة تنتقل من يد الى أخرى حتى كان مديرها سنة ١٨١٢ جوها لايريل Dill ثم تولاه ابنه . ثم صارت شركة مغفلة بهذا الاسم يديرها اليوم أحد الشركاء السيد بيلتنبورج C. Peltenburg وقد طبعت حتى الآن نحو ٣٥٠ مصنفًا باللغات الشرقية ولا سيما العربية فان نحو نصف ما طبعت بالعربية جاء مثال جودة الطبع والوضع والعناية . وهي تطبع من اللغات الشرقية باللغة المصرية أى بالحروف الهيرغليفية ولغة كهنة المصريين ولغتهم العامية وباللغة القبطية ومن اللغات السامية بالاشورية والبابلية والعبرية والآرامية (السريانية والسامرية) والحبشية والعربية ونطبع باللغة التركية وبالفارسية والسنسكريتية وهما من اللغات الآرية ومن لغات مالايو البولونيزية باللغة الجاوية والمالاوية والمادورية والباتاكية والروتية ومن لغات الشرق الاقصى بالصينية واليابانية والسيامية

وقد اعتمد علماء المشرقيات في أوروبا وأميركا على هذه المطبعة حتى في الممالك التي فيها أحسن المطابع العربية كالمانيا وانجلترا ومطبوعاتها غالية الثمن لانهم يطبعون منها عددا قليلا بقدر حاجة علماء المشرقيات والمجامع العلمية الا قليلا ، ومن الكتب والرسائل التي طبعت فيها ومنها ما نقد ومنها ما أعيد

طبعه ثانية كتب ابن سينا والفارابي والجاحظ والغزالي والطبري واليعقوبي وابن الأثير والخوارزمي والبلاذري والمقدسي والذهبي والاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه وابن رسته والهمداني وابن تغري بردى والجمحي والمسعودي والدينوري والادريسي وابن قتيبة وابن بدرون وابن هشام وابن القيسراني وابن خطيب الدهشة وابن مسكويه وابن الانباري والثعالبي والشيرازي والبخاري وابن حزم والاصفهاني والسجستاني والمقرزي والمقري وابن آدم وابن خرداذبة وابن منقذ وابن سعد وابن سعيد وابن قوطية وابن ولاد وابن اسحق والرازي وارسطو والميموني والراهمرمزي وابن جبير وغيرهم من كبار المؤلفين المحققين. وآخر ما تطبعه مطبعة بريل الموسوعات الاسلامية Encyclopedie de l'Islam وهي تصدر باللغات العلمية الثلاث الألمانية والانكليزية والافرنسية ، وقد وصلوا بها الى أواخر حرف ا. فنكلموا في الكراسة السادسة والعشرين على الاسلام ويؤازر في هذه الموسوعات كبار علماء المشرقيات في الغرب ومنهم بعض الهنود والجزائريين . وقد نشرت هذه المطبعة من دواوين الشعر طائفة صالحة منها حماسة البحتری . وديوان أبي فراس وديوان عيينة بن الابرص والمفضليات والهاشميات وصريع الغواني وحسان بن ثابت والقطامي ونقائض جرير والفرزدق وغيرها . وكما نطبع ليدن الكتب العربية والشرقية فان مدينة هارلم الهولاندية تطبع الطوابع المارسية ولا يستغرب ذلك من مملكة صغيرة فيها نحو خمسمائة مطبعة وأربعة عشر ألف عامل في الطباعة وألف ومائة جريدة ومجلة . هولاندة بعيدة عن الشرق بموقعها ولكنها قريبة بما تنشره له وما تمقده من الصلات الحسنة الادبية .

معاهد انكلترا

المتحف البريطاني - جامعة اكسفورد - جامعة كمبريج

٨٣

لم يكتب لى أن أقضى فى انكلترا سوى أربعة أيام صرفت نصفها فى لندرا
لزيارة المتحف البريطاني وابتياح كتب من مطبوعات الغرب وخصصت اليومين
الآخرين بجامعة اكسفورد وجامعة كمبريج
ان مدينة لندرا وحدها وسكانها ثمانية ملايين ونصف تؤلف اليوم نحو عشر
عواصم كالقاهرة بمساحتها وسكانها وتبلغ وحدها مقدار أربعين مدينة من مثل
مدينة دمشق تحتاج ولا جرم الى أن يصرف المرء فيها أشهراً حتى يزور معاهدها
وقصورها ويعرف نموذجاً من اداراتها ونظاراتها ومتاجرها ومصارفها فما بالك
به اذا سمعت همته لان يزور معامل لنكشير ومناجم الغال وما فى ولاياتها من الصنائع
والبدائع ولا سيما فى ليفربول ومنشستر ورومنغهام . ولذلك اكتفيت بنموذج
مما يهمنى من المدارس والمتاحف والمكاتب . أما البحث فى مدينة الانكليز
وأخلاقهم فمرجعه الكتب ولم يبق الباحثون فيها مقالا لقائل ولا مجالا لجائل .
ركبت السيارة أطوف فى أحياء لندن وضواحيها بضع ساعات وما أظننى
لمحت الا جزءاً منها وناهيك بعاصمة هى مجموعة بلدان وحواضر وقرى وناهيك
بعاصمة فيها من أنواع المحطات للسكك الحديدية عشر محطات كلها آية فى الضخامة
واذ كر انى خرجت من احداها وأنا قاصد الى كمبريج فى القطار وعلى جانبي قطاران
آخران يخرجان فى نفس تلك الدقيقة من المحطة . وكل شىء هنا يدل على عظمة
الانكليز وتغاليهم فى الرفاهية والصحة وما أذكر انى رأيت بلداً فى الغرب أشبه
لندرا أكثر فيه التأنق فى المطاعم واستجادة ابنتها وأثاثها وضروب الراحة فيها
الا فاني نظافة من مركباتها الكهربائية والبخارية ومن محطات سككها الحديدية

وسبككها الكهربائية . أما محال الاطمئنان العامة في الشوارع فهي على غاية مايتصور من الاتقان والنظافة ولا عجب فهي منسذ القديم مضرب الامثال بفرط نظافتها .



المتحف البريطاني في لندنرا بمثابة خزانة كتب الأمة ومتحف اللوفر في باريز وفيه الكتب والعاديات معاً . أسس سنة ١٧٥٣ ولم تكن فيه اذ ذاك الا بضعة مجموعات فلم يلبث أن اغتنى بسرعة غريبة وبنى بناؤه الحالي بين سنتي ١٨٢٣-١٨٥٢ المتاحف والمكاتب دليل محسوس على ارتقاء أمة وانبساط ظل سلطانها وعظمة تاريخها الغابر والحاضر . وناهيك بانك ترا أعظم حكومات الأرض بمستعمراتها وقد بلغ المتفنيئون ظلالها زهاء أربعمئة مليون من البشر أو نحو ربع سكان المعمور . ولا عجب اذا كان متحفها وكتبتها آية الآيات وموضوع إعجاب الامم بأسرها وفي دار كتبها اليوم ثلاثة ملايين من المجلدات أو تزيد . فيها أنفس المجاميع المخطوطة الانكليزية وغيرها من اللغات ومجموعة المخطوطات العربية وحدها تعد بالالوف جعل فهرستها في ثلاثة مجلدات كبرى . وجعلت المكتبة تحت قبة عالية أعلى من قبة كنيسة مار بطرس في رومية وأحط من قبة كنيسة الباتيون بباريز . وجعل حوالى القبة التى يجلس تحتها ستمائة مطالع بالراحة دون أن يشوش الواحد منهم على جاره - مخازن الكتب على رفوف من الحديد طبقات بحيث يسهل الاتيان بما يطلبه الكاتب منها وكتب المراجعة كالمعاجم والفهارس ونحوها جعلت تحت القبة يتناولها المطالع حالا وهى تربو على عشرين ألف مجلد وهناك غرفة خاصة بمن يريدون الرجوع الى الصحف واثرائق السياسية والبرلمانية .

وقد جعل المتحف على صورة عملية منظمة مستوفاة شروط الصحة فيه . وهو من أغنى متاحف العالم قسم أقساماً وكل قسم حوى آثار أمة من الامم اذا رأيت تظن المتحف البريطاني لا يحوى غيره لكثرة ماجهز به من الآثار وبذل فيه من العناية فمنها آثار المصريين والهنود والصينيين واليابانيين وغيرهم من أمم الغرب

ولا سيما بريطانيا العظمى فحدث عما حوت فروعها ولا حرج من النو و ايس والقبريات والدروج والبردى والالواح والنقوش والالوانى والسلاح والقيشاني والمفصص والمجصص والمنحس والمصفح والمذهب والمفضض

وميزانية المتحف البريطاني مليون جنيه في السنة ويقسم الى اثنتى عشرة دائرة يتولى كلا منها حافظ من الحفاظ وهم حافظ المطبوعات والمخطوطات والعاديات الشرقية والقرون الوسطى وأصول الشعوب والآثار اليونانية والرومانية والنقود والايقونات والمصورات والخرائط والرسوم المطبوعة والصور المختومة والنبات والحيوان ومطمورات الارض ومعادنها . ولا أغالى اذا قلت أن الزائر اذا أحب أن ينظر في كل قطعة من عاديات المتحف ويبحث في كل فرع من فروع المخطوطات والمطبوعات في خزانة الكتب يحتاج الى صرف سنة من عمره ويخرج بعد ذلك وهو غير كثير الامام بما حوت تلك البقعة من المفرد والمركب والقديم والحديث ولذلك اكتفيت بالاماع الى ماهناك لان وصف ما فيه يحتاج وحده الى مجلد برأسه

في بريطانيا العظمى سبع عشرة جامعة منها عشر جامعات في انكلترا أقدمها جامعتا اكسفورد وكبرييج والجامعات العشر جامعة لندرا ودورهام وما نشتر وليفربول وليدس وبرمنغهام وشيفلد وبريستول وأكثرها حديثة انتظم أمرها في العقد الثاني من القرن التاسع عشر أو في أوائل القرن العشرين وقد كثرت الجامعات عتيب ارتقاء المدارس الوسطى (الكوليجات) في انكلترا وفي ايكوسيا أربع جامعات وهي جامعة سانت أندري وجامعة غلاسكو وجامعة ايردين وجامعة ادينبورغ وجامعة والس في بلاد الغال وجامعة دوبلين والجامعة الملكية في ايرلاندا

وقد وصف منذ ستين سنة جامعتى اكسفورد وكبرييج عالمان كبيران أحدهما عربى وهو « أحمد فارس » والثاني فرنساوي وهو « تين » فقال الاول : واعلم أن

كبريج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما يحتوى على نحو
عشرين مدرسة وألوف طالب في الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات وفي الثانية
علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما
أحد يقصدها الا أولاد الكبراء والاعنياء ولا سيما اكسفورد فهناك ترى طالب
العلم شامخاً بأنفه مصعراً خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند وأكثرهم
يصرف همه في ركوب الخيل والذات وينبذ العلم ظهرياً فتمت حان وقت الامتحان
عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل اذ هي محصورة معدودة فيجتهد
في حفظها وترسمها فاذا سردها عليه وأحسن سردها أجازته بصك يذكرك فيه انه
نال مرتبة المعلمين وهي عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش
منها القسيسون الملازمون لها وربما كان أيضاً من غير القسيس فان كل من نبغ
في علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف وفي كل من المدينتين مكتبة عربية
غير أن كتب اكسفورد أكثر اهـ .

وقال « تين » ان اكسفورد مجموع أربع وعشرين مدرسة أو معهد خاص
مستقلة ولكل واحدة ريع يقدر على الاقل بخمسة عشر ألف جنيه ومنها ما يبلغ
ريعه أربعين ألف جنيه فصاعداً وفيها جامعة للاساتذة جعلت مركزاً للمدارس
ويقبض المدير من ألف الى ثلاثة آلاف جنيه في السنة والمعلم من ٢٠٠ الى ٣٠٠
جنيه والمعيد المراقب من ٤٠٠ الى ٥٠٠ والجامعة عندهم أشبه بجماعة من الاساتذة
يشبهون أساتذة الكوليج دى فرانس في باريس فالطالب غير مضطر الى حضور
الدروس وراتب معظم الاساتذة من خمسمائة الى ستمائة جنيه ومنهم من يقبض
أقل من ذلك ومنهم ألف جنيه ومن أساتذة اللاهوت من يقبضون ١٧٠٠ جنيه
في العام وقد يقبض العميد فيهم من ١٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جنيه ماعداً الدار التي يسكنها
والحديقة التي يتمتع بثمارها وبقولها وهؤلاء الأساتذة مضطرون أن يعيشوا
عيشاً مرفهاً وان يقرأوا الضيوف ويعاونوا في جميع ضروب الاعانات بحيث انهم
ينفقون في الغالب جميع رواتبهم شأن الاساقفة ومعظم كبار الموظفين^(١)

(١) يقبض قاضي القضاة في لندن ٢٥٠ ألف فراك في السنة أو عشرة آلاف جنيه والقضاة
المادرون ١٥٠ ألفاً وفيهم من يقبض ٢٠٠ ألف وقضاة المقاطعات يتناولون ٣٧٠٠٠٠ فراك

في اكسفورد نحو ١٣٠٠٠ طالب وفي كمبريج ١٢٠٠ ومنهم في لندرا وهذا
الدرس المتمم العالى هو خاص في العادة بطبقة الأشراف والأغنياء من الاقلية
وذلك لانه يكلف نفقة طائلة (من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه في السنة وتكثر جداً أبواب
الصرف) ولان هذا الدرس هو من الكماليات للذهن (الرياضيات المجردة واللغتان
اليونانية واللاتينية) ولانه يؤخر الدخول في الاعمال المثمرة . ولكل طالب
غرفتان أو ثلاث غرف في المدرسة بحيث يتألف منها خلية نخل . وعلى الطالب
أن يحضر صباحاً في الكنيسة ويحضر درسا واحداً ومن يتخلف مساء عن الساعة
التاسعة يعاقب في الغالب بغرامات مالية والتلميذ الصغير أكثر حرية من
الطالب الكبير واليافع عند ما يكبر لا ينتقل من نظام ديرى الى استقلال مطلق
بل ان تنقله مدير بحكمة فهو يترك في المدرسة لنفسه في شؤون كثيرة اما في المدرسة
الجامعة فلا يخلى وشأنه بالمرّة ومثل هذا الاحتياط جميل في باب عدم الافراط
في الحرية . واعتياد الحرية ضمان أخلاقي والمراقبة ضمان طبيعي . ثم ان اكسفورد
وكمبريج مدينتان صغيرتان فلا ينزل الشاب عاصمة تدعوه ملاهيها ولذائذها الى
اضاعة وقته بل يعيش في الخلاء ويعانى الرياضات البدنية ولا يبحث عن ملهيات
في دور التمثيل والمقاهى والجواد العظمى ويبتعد عن اغراء المغرين وحديث المحدثين
ولذائذ المتلذذين . وليس في هاتين البلديتين شىء من الفحش ومن تميل أنفسهم
اليه يذهبون الى القرى المجاورة أو الى لندن ونصف الطلبة أعفة طاهرة ذيوهم
وأهم نقص فيهم الميل لتعاطى الخمر . وكانت المسكرات شائعة هنا منذ خمسين سنة
شيوعاً كثيراً كما هو الحال بين أهل الطبقة العالية فأصبح تعاطيها الآن نادراً .
ويبقى الطالب في هاتين الجامعتين على شىء من التدين ويقل فيهم الانحلال ولو بالصورة
الظاهرة بل هم يدينون بالبرتستانتيّة أو مايتشعب عنها من مذاهب المصلحين .

مدة التدريس ثلاث سنوات ويراجع الطالب في السنة الأولى المواد التي
تعلمها في المدرسة والفحصان الاولان يجريان في النحو واللغة وهما عبارة عن
البحث في مؤلفين أو ثلاثة من مؤلفي اليونان واللاتين ومساجلة باليونانية أو

اللاتينية نثراً أو شعراً وبعض أسئلة في الانجيل والتوراة . والفحص الثالث عبارة عن المساجلة في نفس المواد ولكن بصورة أوسع نظراً وأوفر نقداً وأشد عناية بالتاريخ والفلسفة . ثم يكون للطالب الخيار في اختيار أحد الاربعة الفصوص النهائية والاول في الرياضيات والثاني في العلوم الطبيعية والثالث في الآداب واللغات القديمة والرابع في التاريخ الحديث والشريعة والاقتصاد السياسي . وأهم ما يتعلمه الطالب تهذيب خلقه وتوجيه ارادته وتعريف ميوله . ولما كان معظم الطلبة من أبناء النبلاء أو الأغنياء كان عيشهم على أسلوبهم الخاص ودبدبتهم المعهودة وكثير من الاغنياء يبعثون بأولادهم الى هاتين الجامعتين ليتعرفوا الى أهل تلك الطبقة التي تأوى الى المدرسة وتكون لها بمثابة ناد وجمع وقد يكون التمييز على أشده بين النبلاء وغيرهم في بعض المدارس سواء كان في الطعام واللباس ومنزلة الطلبة وثروتهم مما يعتد به كثيراً ومن الطلبة من يصرفون خمسمائة جنيه وأكثر خرجهم الخاص .

هذا ما قاله العالمان في وصف الجامعتين الانكليزيتين اللتين تخرج رجالهما رجال انكلترا أمثال ايراسم وميلتون وباكون ونيوتن وبايرون ودريدن ودون سكوت وفيكليف . ولا شك ان بعض الاحوال قد ارتقت وبعض المصطلحات قد تغيرت بطول العهد . ففي جامعة كبريج اليوم زهاء ثلاثة آلاف طالب في ١٩ مدرسة أو دائرة منها ثنتان للسيدات وفي المدينة نحو خمسين ألف ساكن ويرد تاريخ انشاء جامعة كبريج الى القرن الثالث عشر وكذلك جامعة اكسفورد وهذه مؤلفة اليوم من خمس وعشرين مدرسة . وفي اكسفورد مكتبة البودلين المشهورة وفيها مجموعة مهمة جداً من المخطوطات والمطبوعات العربية نشرت مجموعتها الاولى منذ قرن ونصف .

ولا تزال تلك المباني الشاهقة الشائقة كما كانت يوم بناها بناتها ومنها ما يرد تاريخه الى القرن الثالث عشر مثل مدرسة الثالوث في كبريج فانها من أجمل مآثره العين من أبنية القرون الوسطى في الغرب .

المجتمع الانكليزي

السياحة والانكليز - توريث البكر - الجمعيات والمنتديات - أشرفهم ونبلاؤهم

٨٤

أكثر الامم الغربية جرأة على الضرب في الأرض وغراماً بالارتحال الأمة الانكليزية كما هي أكثر الامم أقداماً على العظام . وحيثما انقابت في الغرب وفي الشرق في القطارات والسفن في الفنادق والأماكن العامة لا تجد الا انكليزاً رجالاً ونساءً يسيحون على اختلاف طبقاتهم . وسواء عندهم الرحلة البعيدة والقريبة . ينفقون النفقات الطائلة في هذا السبيل مما لا يستطيع سائر الأمم أن تجاريهم فيه اللهم الا سكان الولايات المتحدة وهم انكليز أيضاً ان لم يكونوا بعنصرهم فبتربيتهم . السياحة دليل النشاط وأنشط الامم الانكلوسكسونية . ومن الغريب ان الانكليزي اليوم يسيح في المانيا والنمسا بل في فرنسا وايطاليا ويكاد لا ينفق جزءاً من عشرة مما ينفقه في بلاده وذلك لارتفاع ورقه النقدي ونزول أسعار الورق في هذه الممالك ولا سيما ألمانيا والنمسا وبولونيا والتشكوسلوفاكيا ورومانيا واليوغوسلافيا

ذكر « تين » ان كثيراً من نواب انكلترا يغنمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا الى فرنسا أو اسبانيا أو ايطاليا أو ألمانيا يصححون معلوماتهم السابقة ويأخذون أفكاراً جديدة يذهبون لا مرة ومرتين بل ستاً وثمانى وعشر مرات ليقفوا على أمور ويتتبعوا تموجات الرأي العلم . وعلى هذا فان احكامهم محكمة أبداً تهيأ لها أساليب الصحة والتحقيق . اذا حدث خطب في الدانيمرك وبولونيا ورومية والولايات المتحدة لا يعتم الانكليزي أن يهرع في الحال لأخذ ايضاحات صريحة عما حدث ومتى وافى الانكليزي بلداً أجنبياً يتعرف الى العظماء من أهله ويدعوهم اليه ويقلبهم وينفضهم كما يقلب المرء كتاباً وينفضه وربما دون كل ما دار

بينهما من الحديث ومتى ان لب الى أهله يبلغ أمته ما وقع عليه من الحقائق ويحمل الى أهل عالمه وأبناء حرفته ومحيطه ما يزيدهم معرفة فيما هم بسبيله وكم من انكليزي طاف المزارع والمعامل في غير بلاده وكتب عنها تقارير ممتعة وألقى عنها محاضرات جيدة وكم من رجل زار المعامل في أوروبا وأميركا فألف فيها وحاضر والفقير منهم يقتصد جزءا من المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ويعود وقد حفل وطابه بما طاب له من الحقائق وما رآته عينه من النظريات . وما من فتى نشأ من أسرة طيبة لا يسيح العالم كله . وكل تربية تامة تستلزم سياحات في الخارج ومقاما فيه طال أو قصر . وترى خلال العطلة المحجابين ورجال القضاء والاساتذة يأتون زرافات الى ألمانيا وكثير منهم لا يتمكنون الا من رؤية ظواهر الأشياء . والاناء لا يستطيع أن يملا بأكثر من حجمه . بيد أنهم كلهم يعودون ببعض أفكار أو بمبادئ يقل خطأها أو بأوهام غير فظيمة على الجملة . واذا انضمت جميع هذه الاستعلامات في سلك جاء منها رأى عام يقرب من الحقيقة في المسائل الكبرى ولا شأن له في السياسة ويكون على جانب من الصحة حاويا نصحا وموعظة ثم ان رجل الدولة الذي يكشف ببصيرته الطريق السليم تعضده أمته وتأخذ بيده في مهمته . البحارة يهللون لبأنهم وكثيرا ما يذهب الجمهور الى البحث عنه وسوقه الى أخذ سكان السفينة بيده يديرها .

ويعمل هذا النوع من التربية اذا انتشرت في الطبقة العالية من الأمة تتناول بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة من أهل تلك الطبقة . فاذا كان النرد فيهم على استعداد لا يسقط لقله تربيتهم الكافية الخاصة بل يتلقى ما يقويه ويزيد في مضائه وتصل قريحته وعبقريته الى الدرجة التي قدر لها الانبعاث ولا يعتمد أن يأتي بشمرة طيبة لان مركزه وثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المال والعيش . قالوا ومن دواعي الأسف ان طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثه ومكانة قبل أوانها ثم يأتي في جملتها بعض انذال وكثير من

البهائم وأناس وسط في مداركهم . ولكن لا سبيل الى تأليف طبقة مختارة لا يمثل هذه الوسائط . وهذا أشبه بزريرة فيها مئة رأس من الخيل يسبق منها ستة وتجد فيها سابقاً دونه السوابق ولكنه واحد في كل ألف . ولا تنجح المملكة اذا لم ترزق رؤساء أصحاب مكانة وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم يقودها اه .



قاعدة من قواعد التوراة سار عليها الانكليز فاختلفت بدمائهم وأصبحت لهم شريعة موافقة وعادة راسخة وهي توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الابناء والبنات من ارث والديهم . قال أحمد فارس : ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لا يورثوا جلاءهم (لقبهم) وأملأكم الا للابن البكر فان شاء أعطى اخوته وان شاء حرّمهم ففي هذه الحالة يلتزم الاهلون أن يقوموا بكفائتهم واذا كان البكر مسرفاً فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل البلاد له ولاخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية . والحكمة في توريث البكر دون غيره هو بقاء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة هذا اذا كان التراث عقاراً فاما اذا كان حصص مضاربة مثلاً أو أشياء متنقلة قسم بين الاخوة اه .

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت في كثير من أصقاع انكلترا كما كانت منذ بضعة قرون لم تهدم ولم تقسم وظلت بجداثها وأسوارها ومرافقها وفرشها وانظامها على نحو ما أسسها الجد الاقدم . ومن دور الكبراء ما هو متاحف مهمة بذاتها وكم من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات والمجوهرات والنقوش والصور مالو كان في حكومة صغيرى لعد من موجبات فخارها . ولقد قال ناقدا قاعدة توريث البكر كثيراً ما يكون أكبر الاولاد في الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة متهمكاً بعشقه مأخوذاً بالتمليق فلا يجيء منه الا أحق منفاق متجنن يسبح فلا يأتي من رحلته بفائدة بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل في شهواته

وقد يملّ من حياته . ولو لم تكن طبقة النبلاء تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لأصبحت أعضاؤها مؤوفة وضعفت عقولهم وكانت شراً على المجتمع كما هو الحال في ممالك أخرى . ثم أن عدم التساوى بين الاولاد يورث أموراً مرة فيضطر الولد الثاني ان لم يدفعه أخوه الى الجيش أو الكنيسة أو الاداره الى أن يبقى زمناً محروماً النعمة سلبياً من الراحة فيهاجر ويتأخر في زواجه ويخدم غيره عشرأ أو عشرين سنة على حين تجد أخاه مستقلاً وغنياً من ولادته ليس له الا أن ينزل في بستان أو قصر أخذ بأطراف اللذائذ . بيد ان هذا الولد الثاني لا يحزن لما يصيبه من فقد أرث والده كما ننوهم بل يعتاد ذلك منذ الطفولة لقدم العادة بذلك ومشروعيتها فيحتملها ويقبلها كأنها من ضروريات الطبيعة ثم هو لا يخشى النصب لان مزاجه يدعو الى العمل ويهيج له كبرياؤه أن الاجل بالمرء أن يكدر لمعاشه بنفسه لا أن يتكل على غيره .

الانكليز مكثرون من الاولاد معتادون الرفاهة يربحون كثيراً وينفقون كثيراً فاذا نشأ الولد في محيط يرى فيه البذخ على أتمه ثم تعلم منذ نعومة أظفاره بعد نهضة عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه من الثروة الا أن يعمل بنفسه الا يكون له مما يراه مهماز يسوقه الى العمل ويستسهل السفر الى الصين والهند واستراليا يرئاد العالم ليقتنى ويفتنى وينشئ عيلة ويقيم مجداً . بهذه الطريقة يغنى الصنفاء ولكن فكر الاقدام وحب السبق وقوة النشاط وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها . والمرء يقوى بالجهاد والامة يتجدد شبابها والذهب يسيل كالسيل على البلاد

لا تكمل المدنية اذا خلا المجتمع من طبقة من الاشراف أو تنقصه الحياة العظمى المستقلة المنبعثة الى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح المستعدة للجهال . قال أحدهم : ويل للقصور وسلام على الأكوخ . والاولى أن يقال سلام على الاكوخ وسلام على القصور . قال « تين » تغدو انكلترا في الحقيقة جمهورية تصوغ لها طبقة الاشراف ما تحتاج اليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسة تعد القدر اللازم من المهندسين . كثير منهم ضعفاء

عجزة لا ينالون خدمة حقيرة الا أن ينفقوا دخلهم ولكنك تأخذ من هذا العدد من تحتاج اليهم من أركان الجيش ولا اثن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال

* * *

بقدر ما ترى من عزوف الانكليز خارج انكلترا عن الناس واشتزازهم تجدهم في بلادهم الى الألفة والتعاطف وكل شيء يتم عندهم في الاندية (الكلوبات) ومن الغريب أنك لا تجد في انكلترا وزارة للمعارف كما تجد وزارة للأموال الخارجية والمستعمرات مثلاً والامة تعلم أبنائها بالمعاونات والعطايا والأوقاف . وتكثر الجمعيات الخاصة فتجد فيها جمعيات لاتقاذ الغرقى وتنصير اليهود ونشر التوراة وترقية العلم وحماية الحيوانات وقمع الرذيلة والغاء عشور أرباب الدين وجعل العملة أرباب أملاك وبناء بيوت جميلة وتوفير دراهم لهم وللهجرة ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وحسن استعمال يوم الاحد ومقاومة المسكرات وتأسيس مدرسة للمعاملات وهلم جرا .

هذا في جمعياتهم وهي تعد بالآلوف اما منتدياتهم التي يعمرها في الغالب كل من عرف عندهم باسم لاجتماعين وهو من بلغ الكمال في التربية والتهذيب فانها أكثر وأعظم . وكانت الاندية أما كن لتناول الطعام والشراب أولاً ثم انقلبت مع الزمن قصوراً فخمة ^(١) محترمة ولم يدخلها النساء لأول أمرها وكان لاعضاء النادي فندق خاص بهم يحتوى على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء في ناديه كأنه في بيته الذي يؤويه . ثم استخدمت الاندية للاحزاب السياسية ثم انقسمت أقساماً بحسب مقاصدها . وانكلترا في مقدمة الامم في التناغم بطبقاتها لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقته ومن الأندية السياسى والعلمى ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات والصيد واللعب والشرب وأندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب . وهناك

أندية خاصة بآبناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الاندية تمد بالملئات فى بريطانيا العظمى . ومن ثمرات الاندية عند البريطانيين ان أهل كل حرفة وطبقة يعرفون فى أنديتهم أقدر الرجال فيهم ةإذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكون لمبرزهم منهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الامة أى ان أعضاء نادى الاشراف وأعضاء نادى الحوذيين والسواقين والسكافين والطباعين والوراقين والغزالين والفحاميين بل وكل ما يخطر ببالك من أرباب الصناعات المختلفة يستعينون بالاندية على اختيار مدارك اخوانهم فينبون عنهم أخطبهم واعقلهم وآمنهم واعلمهم

ومن غرائب الاندية فى لندرا اليوم نادى السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادى من المشتركين فيه يكبس زراً كهربائياً ينير قطعة من المكان فيفتح له وبنور الكهرباءية ايضا اصطلحوا على اشارات لاتفاهم بينهم ويدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلاردو او يتحادثون احاديث صم ويغنون غناء الصم . وفى لندرا ناد للمعتزلين عن الداس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولا يقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة والعشرين وقد جعل دوليا عاماً ولا يؤدى المشترك فيه شيئاً وهو غريب فى بابه لانه يضم اناساً من اهل الارض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه طائفة كبيرة من ارباب المكائنة والشهرة .

وعندهم ناد اسمه نادى « المعجل الذهبى » ونادى « القبط الاسود » « وناديننا » وهو نادى أعظم الادباء ونادى ١٠١ ونادى الست ساعات وهو ناد اعضاء ستة يدخلون اليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب . و« النادى الدائم » وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من المخاطر حتى انه حدث يوماً حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة رجال الشرطة . وفى لندرا أندية قلما تقبل فيها النساء وفيها أندية للنساء العازقات عن الزواج . ومن أنديتهم نادى اللوبياء السوداء على مثال نادى

نيويورك وهو مؤلف من أربعين عزباء يجتمعون مرة في السنة ويضع رئيسه في صندوق أربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة فمن سقطت السوداء في يده حكم عليه قانون النادي بأن يتزوج والنادي يتكفل له بنفقة تزويجه كما يبناع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل ومنها أندية لطالبات الزواج على مثال نادي اليابان يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران ويتزوج أكثر المقترنين بالنظر الى صور خطيباتهم الشمسية وفي لندرا ناد للمنتحرين شعاره بالموت شفاء الاسقام كلها ولا يقبل فيه النساء ولا العزاب . ولها ناد للارواح يدخله علماء ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الاسرار عن مخاطبة الارواح ولها ناد لمن لا أنوف لهم ورئيسه مصرى أتفه أقبي للغاية يكاد لا يظهر ونادى مشوهى الخلقة ونادى السوداويين يجتمعون فيه كل أسبوع وهم عبارة عن حوذيين وسواقين وملاحين ليتسابوا ويتشائموا ويظهروا فضل قرائحهم في علم الطعن والقذف ومن قصر من الاعضاء أو أبدى لعلماً في ألباطله وحركاته يغرم في المرة الاولى وفي الثانية يطرد من حظيرة أقرانه . وفيها نادى العبوسين يدخله من ساءت أخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم الى ناحية يدخن غايونه بدون أن يتكلم . وعندهم نادى من يقسم الناس أربعة أقسام أي نادى البخلاء المقترين وفيه أناس من كبار أرباب الاملاك وأعظم المالىين . ونادى قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على تلم الشرف ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصاً في البرازاه . قال من وصف أندية الانكليز : الاندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والابدال الذى طرأ على الهيئة الاجتماعية والاخلاق على توالى القرون ولطالما مرت فيها أجيال من الناس ذكروها فذكرتهم وأقدم أندية لندرا النادي البحرى الملوكى أسس سنة ١٦٧٤ وأنشئ غيره في النصف الاول من القرن السادس عشر وأسس نادى طرف الغار سنة ١٨٠٥ الى غير ذلك من الاندية التى كان ولا يزال يختلف اليها العالم والمفكر والموظف والسياسى والبحرى وأهل جميع الطبقات .

طبقة اللوردات أو الاشراف في انكلترا غريبة في غناها وعاداتها وشممها وهي تعد جزءاً مهماً من البلاد وما زالت أراضيها تفتقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد الى يد على اختلاف القرون . وكم من لورد نبيل يملك ألوفاً من الافدنة جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل ان أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثني عشر انساناً يحضرون لتناول الطعام على أمل حضور اللورد ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه وهو لا يجيء بل لم يحضر ولا مرة واحدة . ولكن هؤلاء الملوك بغنائهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء وقد رأينا منهم في الحرب العامة الاخيرة ما أدهش من بذلهم في سبيل نصرة انكلترا وحلفائها .

في انكلترا سبعة وعشرون دوقاً ماعدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المملكة على التقريب . ويقدر أن مساحة أراضي الدوق دى ستر لانده ١٠٣٥١.٥٤٥ فداناً بالغ دخلها منذ عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ويحيى بعده لوردات منهم من يملك دخلاً سنوياً قدره مائتا ألف جنيه ومنهم أقل وأدنى ما يملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان . ويتألف من هؤلاء الدوقات والقايمهم وغنائهم امتن اساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد . ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضع احترام انكلترا . وقد تركت حقوقهم وغاباتهم بدون ان تتمهد لها الايدي تركوها لتكون متزهاً ومجالاً للارتياض والصيد على حين تنقطع الوف من الايدي عن العمل لقلة الاراضي التي تعمل فيها ويتحكم الاشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكماً غريباً . وبعد فان غنى انكلترا المشهور محصور في ايدي الاسرات الممتازة المختارة من طبقة الاشراف واغنياء الطبقة الوسطى . والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم من اهل الطبقات الاخرى كما هو الحال في فرنسا وقد

بالغ في هذه الحرب او بعدها عدد المعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الانكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية زهاء مليوني انسان من خمسة وأربعين مليوناً ويقول بعض المفكرين ان السبب في هذا الشقاء ان أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعة لقلة ما لهم من الأراضى المملوكة فبعد ان كانت أراضى انكلترا تطعم البلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لا تكفيها خمسة وثلاثين يوماً وكل يوم تقفر المزارع وتعمر المدن هذا مع ما أصاب المعامل من الفتور لقلة رواج المصنوعات بعد الحرب . واملاك الاشراف مهمة لا يستفاد منها وتلك الايدى العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لأنها لا تجد ما تعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل في تلك الأراضى لو وزعت عليها توزيعاً معقولاً فاشرف انكلترا هم العائق الكبير في كل اصلاح وارتقاء وأملاكهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعى .

ومع هذا فتحت منذ ثلاثين سنة طريقة جديدة لادخال لوردات جدد علاوة على القدماء وهم من كبار أرباب المعامل والماليين مثل الدوق دى نور فولك ووارداته السنوية سبعة وثلاثون مليون فرنك ماعدا الاربعمائة فدان التى يملكها فى حى وستمنستر فى لندرا وريمها مليون جنيه والدوق دى بوفور أراضيه البالغة ٢٥٠ فداناً فى لندرا هو مليوناً جنيه والاورد نورثامبتون وريمها أملاكه مليوناً ليرة وغيرهم كثيرون وبذلك أدخلت بريطانيا العظمى روحاً جديدة فى طبقة النبلاء والمال أشرف مادة يحترمها البشر قاطبة وان تنوعت أساليب هذه الحرمة وكل من يغتنى لا يسأل الناس غالباً عن الطرق التى بها بلغ ما بلغ شريفة كانت أو وضيعة .

النفس الانكليزية

٨٥

كتب كثير من علماء الاجتماع والحكمة من الفرنسيين في النفس الانكليزية ومنهم مونتسكيو وتين وبوتني وفوليه وديولين^(١) كتبوا في أدوار مختلفة فمنهم من كتب في القرن الثامن عشر ومنهم في القرن التاسع عشر وغيرهم في القرن العشرين وفي أمثال العامة « أعرف الناس بك ربك وجارك » ومما قالوه تقتبس الفصل الثاني : انكلترا من بلاد الشمال ولها بينها مركز امتازت به فليس لأقليمها ما يعادله بين الأقاليم لأنها تتمتع بمناخ يكاد لا يختلف طوره فلا ترى في الشتاء تبديلاً في الهواء من شمالي انكلترا إلى جنوبها على مسافة تسعمائة كيلومتر فيستطيع سكان بريطانيا أن ينتقلوا من ناحية إلى أخرى بدون أن تتأثر أجسامهم من هذا التنقل وتختلف انكلترا عن سائر بلاد الشمال بتمرج شطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في أواسط بلاد روسيا أو في شمالي بروسيا فيكتفي الروسي بما حضر لديه من حاجاته ولذلك يقل فيه فكر الاقدام على الأعمال أما الطبيعة في بلاد الانكليز فتنادي ساكنها بقولها انك يا هذا تهلك اذا تراخيت وتستمتع اذا جددت . فالهواء في بلاد الانكليز رطب ولكنه صحي وثقيل بحيث

(١) روح الشرائع ومذكرات على اسكترا لمونتسكيو Montesquieu : De l'esprit
ومذكرات تين على انكلترا des lois et notes sur l'Angleterre
وعلم الروح الانكليزية في السياسة خلال القرن التاسع Caine : Notes sur l'Angleterre
عشر لامييل بوتني Emile Boutmy : Essou'd, nue psychologie
politique du peuple anglais au X L. X e sieile
ومختصر في روح الشعوب الاوربية لفوليه Fouillée : Es juisse psychologique
des peuples europeene
وسر تقدم الانكليز السكسونيين لاديون ديولان Ed. Démolins : A quoi tient la
supériorité des Anglo-Saxons.

يكاد يصعب استنشاقه والجسم يهزل فيه اذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة .
تطفح انكلترا بطوار القامات ضخام الاجسام أشداء البنية وفيها من المعمرين
الشيخوخ أكثر من كل بلد من بلاد أوربا والأرض الانكليزية بما ترطب به
من الضباب أو يغمرها من هطول الامطار تحتاج على الدوام الى التجفيف
بالقساطر حتى لا تغدو بطائح أو غابات وهي بفضل تهادها خصبة ممرعة . ومناخ
انكلترا يحتاج الى الغذاء الكثير ولا سيما اللحوم وأرضها مستعدة كل الاستعداد
لتربية الماشية . والبحر بما ضم قاعه من الاسماك يدخل في مضايق الى أرض بريطانيا
العظمى فيصبح الصيد على طرف الثمام .

وبالنظر لطوبه الهواء دائماً واصفرار الشمس بما يداهما من الغيوم التي
تنخل أشعتها نخلا لا تزال الظلمة سائدة شطراً من النهار يضطر معه أبنا تلك البلاد
ان يحسن لباسه ومناحه ودفعته ويبحث عن الاعمال التي تستلزم كدحاً وكداً فهو
في حاجة الى جوخ لثيابه والى جدران غليظة لمسكنه فتراه يصرف جزءاً مهماً
من وقته في النسيج والتقطير واستخراج الفحم أو تراب النفط للوقيد خلافاً لابن
جنوبي أوربا فانه لا يعوزه مثل تلك العدة ليعيش . والانكليزي اذا لم يجد عامة
حاجاته في أرضه يجلبها من الخارج على سبيل المقيضة مع ماضنته احشاء بلاده
من المعادن والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة
الرخسية الاجور

واذ كانت الطبيعة الخارجية للامة الانكليزية مدرسة ابداع ونشاط وحذر
وتدبر نشأت هذه الفصائل من أسباب جلب المصالح ودرء المضار وكانت من
كمال الأخلاق في هذا الجنس ودعا الجهاد في الحياة وهو هنا أصعب منه في كل
بقعة الى أن ينسلخ عنه بالا تتخاب الطبيعي كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة
كالمرضى والجامدين والجبناء والمطلين ولم يبق من هذا العنصر غير الاقوياء أهل
الدراية العاملين وتأصل ذوق العمل بنشاط دائم فعال في النفوس حتى صار
كأنه أدنى فيها .

ولقد حسبوا أن غذاء انكليزى واحد يكفى ثمانية أشخاص فى بلاد اليونان وبما لبريطانيا من الموقع المتميز باعتزالها فى جزائرها سهل اندماج سكانها . وقد نفعا كثيراً الاختلاط مع الخارج وبما لها من الشطوط التى تبلغ ضعفى شطوط فرنسا بمساحتها يصعب لتعرجها ان تغزى موانئها . وقد كثرت تربتها الحديد والفحم الحجرى . وهذا من أكبر الدواعى فى امتداد تجارتها ثم ارتقاء صناعتها فساعدتها الاسباب المادية على النهوض بعد ان كان أهلها فى القرن السادس عشر أشبه بالاسبانيين بكسلهم وكان الجوع يأتيهم به الهولنديون من بلادهم وليس عندهم معمل لنسجه ويبعثون هم اليهم بالصوف وقد بدأ عمل الجوع عندهم فى القرن السادس عشر على أيدي مستعمرين من الهولنديين .

قالوا ان الشعب الانكليزى شعب انتفاعى وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الأ كبر اليوم فى هذه الامة الهوى فى العمل للعمل والميل اليه حباً به . وما الحياة السياسية فى انكلترا الا ابنة الميل الى تمرين القوة والبذل منها بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الانكليزية يشعر بحاجة الامة الى هذا التمرين والى هذا الصرف من القوة بما يراه من الحركة على السيارات واشتغال قوم بالالعب الشاقة فيوقن بان الرياضات البدنية الشديدة ليست فى انكلترا مدعاة للتسلية بل هى ضرورية لدفع حاجة طبيعية لاتقل فى شدة الحاجة اليها عن الجوع والعطش .

كل من زار لندرا يشهد الرجال من الانكليز يركضون فى الشوارع كأنهم عرض لهم عارض مهم جداً يوشك أن يذهب اذا أبطؤا عليه فيركضون نحوه بدون أن ينظروا ذات اليمين وذات الشمال للتخيلة والتسلية فهم لا يضعون نصب أعينهم غير الغاية العملية التى هى هدفهم ومنتجعهم حتى اذا وصل العامل الى مكتبه أو عمله ينصرف اليه بمحملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت الى ما يصده أو يخطر بباله فى غير ما هو بصده فتراه لا ينقطع لحظة عما هو مأخوذ به ولا يننى فى مهمته ولذلك كانت أجرة العامل الانكليزى أرقى من أجور عملة الامة الأخرى لانه

لا يلهيه شيء أثناء العمل ويعمل نحو ضعف ما يعمله الايرلاندى أو الالماني مثلاً . وهذا المزاج الخاص يؤثر في جميع الفروع أثراً مدهشاً .

لا يستنكف نساء من عمل يتعاطينه لتكون لحياتهن غاية فينصرفن الى تأسيس جمعيات الاحسان ويخدمن في المستشفيات ويعملن أعمالاً قد تعدها بعض الأمم المتقدمة من الاعمال الوضيعة ولكنها تكون لخدمة الانسانية ولذا أدخل خمسون ألف امرأة في الحزب الحر في انكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب قد نلنه مؤخراً والمؤمنون من الانكليز بالدين لا يؤمنون به وينصرفون عن كل شيء بل يعملون باسمين ويجهدون في الحياة لا يصددهم مأخذوا أنفسهم به من الغاية عن النظر في دنياهم . واذا كان الانكليزي لا يعتقد بالدين في باطنه يأتي الكنيسة مع أولاده وأهل بيته لاعتقاده بأن الايمان خير من الانحلال .

وبعد فان الذوق واعتياد العمل يجب أن ينظر اليهما كأنهما خاصّة جوهرية وصفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فهما يصحبان الانكليزي حيث يذهب تشفعهما الاسباب المكتومة من نياته وهما مفتاح أسبابه . وان الدواعى التى أدخلت ضرورة العمل في هذا الجنس قد أضاعت اليوم من شأنها وذلك لان كثرة الفنى العقلى والمادى قد زاد عدد الأغنياء وأضعف على التدريج في جزء من سواد الامة الانكليزية الغزيرة الارثية التي بها يعترف الانسا بقاء العمل ويقبل به فأصبح الكسالى والضعاف في هذا المحيط الجديد أكثر حظاً في البقاء فتألف منهم عنصر خاص تحرص حكومته على جلب المنافع اليه وأهل السعة من الانكليز يبذلون الفضل من أموالهم له وكل هذا على الجملة لا يضر الصفات التي ورثها الانكليز وتأصلت فيهم مدة قرون .

للاقليم في انكلترا تأثير مهم في الشعور والمدارك فهي البلاد التي يحف هواؤها وتكثر كهربائيتها التي تقوى الالياف وتمن الانسجة . ومثل الحس يكون التصور الطبيعى أى حاسة تمثل المحسوسات فانها في الانكليزي تتأخر ولذلك نرى الاعمال

الجراحية أقرب الى النجاح على يد الانكليزي منها على يد الايطالي مثلاً لأن الاول قلما يضطرب كالثاني . وقد شاهد خصوم الانكليز من عسكرهم في حروب اسبانيا واترلو وانكرمان والحرب العامة عجباً اذ لم يكونوا يتأثرون للاعضاء تبتري والقذائف تنفجر والمعظم يكسر والارواح تنزع .

ان أرض انكلترا على ما خست به من العبوسة والامطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد أثرت في نفوس بذها حتى لم يجدوا في الوجود ما يشغلهم ولذا شغلوا بخاصة أنفسهم وقل كلامهم وفضولهم كما قل شعورهم بما يأتيه من الخارج . والكلام كالشعور والفكر يرتقي ويصفو بالرفاهية ورغد العيش وهو أثر من آثار الثروة العامة والفراغ . وصف تين الشعب البريطاني بقوله : من السرور الذي يشغله السكوت وهو من أعظم ما تطمح اليه نفس كل انكليزي أن يجاهد في أمر ويتحمل المشاق ولا يرجع عما نوى . وقد أعرب شاعرهم تنسون عن مثل هذا الفكر بما معناه : ما أعظم على النفوس ان تقف دون غاية وتجمل لقواها حدّاً وان تصدأ كالسيف يعلق على الحائط بدلاً من أن يلعب في يد حامله ويصفو بالاستعمال وليس استنشاق الحياة هو الحياة بل اننا اذا فقدنا كثيراً فقد بقي علينا كثير فما كنا عليه ما برحنا فيه . قلوب أبطال شأنها التساوى بأنفسها حتى أصبحت على الزمن ويبد القدر نهب الضعف ولكنها مسلحة بإرادة شديدة في مضائها وبحبها وإيجادها ولا تلين قناتها أبداً .

ووصف أمير سون الفيلسوف الاميركاني العنصر الانكليزي بما يأتي . قالت الطبيعة أن الرومان لم يبق لهم سلطان فلكى ابني مملكة جديدة سأختار عنصراً جديداً كله مثال الرجولية معروف بالقوة الوحشية ، واني لأعارض في منافسة تجري بين الذكور مهما كانوا الى القسوة فليغرز الجاموس قرنه في وجه جاموس آخر وليمض أكثرهما قوة يفتح الطريق فان لي عملاً أريد أن أتمه ويستدعي ارادة وعضلات .

يقول في العنصر الانكليزي على الجملة الاستعداد لتصوير الأفكار العامة

ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للانكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه أبداً مأخوذاً بضرورة العمل . أليس معنى هذا ان حاسة العموميات ضعيف تركيبها في انكلترا بل ان العقل عملي لا يقبل الا ما يلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى اذا سار بنفسه سار سيراً نافعاً لاسيراً نكراً فمقله لا يشبه قائداً في جيش يفكر في وضع خطط الهجوم والدفاع بل يشبه ضابطاً يقود بعيداً عن معمعان الحرب قسماً من الجنود الاحتياطى المساعد فلا ترى في هذا الضابط قابلية لأن يكون في الطليعة ولكنه يجيد في اتخاذ مركز له في النقط التي تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة .

العقل الانكليزي يفكر في الأمور القريبة التي هي أكثر ما يكون مساعاً به مباشرة وله من مشاغله في تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن الحق ولا يفرغ ذهنه الى النظر الى الأشباح الفارغة فهي بعيدة من الأرض جداً غريبة عن الحياة الدنيا غير ملتزمة مع شروطها وضرورياتها . ولذا ترى الانكليزي في مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس . والاخلاقي الذي يبحث في المرئيات وليس هو صوفياً أو مفكراً ولا موحداً وهو لا ينظر الى القواعد الموضوعية والألفاظ بل ينظر الى الغاية من التدين أكثر من الوساطة وهكذا هو في السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذي يمنح الحرية على التقاليد الموروثة التي تحمي حتى الحرية القديمة المتأصلة فيه .

من غريب حال الانكليز ان كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للامام بالتربية العامة فهم اخصائيون لا تشوبهم شائبة وان من يحاول في انكلترا أن يحدث أحد علمائهم في العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه . فالعالم الطبيعي عندهم هو الذي يعرف كيف يصنع نموذجاً ميكانيكياً يطبق فيه العلم على العمل فقط . حتى انك لا ترى في كتبهم في الكهرباء الا حبالاً مرسومة تعلق وتمتد ومراسير يقطر منها ماء وغيرها ينتفخ وآخر ينقبض . وهكذا انكلترا في صناعاتها لا يصدر منها الا ما يقع تحت حسها ولا تقص في قصصها الا ما يماثل

حالتها الطبيعية وكذلك تاريخها ورواياتها التشخيصية وفلسفتها . وقد قدر لهذا الشعب أن ينشر البرتستاندية بثباته ويخرج من الكنيسة والكنائس اذ كانت دين ساطة قادرة روحية تقنن وتحظر وتماقب والناس معها مكرهون على القيام بتعاليمها .

أما المذهب البرتستانتي فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالاول موجد النظام والقاعدة والآخري محافظ النشاط ومبدعه . وهذا هو المذهب الذي يناسب أمة خلقت لتعمل .

ان تأخر سن البلوغ في شبان الانكليز وعفة النساء الانكليزيات وتعدد الأسر والبيوت كل ذلك من أخلاق الانكليزي الحديث كما كان قديماً من خصائص أخلاق الجرمانيين سكان انكترا الأصليين . وامتازت الامة الانكليزية من بين الأمم بأنها ظلت متجانسة لم تمتزج بغيرها ، فالانكليز وهم أهم عنصر تتألف منه انكترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن أجداد الجرمانيين انكليز وجدت وسكسونيون وكلهم من عنصر الماني والذين جاؤا بعد ذلك لاستيطان انكترا الدانيمركيين والنورمانديين هم فروع تشمت من تلك الدوحة

الانكليز خارج بلادهم لا يمتزجون بغيرهم من الأمم وهم في أرضهم أكثر الأمم حرية وأشدّها اكراماً وأيسرها لقبول الغرباء . ليست انكترا جزيرة بل قارة . وانكترا كما قال الشاعر شكسبير قلعة شادتها الطبيعة بنفسها اتقاء فتانة الحرب وشدتها وانكترا تشته في الأفكار والمنازع التي تأتيها من أوروبا نفسها ، واذا اقتدت بالبلاد الأخرى فاقتداؤها موقت كأنه للتسلية أو هو سطحي كأنه زى من الأزياء تلبسه اماسواد الشعب فلم يمس بشيء في منازعه وهو راض بأخلاقه الأولية وبالجملة فقد كانت دواعي الاختلاط قليلة جداً بين الانكليز وغيرهم ولا سيما عامة الأمة ، فالانكليزي أشبه بساكن الولايات في أوروبا وفكره كالشراب بقي زمناً في مأمن من الاهتزاز نفخ وكشف ولم تعد له تلك الميوعة التي تؤهله الى الاختلاط بشراب آخر وما قط تمازج العنصر الانكليزي بغيره من

العناصر في البلاد التي أخضعها السلطان فهو كالمعدن البعيد جداً عن نقطة التدوين فلا يتأتى أن يجعل منه أدنى مزج ، وما قط شادوا بأنفسهم الشعوب التي انتتحوا بلادها ، وما تلتفوا في استمالة قلوبهم .

ويشعر الانكليزي بأنه أقل من غيره علاقة بالمجتمع البشري ، وقلما يقتبس من صلاته مع غيره شيئاً يستفيد به في تركيب أخلاقه وقلما يبحث عما يفكرون فيه وإذا بحث فبحثه مجرد لا يدخل نتيجة في عواطفه وأعماله فهو ناسك بعيد عن العالم وعن غيره من الأمم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه في حي واحد وعن المحيط الذي يعيش فيه ولا يشعر بأقل ضجر من العيش وحده ، ولا يجد حاجة أن يقص ما عمله على غيره ، ولا يسوقه سائق نفسه أن يقف على ما عمله غيره فهو فيما خلا الشؤون التي تمسه مباشرة لا يهتم إلا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التي لها به مساس ولكن لا مباشرة بل من طريقة وطنية . قال فوليه : لا مرأى في أن للانكليزي نقائص مع ماله من الصفات ، فإن استقلاله يعرضه للانانية وشعوره بالوحدة يقوده الى الجفاء والغرابة في الفكر تؤدي به الى التمتع وفلسفته في التعمد بالحقائق واحترام النجاح والقوة والغنى أوصله الى احتقار الضعيف والفقير

يقول أميرسون : انك تحسب الانكليزي اذا اجتمع مع الاجانب أخرس فهو لا يصالحك ولا يتركك تنظر ما في عينيه في الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة بعينها . ويقولون نتسكيو : « يصعب على الفرنسي أن يكون لهم أحباب في انكلترا وكيف يجب الانجليز الغرباء عنهم وهم لا يحبون أنفسهم وأنى يعطوننا مائناً كل وهم لا يتواكلون . يجب أن يجري على خطتهم فلا نهم بأحد ولا نحب أحداً ولا نعتمد على أحد . قال يجب أن تراعى طبيعة البلاد كما هي فاذا كنت في فرنسا فأصحب كل الناس وفي انكلترا لاتصحب أحداً وفي ايطاليا أقرظ جميع الناس وفي المانيا أشرب مع كل الناس » وقال كارلايل الانكليزي : الانكليز شعب أخرس وشرح ذلك بقوله : ان السكوت يزيد في علاقهم

ونظامهم مع ما يبين عنه اللسان . الانكليزي يميل الى الاختفاء ولا يهتم بالظهور بل يهتم لتجويد العمل من حيث هو عمل نافع ولذلك ترى جرائد انكلترا لا يوقع كتابها على مقالاتها وهي مع هذا أرقى من جرائد فرنسا التي يوقع كتابها على مقالاتهم ليقال عنهم أنهم كتبوا وصحفهم أكثر صحف أوروبا مادة وأكثرها صدعاً بالحق وأقلها انغماساً في الرشاوى لخدمة أغراض خاصة وقال فولني العالم الفرنسي في سر نجاح الانكليز في الزراعة والتجارة والصناعة : « أنهم بالسكوت يجمعون أفكارهم ويتفرغون الى التدبير والتقدير على ما ينبغي ويحسبون دخلهم وخرجهم ويصفو فكرهم أكثر وينبعث كلامهم جلياً ومن هنا كان التدقيق والرواء رائد جميع أعمالهم العامة والخاصة »

قال فولني : ان انكلترا لا مثيل لها بصناعاتها وتجاريتها وانتشار مستعمراتها والتسامح التام عملياً مع الحكومة الحرة وهي دهشة بشعرها وآدابها وحركتها العلمية والفلسفية ومع هذا لم تعمل على ما يظهر شيئاً يرفع من قدر الجنس الانساني برمته كما فعلت ايطاليا وفرنسا وألمانيا وفما تهم بنشر ما تقتنه من الحقائق لتحملها الى خارج بلادها فليس من ذوقها الدعوة الى مبادئ حادثة ولكنها قامت للعالم بمثال باهر من الحرية والعمل والأمثلة تساوي أحياناً أكثر من المبادئ . بعض الشعوب أولعت بأن وضعت نصب عينها غاية في الكمال العام ورجحت انكلترا أن تضع موضع العمليات لعظمة جنسها وانتشاره كلمة معجبة كتبها احدى المدن الانكلوسكسونية على سلاحها وهي « أريد »

ان كان من خلق الانكليزي الاقدام على العظام فان حب الجديد والذوق في المجهول ليس فيه الا على ضعف أيضاً فالانكليزي يبقى انكليزيا ويعيش عيشاً انكليزيا حينما نزل . والانكليزي أقل من الفرنسي والايطالي في اليأس من النجاح وأكثر منهما هزواً بالمتاعب والمخاطر لعلمه بأن لها حداً لا تتعداه ولا بد من حل مشكلاتها . وقلماً تراه يحسب حساباً لنكد الطالع فتري الشاب يتزوج من

فتاة وهو في مقتبل العمر ولا يطالبها ببائة (دوطة) بل يقترن بها بلامهرو يقدم على تأسيس أسرة فيزيد تفقاته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على ادخال اصلاح في عمله بجرأة ويتخذ أسباب النجاح وهو يعلم أنه لا يلبث أن يتم اصلاح مصنعه حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين اصلاحه واصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبدله ولا لبد ومع هذا ينزع ويرزح تحت أثقال المداعب وهناك سبب آخر وأعنى به الهوى في العمل أو التجنن فيه وفي الحركة والدوق في العمل من أحل هو عمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية . وانا لنرى المرسلين منهم يتغربون في الارض ولا يخافون بل يتمزون بما يتم على أيديهم في الاقاصى وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون أعمالاً في السر ابتغاء وجه الله

ومن خلق الانكليزي أنه متشدد في الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فارباب العقول الغربية في تصورها كثيرون ولكم لا ترى فيهم أحداً يميل الى الثورة وقد اشتهرت انكلترا بأنها بلد التقايد المسنعية حتى على اللازم من التجديد وثلاثة أرباع سكانها لا يشعرون بالحاجة الى ادخال تعديل في القوانين والأخلاق والرابع الآخر يقبل بالتعديل في بعض أحوال مخصوصة ويتعلق بها ويلحقها بنشاط . ولذا رأينا الشعب الانكليزي قد جالده لاول وهلة ريثما أدخلت عليه أساليب الارتقاء حتى المادى منه فلما أسرب اليه صار في لحمه وعظمه وهكذا شأن الامة العظيمة تتشدد في تقاليدها وتستنكف في الغالب عن قبول كل جديد الا اذا ثبت لها ما ينقضه ثبوت الشمس والقمر . فقدفيل القوة الحقيقية في كل مملكة ما عرفت به من الاخلاق الطبيعية . ونقليد الاجانب على أي صورة كانت عار على الوطنية .

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الانكليزي في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لا يحسد من كان أعلى منه منزلة وله من عمله الذي يستمتع بمنافعه أعظم سلوى ولذلك قل ان مالت الطبقة العاملة في انكلترا الى تغيير نظام الاشراف

في المجتمع لاعتقادها بأن الاعمال مقسمة لان الحفظ متباينة وبيننا ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعاً وللنائب كن نائباً فكان مهما كان منحطاً في أصله وللشريف كن شريفاً فيكون تجدد انكلترا لا تسمح لوضع أن يعد في جملة العظماء الا بعد ثلاثة أجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجي لعلم القوم بان الطبيعة في انكلترا تتأخر في كل شيء ولذلك اقتضي أن يكون ارتقاء الناس كذلك « قال تين »: ان ثلاثة أشياء في انكلترا أحسن منها مما في فرنسا وعلى العكس فالسياسة في انكلترا راقية لأنها ثابتة لا تتغير كما هي الحال في فرنسا كل عشرين سنة . وهي حرة لأنها تدعو الافراد الى الاشتراك بها بالفعل وتسلم القيادة فيها الى الطبقة العالية لأنها أقدر من غيرها وتكون لها مشغلة تصددها عن البطالة . وصحافة الانكليز أكثر مادة وأصح نظراً ومجالسهم أوسع اختصاصاً . وكذلك الحال في الدينيات فان الاخلاق تقوم مقام الطقوس والمعتقدات . وكان الدين عند الانكليز يدعو الى الحكم الذاتي وإلى سلطة الوجدان وتهذيب الارادة ويترك مجالاً كبيراً للتأويل والعواطف الشخصية والدين لا يعارض العلوم الحديثة وميول العصر الحاضر ورجال الدين يتروحون . والدين تؤسس المدارس والدين يوصى بالعمل ولا يدعو الى الزهد والقائمون عليه كجمهور الناس لا امتياز لهم عليهم .

قال ولم تغز انكلترا منذ ثمانمائة سنة ولم تقم فيها حرب أهلية منذ مئتي سنة ورأس مالها أكثر من فرنسا مرات وعلائم الرفاهية والغنى فيها أكثر من كل شعب من شعوب الأرض الانكليزي يحسن الزراعة والصناعة والعمل أكثر من الفرنسي ويحسن تربية نفسه بنفسه والخاصة عند الانكليز أرقى من الخاصة عند الفرنسيين وعلمهم راسخ وعمامهم نافع وفرنسا تفوق انكلترا بجودة مناخها وتقسيم الثروة بين أفرادها لان لديها نحو خمسة ملايين مالك أرض ولذلك كان الفقراء أقل شقاء في فرنسا مما هم في انكلترا وليس في أرض الفرنسيين أغنياء ضخام الثروة كالانكليز لان الثروة تقسم بينهم والمواريث عندهم متساوية

والفرسيس يفضلون جيرانهم بحياتهم البيتية والاجتماعية اه
من خصائص الانكليزي أنه يشبه ميكانيكياً تعلم علم الحيل (الميكانيك) بالتجربة
لا بالنظر فتراه مهتماً أن ينتج بما له من آلة ما أمكن من النتائج ولا يحرص على
تبديل محركها أو أدواتها لعله بأنه إذا فعل ذلك أقتضى عليه أن يوقف العمل
وأن يبذل الوقت والاهتمام سدى من أصل رأس ماله المحدود وهو يدرك بأنه
إذا حدث للآلة ما يضر سيرها تقف أحياناً وتنقطع فائدته وفائدتها ولذلك يجد
من نفسه داعياً الى القبول بتعديل آلة على أن يغير أدواتها القديمة بأدوات
جديدة ولكن بدون أن يوقف الآلة ويقلل من مغلها

يعتقد الانكليز بالضعف البشري ويشعرون بضرورة أخذ الامور بالتدريج
والبداية بها من الصغير للوصول الى الكبير حتى لا تقف القاطرة في هذا الجهاد
وتهور في منحدر لا تقوم منه فهم في شرائعهم يكتفون بتعديلها واصلاحها مع
الزمن وماقط حدثهم أنفسهم أن يضربوا بما لديهم عرض الحائط ويضعوا غيره
من عند أنفسهم والانكليزي مع هذا اذا رأى الخير في تعديل قانونه يصر عليه
فقد رأينا أصحاب الصحف على عهد الاصلاح النيابي الكبير قد سعب عليهم أن
يصدروا منشوراتهم النافعة لأنه قضى عليهم أن يدفعوا عن كل نشرة طابعاً
فأجمعوا أمرهم على ان يصدروها بدون طوابع فغرمتهم الحكومة وحبستهم
ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عادتها بدون طوابع واصروا على
رفعها ومضت اربع سنين على هذه المسألة حبس لأجلها زهاء خمسمائة رجل حتى
اضطر مجلس النواب ان يجيب الطلب وان تضررت الحكومة من رفع قسم مهم
من الميزانية .

يعمل الانكليزي عمله حباً بالعمل نفسه على حين يعمل غيره من الأمم
لاحراز الثمرة التي تعقب الشرف او الراحة والرفاهية والدليل على ذلك ما نراه
في اهل الطبقة العالية منهم ممن لهم ثروات تعفيهم من تعاطي الاعمال فنراهم
يصرفون نصف ايامهم في الالعاب الرياضية الشديدة غير مباليين فكلان الرياضات

لهم كالفطرة المستحكمة كما كانت الألعاب الاولمبية في يونان ايام عزهم ثم انك لا تجد غنياً لا يصرف شطراً من وقته في النظر في شؤون مقاطعته وارشيته وكثيراً ما يهلك قواه في هذا السبيل بينما تجد ابنه في استراليا او مانيدوبا يعيش مع رعاة الغنم في تلك البلاد القاصية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين في جنوبي افريقية يعمل شاق الاعمال .

وبينا ترى الانكليزي اكثر الأمم تحاشياً مما فيه عبودية واحرص الناس على التناغي بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية التكلم وحرية القول تراه في نظام أسرته قد احفظ حتى الآن بنظام الحكم المطابق فدى الابنة تأتي زوجها بدون أن يعطيها والدها بائنة لأن العادة جرت بين الأغنياء وأرباب اليسار أن يحفظوا لبكر الأولاد المقاربات ويقسموا الأشياء المنقولة بينه وبين أخيه الاصغر منه سنّاً وتنال الابنة حصة من ذلك ويكون في الغالب دخلاً قليلاً تناله من واردات أبيها حرمت ذلك حتى لا تحيىء دار زوجها بما يرفع رأسها عليه لأن الرجال يريدون أن تكون لهم السلطة التامة في بيوتهم واذا اتفق أن زوجاتهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه الى ثروتهم ويحرمونهن حتى الوصاية على أولادهن والتصرف بأموالهن ، والزوجة مع زوجها وما يختار هولا ما تختار هي . والوالد والوالدة يريان ابنتهما بعيدا عنهما ولا تأخذها به شفقة والولد اذا غاب عن والديه ينساها واذا مثل بين أيديهما يحترمهما

قال « تين » : الانكليز مشغولون باشغالهم ليس عندهم من الوقت ما يظهرون فيه بمظهر الأنيس المتعذب أما الفرنسيون فهم أهل لطف وظرف يفتح بعضهم الى بعض قلوبهم ويوحدون بذات أنفسهم وهم أشكال يتبدلون بينهم في خطبهم ويتنزهون ويسرون ويركضون ويذهبون طلقاً حتى يسقطوا . الانكليز نوابغ فائقون وهم لا ينسجون حتى ولا على آثار الاقدمين الذين يعجبون منهم في باريز يطيش المرء مما يرى من العالم فلا يعرف الا العادات الظاهرة وليس له من الوقت ما يتمكن به من معرفة الرذائل والفضائل . لو سئلت عن مرامي الانكليز لصعب

على في الحقيقة ان أجيب عليها فلا الحرب ولا المنشأ ولا المراتب ولا السعداء من الناس ولا الهذيان في نيل رضى الوزراء مما يهتمون به بل هم يريدون أن يكون الرجال رجالا ولا يعتبرون الا شيئين الغنى والاهلية أريد بلفظ نبوغ أمة الا خلاق وصورة الفكر في الشعوب المختلفة التى تقاد بتأثير بلاط ملوكى أو عاصمة واحدة فالانكليزى والفرنساوي والايطالى ثلاثة مظاهر من مظاهر النبوغ .

وقال أيضا أرى مدينة باريز مدينة جميلة وفيها أمور بشعة وأرى لندرا مدينة بشعة فيها أمور جميلة جدا . فى لندرا الحرية والمساواة ولكن حرية أرباب الحشمة من الماس ومساواتهم وفى ذلك تختلف عن حرية البندقية وهى حرية العيش فى الظلمة والتزوج من بنات الهوى . ومساواة لندرا هى مساواة حشمة ووقار وبذلك تختلف عن حرية هولاندة التى هى حرية السفهاء والسفلة . ليس أمام الانكليزى اذا تافت صحته غير سبيلين انين اما أن ينتحر او يصبح لصاً . وقال : ان المال محترم عند الانكليز للغاية أما الشرف والفصيلة فليس لى تلك الحرمة . لما كان الانكليز لا يتحابون فى بلادهم حتى لا ينخدع أمدهم بصاحبه أصبحوا قساة . الانجليزى يبدى نحوك أدبا قايلا ولكمه لا يبدو منه ماينافى الأدب قط

انجلترا اليوم أكثر بلاد الأرض استمناعا بحريتها ولا استثنى من ذلك ولا جمهورية . أدعواها حرية لأن الامير ليس له فيها سلطة حتى يسىء لاي كان وذلك لان سلطته محدودة مراقبة ولكن اذا أصبح مجلس النواب الحاكم المتحكم تصبح حرية بلا حد اذ تكون بيده القوة الاجرائية على أن السلطة اللامتناهية هى للمجلس والملك الآن والقوة الاجرائية لملك الحدود السلطة فعلى الانجليزى الصالح أن يتوخى الدفاع عن الحرية من اعتداء الملك والمجلس . قال أحدهم لما مسكوا الحبل الأزرق سنة ١٧٣١ للمستردى بروغلى : انظروا الى هذه الامة انها طردت الاب وأنكرت الابن واستصفت روح القدس

أهل و عاداتهم

٨٦

جزيرة أو جزائر بريطانيا العظمى عزلتها الطبيعة عن أوربا كأنها قارة برأسها فجاءت أخلاق أهلها وعاداتهم نمطاً غريباً يدهش لها الغربي قبل الشرقي . وفي أكثرها الجيد الصالح . ومن أكثر علمائها الذين قضوا أعواماً في بلاد الانجليز واختلطوا بهم واطلموا على أحوالهم العلامة أحمد فارس (١) فقد أجاد في وصفهم فاقبست جملاً من كلامه لأن من أقام في بلد أعواماً لا يشبه من زاره أياماً قال: ينقسم جيل الانجليز الى خمس طبقات « الطبقة الأولى » الأمراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأُساقفة « الثانية » الأعيان أو العلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملأهم لامن معاطاة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء أى لقب عظيم « الثالثة » العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والنجار أهل المراسلات « الرابعة » التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه « الخامسة » أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الا كبر فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينهما وبين الاحيرة مناسبة أصلاً وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ماندر أما أهل الطبقة الثانية فان لهم من وجهه نزوعاً الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهات بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التي بنيت عليها

(١) الوسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف الخبايا من فنون أوربا (الطبعة الثانية بمطبعة الجوائب في قسطنطينية ١٢٩٩ هـ)

معاملات دولتهم ودواوينهم . ولما كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر وهم الحريون بأن يقال لهم بريتانيون أو انجليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الأجيال إلا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب أن تقدم ذكرهم أولا فنقول : ان أول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له وتقورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى أحد منهم بشأن جاره ولا يهمه أمر غير أمر نفسه فكل ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطال إلى معرفة شيء غيرها فالصلاح مثلا لا يعرف شيئا إلا ما آل إلى الحرث والزرع والقين لا يدرى مما يحدث في بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطاب على الأدوات المصنوعة منه وهلم جرا إلى المهندس والطبيب . وإذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف يعمل . ويمكن أن يقال ان به هذه الخصلة استتب عز دولة الانجليز وعظمت شوكتها . لان الرعية لا تعترض ذوي الامر والنهى في تدبيرهم ولا تتناول إلى معرفة ما تقتضيه سادتهم وأهل شوراهم . وهم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم . ويمكن أن يقال أيضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم في هذه الحالة أسعد خلق الله وان جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير

ومن طبع الانجليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من كلام الغريب بينهم بل الكهول أيضا لا يعون ما يلقي عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان ما بينهم وبين الفرنسيين فان الحدث من هؤلاء يبتدر إلى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت أن البريتاني القح ليس له من نوعي العقل سوى نصف المكتسب ونصف الفريزي لما أخطأت وتلك صفتهم من القديم

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الساعة الرابعة وربما

بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا . واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتدئ أحدهما أولا بوصف الهواء وصحوه أو برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه أو نالول في رجله أو اختلاج في عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس

ومن طبيعهم أيضا أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون أيضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه . ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع الافرنج خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم . ومن عادة العامة الملائكة ويقال لها «البوكس» والملائكة للعامة بمنزلة المسايقة للعلية غير أن هذه محظورة بحجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للفرج عابها . وفي أواخر القرن الماضي كانوا يتعلمونها في المكاتب . ومن طبع الانكليز عمومًا التهاوت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأي سبب كان ولا سيما في أسباب المعارف والعلوم . ومنهم من يعتقد بالطيرة والتماؤل وظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن وشرع الانكليز أطول الشرائع أحكاما وأكثرها قبيلا وقالوا وأوسع من علم العربية قلبا واعلاالا . فان بعض الدعاوى التي تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فأكثر ويمكن تقسيم شرعهم الى أربعة أقسام . الأول ما تناقلوه من أحكام الرومانيين والزمانيين والسكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخل في ذلك أمور من قبيل العادة . وفي الحقيقة فان جل عاداتهم سنة لهم . الثاني ما بنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيه ولم يجز فيه حكم فيحكم بالرأى حسبما

يرجح عندهم أنه الاصلاح . الثالث أحكام مجلس المشورة وهي غير متناهية
الرابع أحكام ديوان الكنيسة

وتحيتهم في الصباح هي أن يقولوا صباح طيب وفي المساء مساء طيب ثم يردفوها
بقولهم « هودو يودو » وترجمتها كيف تعملون أنتم تعملون وهو سمة تنبئ عن
مزيد ميلهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد في لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف
للعمل وهو أكثر ما عندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد الا الباري
تعالى أو في الشعر وهو ضربة لازب فاما عند الفرنسيين فاستعماله انما هو في مخاطبة
الادلال كأنه يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده . ومتى خاطبت أحداً من فلاحى
الانكليز وهو مصنع اليك أبدي مهمة نند كل جملة أعنى قوله « هم » فكأنها
عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار يقول اه واذا هم خاطبوك
تفضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالأيدي كما هو دأب أهل مالطة وإيطاليا
وغيرهم وليس للهجتهم مطلقاً نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو ولد
أو امرأة اذ ليس في كلامهم مد ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حاجرهم
بخلاف اللغة الفرنسية فان فيها نغمة تستحب من الأولاد والجوارى جدا وربما
طرب لها من ليس يعرفها . ومن عادة النساء اذا كلن أحداً من الخاصة ان ينحنين
له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وكذا
هي عادة الخادم مع مخدمه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون أيضا يرنحون
لهذه الدغدغة وادا خاطبوا أحداً بكلام توبيخ وغيظ قالوا له « سر » وهي بمعنى
« سيد » حتى أنهم يقولونها عند طردهم كلبا ونحره فبقواون مثلاً اخساً ياسيدي
وقد يستعملونها أيضا لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته معامتى
والمرأة تقول عنه معامى . واذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة « مادام »
كان ذلك اشارة الى تنافرها خطاب الرضى انما هو أن يقول لها يا محبتي ويا عزيزتي
وربما قالوا يا قايى ولا يكادون يفهمون ياروحى ويا عيني

اذا دخلت على أحد من أهل العربية احتفى بك غاية الاحتفاء وان لم يكن

بينكما صلة أو معرفة وعند الانصرف لا يزيد على أن يقول لك في أمان الله وربما لم يبق لك وإذا دخلت على أفرنجي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع في عرض حاجتك وعند انصرافك من عنده ينهض لك ويرافقك الى الباب وعند الفرنسي لا بد من أن يكلمك هناك كلاماً يوجب وقوفكما ولو دقيقة إشارة الى أنه لم يعمل منك وعامة الانكباب هم دون عامة فرنسا أدبا وكياسة كما أن عليه أولئك أفضل من عليه هؤلاء وليس عند الانجليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه .

ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم في الكتابة وعدم التهافت على الحسد فادارأوا عندك مثلاً متاعاً نفيساً لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في احرازه ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله . ومنها انهم يصبون على ما بهم فلا ينظرون ولا يجدفون أى يستقلون عطا الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريد أنه مستغنى عنك ولا تكاد تسمع خادماً يطلع في مخدمته أو حادمة تعيب مخدمتها وان كانا يكابدان عندهما . واذا نبغ فيهم انسان في فن وصناعة لم يجد من ينصدي لتجهيله وتخطئه فلا يحسد ولا يبغض حقه . بل يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم ، ولا يتشبثون بأعقاب الاقارب ولا يأتون النجحة والغلبة الا قليلاً ، ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الاشتغال والمصالح والتوقيت للعمل فكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل فاذا انفق اذ زارهم أحد في ساعة الشغل لم ينحاشوا أن يقولوا له مثلاً قد أنسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا فينصرف عنهم عاذراً لا عاذلاً ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدتهم بشيء فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شيء قال له اني أرجو أن تكون من المحسنين الى بتويل طلبتي فأكون لك من الشاكرين فيكون جواب الكبير له بغير ملت سأبذل جهدي في مصلحتك وأخبرك

وأما اذا رأى المسئول نفسه غير قادر على احساب سائله ونفعه قال له مصرحاً
أن سؤالك فوق طاقتى فاقصد غيرى ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده
فلا محال ولا مطال

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لأحدهم
مثلاً طرساً فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين أعاده
عليك كما تسلمه بل ربما أزال عنه الوسخ ورده اليك نظيفاً وقال لك وهو معتذر
قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس وأرجو أنى لم أسىء فيما فعلت .
وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم لرسائل فلا يفتح
أحدهم كتاباً جاء باسم غيره بل يبذل جهده في ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر
فلا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا أراد أن ينظر فى كتاب
لم يلمسه الا بعد أن يستأذنك

ومن ذلك تنشيط أولادهم الى الاشغال وتمارينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق
الكافى والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر فانهم لا يعملون
من السعى ولا يرون فى الكسل راحة ولا يقول أحدهم انى كبرت عن تعلم شىء
فلا يزالون دائبين كالنمل مادامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل
فتى نعيم أحدهم أو سقط شرفه أو مال نجمه فاهون شىء عليه نحر عنقه . ومن
رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ولا يعرض لهم فى طلب
شىء ولا فى استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أياماً وشهوراً
وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه
اذا ذكره . ومتى وثق أحدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة
يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلاً ونهاراً بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم
بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصحوا آذانهم بعد ذلك عن
سماع ما يقال فيه من الذم . واذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم
فلا بد من أن يعطى الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده فى صحفة

من الفضة أو البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران في وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم . وفي الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال . وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغذية . ومما يحمد من هؤلاء النبلاء انهم لا يضعون في أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به في الطرق تهويلاً على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا وانما يتحلون بها في أوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلى والجواهر الا في الولائم والسهريات ونحو ذلك . ومن ذلك خطابهم خدهتهم بالرفق واللين وان أظهروا عليهم المعجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها اذا أمرتها بأن تناولها شيئاً هاتى هذا الشيء ان أعجبك . وبعد أن تأخذه منها تشكرها وربما تباذلت عليها في الاكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب ويحمد أيضاً من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصاً لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نهبوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر وعند الفرنسيين ينهبونه من قبل ثمانية أيام فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا اليه أجرة الشهر وصرفوه

قال ابن فارس هذا واني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز أن يصنفهم بالكبر والمعجرفة وكبرياء علية الانكليز انما هي في وجوههم أكثر منها في ألسنتهم وقلوبهم . وان وسم الناس اياهم بالمعجرفة مطاقاً ليس في محله الا انى لأننى عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تدل لغيرهم وهى من الخلائق المحموده لدى جميع الخلائق فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس أيضاً مضافاً اليه عدم التأدب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمنقلب وهلم جرا . هذا وكما اشتهر عن الانكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق

ومما يحمد من الكبراء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتداخلون في التجارة ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحداً فلا يجي مطلقاً بخلاف عادة الفرنسيين فان من يدخل على جماعة أيا كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احتراماً لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم .

انكلترا والاستعمار

٨٧

من لم يطالع على التاريخ والجغرافيا لا يعنقد عند ما يقع بصره على البلاد الانكليزية أن حكومتها استعمرت مملكة واسعة أعظم من مملكة قيصر وأمر منها . ولقد ارتكبت انكلترا أغلاطاً كثيرة وركبت أخشن مراكب الجنون للوصول الى مستعمراتها . وعلى ما في طارق استعمارها من النقص الذي لم يتم بالاصلاح حتى الآن يصعب أن يقال ^(١) أن شعباً نجح في هذا الباب أكثر من الانكليز اذا اعتبرنا اختلاف العناصر والأخلاق والاهوية والطباع

تتناول مستعمرات انكلترا نحو ثلث مساحة الارض وربع سكانها واذا استثنينا اليابان والصين نجد انكلترا قد اتصلت من الاصل أو بالحكم مع أكثر من ثلث الشعوب المتقدمة في العالم فلها في قارة أوروبا أربع مستعمرات وفي قارة أميركا إحدى عشرة مستعمرة وفي افريقية أربع عشرة مستعمرة وفي آسيا ست مستعمرات وفي أستراليا ثمان مستعمرات ولكل واحدة قانونها الخاص تشدد

(١) انكلترا وحكومتها ومما لديها موبلانك

صلاتها بالمركز (لندرا) أو تالين بحسب عراقتها في المدنية وجهادها في سبيل الحرية والقومية .

والفضل الاول في حفظ جزائر بريطانيا ومستعمراتها الى الاسطول الانكليزي الذي حطم كل اسطول ماعداه لجيرانه حتى غدا الاول فقد قال المؤرخون أن الانكليز ما كانوا يحدون بأن ينقابوا من قرصان بحر الى دولة بحرية عظمى فقد استأجر هنري الخامس سفن الهولانديين في القرن الخامس عشر للاستعانة بها على حملته الى فرنسا ولم يكن للبلاد قبل عهده بحرية حرية لحماية الشواطئ وكانت جميع تجارة بريطانيا الخارجية بعد الهولانديين والامبارديين والهاسبين تستميلهم الحكومة البريطانية مما كانت تمنحه من الامتيازات التي تحرم منها رعاياها من الانكليز . ولم تهتم انكلترا الا عهد ريشار الثاني بحماية عامها ولم تؤثر الاسباب التي اتخذتها الا على عهد هنري السابع وظل الانكليز الى آخر أيام الملكة اليرابت غير مستعمرين . بدأ القرن السابع عشر وليس لانكلترا خارج أوروبا ولا مستعمرة وقد سبقهم حيرانهم السالزون على ضفاف البحر الا تلاتيكي .

كتب أحد رجال البحرية في انكلترا أواخر القرن السادس عشر يصف البحرية الانكليزية فقال : لا يتأتى للبحرية الانكليزية أن يكون لها وجه شبه مع البحرية الهولاندية . فقد أصبحت هولاندة كما كانت مدينة صور القديمة ومدينة البندقية الحديثة مستودع كثير من البضائع يصرف منها واحد من المائة بلادها والباقي خارجها والهولانديون يأتون اليها متاجرين كل سنة على ٥٠٠ الى ٦٠٠ سفينة ولا تكاد نبعث اليهم بأكثر من ٣٠ الى ٤٠ سفينة فالهولانديون يتجرون مع جميع مواني فرنسا ونحن لا نتجر الا مع خمس أو ست مواني وسفنهم وحدها تبلغ أكثر من جميع ما يملكه مجموع أمم النصرانية فهم يبنون في السنة ألف سفينة . هذا وليس في بلادهم شجر ، وحاصلات أرضهم لا تشحن أكثر من مائة سفينة اه

وأن تحطيم السفن الانكليزية في بحر الشمال والمانش سنة ١٤٨٨ للاسطول الاسباني الذي لا يغلب L'invincible Armador كان مبدأ تفوق انكلترا بحريتها وقد ساعدت انكلترا يومئذ الأتواء فلم تبق منه الا طويل العمر وقد وقع لانكلترا مسألتان ساعدتاها على هذا التفوق وهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وكانت جنوة وبيزا وفلورنسة والبندقية واكسبورغ وتروي ومدن الهانس مجمع التجارة والتجار ففتح اكتشاف أميركا أمامها بابا جديدا فأصبح مملكة من ممالك المحيط الباسيفيكي وفاقت على الدول الخمس التي كانت ممتدة على شواطئ هذا المحيط .

دخلت البورتغال أول الدول في ميدان الاستعمار ثم اسبانيا ثم هولاندة وقد بلغت هاته الدول الثلاث أرقى درجات سعادتها الاستعمارية في منتصف القرن السادس عشر وقامت فرنسا بمثل هذا الأمر بعد ذلك بقليل وكانت فيه أرقى من انكلترا وهذه جارت الأخيرة ، ولم تصرف أكثر من قرن لتعوض الوقت الذي أضاعته ولم يعترف بها بأنها دولة بحرية قوية تطمح الى الاستيلاء على البحار الا يوم صلح أو ترخت سنة ١٧٠٣ وعجيب تأخر انكلترا عن جيرانها الدول الخمس المفتحة موانئها على البحر الا تلاتيكي كيف لم تنتفع حالا من تجارتها مع أميركا على ما لها من المركز الغريب وهي أقرب الأمم الى العالم الجديد وشواطئها تمتد على طول ٧٩٠٠ كيلو متر أي ضعف شواطئ فرنسا واذا كان الانكليزي في أي نقطة من بلاده لا يبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين فرسخا هذا مع تعدد موانئهم وأنهارهم ووصول سفنهم حتى الى العاصمة والى كثير من الحواضر بدون أدنى عائق على حين ليس لهولاندة والبورتغال من الموانئ ما يعدها لاعداد الأساطيل الكبيرة وفرنسا واسبانيا مشاغل في اليابسة تحتاج لان تصرف قواها البرية فيها وتغنيها بها زيادة على البحرية .

كان من الاضطهاد الذي وقع على البرتستانت لأول انتشار مذهبهم في انكلترا أن هاجر كثير منهم الى أميركا والى غيرها فاستعمروا البلاد واستصغروا الممالك

وأنشأوا في أيام نكبتهم لأمتهم ممالك بنيت على التضامن وكان سداها الاقدام ولحمها الوطنية . وأخذت انكلترا تطوف البحار التي كانت مجهولة الى ذلك العهد تؤسس فيها أما كن مشمرة تقرب بين محطاتها وتوطد سلطانها وتحمل الى القاصية علمها فتألف من ذلك عنصر مؤلف من بحارة شجعان ومستعمرين مقدمين وتجار للربح متمطشين يغلب عليهم الصدق في متاجرهم . وحسن الذمة شرط في التجارة ولكنهم لا يمتأون بالشرف في المسائل الأخرى فهم قلما يراعون عهودهم مع الدول الأخرى بعيدون عن الانسانية متشبعون بالانانية . والظلم عادة لمستعمرهم ونشأ من ذلك حب التوسع في الملك على صورة لامثيل لها في أمة . وان من تفرقوا في أميركا من مهاجرة الانكليز ونزعوا أيديهم من الكنيسة البابوية قد ربوا على استقلال الفكر والاتكال على المولى الحامى المطلق لخلقهم . ومن هذه الجماعات أو مجموع كنائسهم المجددة نشأت تلك المملكة الاميركية . فانجلترا قبل هؤلاء المستعمرين كانت تتوسع اليوم بعد اليوم أما فرنسا واسبانيا فكانتا تراجعا في مستعمراتها الحين بعد الآخر .

دخل في الاستعمار بالهجرة أو الفتح شعوب أوروبا العربية لقيام بلادهم بالقرب من الاوقيانس الباسيفيكي والاتلانتيكي والهندي أي اسبانيا والبرتغال وهولاندة وانكلترا وفرنسا والدانيمرك ثم تبعها ألمانيا وإيطاليا وأنشأوا البلاد وأسسوا الممالك ولكنهم كانوا باستعمارهم كلهم دون استعمار الرومان واليونان والفينقيين في حسن معاملة المستعمرين والاحسان اليهم في البلاد التي نزلوها على شواطئ البحر المتوسط وبحر الشمال فكان رائد المستعمرين من المحدثين القضاء على من نزلوا بينهم ولا سيما العبيد وهذا مما يؤسف له ^(١) ويصعب تطبيقه على ارتقاء النصرانية والعهد الحديث عن مستوى الوثنية والعالم القديم



(١) معجم السياسة والاجتماع لبلوك Block: Petit dictionnaire politique et social

وهاك الآن نموذجاً من ادارة الهند أكبر مستعمرات انكلترا بل أكبر ممالك الأرض بعد الصين تدرك منها أسلوبهم في حكومتهم الغربية التركيب المتنوعة الاجزاء التي تحيلها في بودقتها بالزمن الطويل الى انكليزية صرفة بمبادئها ومبادئها الا قليلاً .

لما استولى ^(١) الانكليز على الهند عقيب ان دالت دولة المغول ورفع عن بعض ارجائها علم الفرنسيين لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية في البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شؤونهم تربطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصلة المعرى تجمع تحت لوائها ملايين من الناس في أماكن متباينة وكان لهذه الأقوام بحسب مكانتها زعماء يقودونهم اسموا أنفسهم أمراء وراجات ونوابا وسلاطين وأمباطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ الا عصر التي استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة

ومع ما نراه من حال ذاك الشعب المهزوع المنتشر الاطراف الخالي من كل جامعة قد أنشأ له مدنية باهرة دامت قروناً تنير العالم بدائعها وظلت الى يوم الناس هذا لم تمسها يد بسوء . فارتبط الهنود من الشمال الى الجنوب من جبال حملايا الى رأس كومور برباط واحد وعملوا بقلب واحد وتشبعوا بروح واحدة تدفعها الشبات الذي لا يوصف والغاية المشتركة التي وحيها كلهم وجهتهم اليها وذلك انهم لم يرموا الى غرض سياسى ولا الى غرض اقتصادى بل لأن المجتمع الذي ألفوه ورتبوا درجاته ^(٢) لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الامر للمستعمرين لأن القوم لاتهمهم السياسة ولان النواب والراجات المغلوبين على أمرهم ليست لهم أصول راسخة في البلاد ولا منزلة في قلوب الأمة فكان الدين هو الذي يحرس القوم على بقائه والانكليز أحرس الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التي كان لها تأثير شديد في العامة

(١) من مقالة في المجلة الرقواء الفرنسية Revue Blene

(٢) في الهند سنة ١٩٢٠ قبيلة مختلطة Caste وقال آخر انها ١٤٠٠

أدرك الانكليز في الحال صراحة بأنهم في حل من أن يؤسسوا في الهند الحكومة التي تروقهم من حيث الادارة والنظام السياسي والتشريعي على أن لا يمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فانشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا في تأسيس هذه الحكومة أصول الشعوب اذ كان هنا البنغاليون الجياع والماهراتيون الشجعان وفي مكان أبعد سكان ميزور وفي المقاطعات الأخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع الى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الاقاليم من حيث وضعها الطبيعي عملاً بما قاله أحد رجالهم من أن الاختلاف في أصقاع الهند أشد مما تراه في ظاهر أرضنا وسياراتنا . ولم ير المستعمرون من مصلحتهم أن يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وبنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص والسلطة وتقسيم البلاد في ادارتها على خلاف ما جرت عليه فرنسا في ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لأنها ترمى الى تجنيس أهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسية . وبعد تجارب طويلة تمت لانكلترا سنة ١٨٦١ صورة ادارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظوراً فيها وهي الصورة التي جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانوناً من مجلس النواب فقسمت الهند أولاً الى ثلاث ولايات بنغال ومدراس وبومباي دعوها رئاسات *Présidence* لان ادارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت انكلترا من الضرورة أن توحد الادارة السياسية مع الادارة الحربية لتقوية كل منهما فعمدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباي ولكن ولايته اسمية لا فعلية فأخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت في الاخذ والرد والادارة مختلة الأساليب لا ترجع الى يد تضم شملها حتى اذا كانت ثورة السيباي سنة ١٨٥٧ وهي التي كادت تخرج انكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة ادارة كانت أساساً للامبراطورية الهندية

وهو عمل ادارى لم توفق اليه أمة ولم يخطر في خاطر حاكم .

فقسمت أراضي الهند الى طبقتين جوهريتين أراضي السلطنة البريطانية أى البلاد التى تحكمها انكلترا مباشرة وهى عبارة عن ولايتى مدراس وبومباى اللتين بقيتا على ما كانتا عليه فى حدودهما وولاية بنغال وقاعدتها كالكوتا جعلت عاصمة المملكة وقسمت الى ثمانى مقاطعات لها حق الانتخاب . والطبقة الثانية أمارات الوطنيين التى تركت تحت سلطة الراجات الاسمية أو الفعلية فقسمت الى قسمين فى وضع الحماية الانكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالى العام والرئاسات وحكومات الولايات والامارات الوطنية

ولحاكم الهند أو نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفى بعض الاحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر الى أخذ آراء المجلس وله الحرية أن يعمل بها أو يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس الرابع عشر لا وزراء أدوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف والتجارة والحربية والعربية والاشغال العمومية ويحق لوالى مدراس وبومباى أن يحضرا فى المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع فى المكان الذى يستنسبه الحاكم العام فحيثما التأم فهناك العاصمة . ويضاف الى هذا المجلس بعض الاعضاء فيصبح برلماناً أى مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الاعضاء الاضافيين من الاعيان أو ربيين كانوا أو وطنيين على أن لا يكونوا من موظفى الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمى فى هذا المجلس أكثر من العنصر الأهلى وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لاحكم له ومعاونته اسمية فى الأغلب

أما المجلس التشريعى فله سلطة واسعة لا يقف أمامها الا امتيازات البرلمان البريطانى وحقوق السلطنة الانكليزية وتنفذ قراراته عند ما يصدق عليها حاكم الهند . وهذه الطريقة التى تسهل احالة السلطة الاجرائية الى السلطة التشريعية تحل مسألة تقسيم الادارة على أيسر وجه فى حين تمنحها وحدة الآراء والاميال

وفي مجلس النواب كما في مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر في المسائل التي يحسن معرفتها بخلو غرض ويعطى رأيه حراً وللموظفين ضمانات لا تضر بالنظام ولكنها تقي أشخاص كل الوقاية

تنظر الحكومة العامة في المسائل الملكية خاصة كالديون العمومية والكمارك والرسوم الاميرية والمقايضات والبريد والبرق وتنفقات الحرية والاديان وقانون الجزاء والتمتع والملائق الخارجية والحقوق الادبية وغيرها ولتوجه دفعة السياسة الى الوجهة التي تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهي المنظمة والمدارة وحافطة العهد الدستوري أما ولاء الاقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعي لا تسرى احكامه على احكام الحاكم العام كما أن هذا لا يعتدى على امتيازات الامبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف ان تقرر ما تشاء . ويخاطب واليا مدراس وبومباي لندرا مباشرة ويتناولان التعليمات بأنفسهما أما سائر الولايات فأدارتها ترجع الى ولاء وبعضها الى متصرفين يمينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الامبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين في الهند على الاقل وهم يخبرون كل كوتا في شئونهم ولكن في الامور الادارية واهم سلطة كسلطة والي مدراس وبومباي ولهم الميزة عليهم بأنهم أكثر خبرة وتقوذاً

أما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الاوريسين والهنود ويقدر بمائتين وسبعين ألفاً منهم ثلاثة وسبعون ألفاً من الانكليز ومن جيش مساعد تقدمه الأمارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ ألفاً ولكن على الورق فقط وعنده أربعة آلاف مدفع واداستثنى من الجيش العسكري الانكليزي وبعض الولايات كالسيخيين والباتام والغوركا فالجيش الهندي لا يساوى شيئاً . واذا استثنى من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لا يساوى شيئاً أيضاً . قال أحد كبارهم : ان هذا الجيش عبارة عن خليط من الأوباش لا علم له بالتدريب الحربي وليس لديه سلاح منظم وان الابين أو ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين

ألفاً من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة ألف مع الجيش الاحتياطي هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب أو كالدخان عند مداهمة الخطر وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والاشغال العمومية واعانة البائسين ولكل ولاية الحق في أن تستلف نقوداً على واردات خمس سنين تصرفها في الطرق التي تراها نافعة لعمران ولايتها وتقتصد ما تشاء وفي الهند أربع محاكم عالية في بمباي وبنغال والشمال الغربي ومدراس تميز اليها أهم الدعاوى المدنية والجزائية وينتخب أعضاؤها من قبل السلطنة الانكليزية ويقبض كل عضو من مئة ألف الى مائتي ألف فرنك راتباً سنوياً وفي كل حاضرة ولاية محكمة استئناف ومحكمة جزاء نقالة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة الى استعمال قانون لندرا واذا وقع اختلاف بين أوريبيين من رعايا انكلترا يطبقون عليهم القانون الهندي وأحياناً قانون الجزاء الانكليزي الهندي

ومأمورو الادارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفاً فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت أيديهم صغار الموظفين من الوطنيين^(١) ومن مبدأ إنكلترا في الهند ان تبقى جميع الوظائف الكبرى في أيدي الاوربيين وتعطي جزءاً مهماً منها للوطنيين ولا ترى الحكومة ان تقبل أحداً من رعاياها الهنود وتجعلهم انكليزاً في جنسيتهم وهم يهزأون بفرنسا التي جنست رعاياها في بوندشيري بجنسيتها وأعطتهم حق الانتخاب لارسال نواب وأعيان .

أما الإمارات الهندية المستقلة فهي منقسمة الى طبقتين تقل في الأولى السلطة الانكليزية عليها ومنها الإمارات الاسلامية التي تركت وشأتها لان ذلك أقل في النفقة عليها ولكن حالتها الى الزوال لادني اشارة تصدر من الحاكم العام ثم ان أمراء تلك الإمارات الاسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد

(١) في الهند ٢٥٠٠ موظف وطني يقبضون مساهمة من ١٢ ألفاً الى ٢٥ ألف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذين يقبضون من ٣٠٠ فرنك الى ١٠٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ في المئة

الأعظم من رعاياهم فهكذا تجدد في مملكة النظام مملكة حيدرآباد الدكن ^(١) تسعة ملايين من البراهمة مقابل مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة ^(٢) خمسون مليون برهمي أما ممالك كواليور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية الا الاسم لأن أمراءها دخلوا عليها . اما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيراً ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا ورافانكور وجيبور وجوبور وملوكها من البراهمة ولأن اعتادوا العبودية فذلك لأنهم كانوا الى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى الحكومة من الحكمة ان تضيق خناقهم وهي لا تخافهم ولكنها لا تترك اليهم الا قليلا قال جايس ستيفن : ان الانكليز في الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالقتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكرنظام الهند كأنه مأخوذ بسيل جارف اه . وتنقسم درجات التعليم في الهند الى ابتدائي ووسط وعال وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الانكليزي الهندي البديع

ان من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الاندوس وشاطئ كورومانديل ويطلقون عليهم اسم الهندود يجب أن يجعلوا من الشعوب التي تشتمل من الغريب وتعاديه شأن كل الشعوب التي لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق على الاكثرية من البراهمة كما يصدق على الاقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم ان لا يحيدوا قيد شبر عن تعليم أولادهم الصنعة التي يعلمها آباؤهم بالارث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التي تصدر عن زعمائهم وان جزءاً من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله في مدرسة قريته أو يأخذه عن رئيسه الديني مع ما يأخذ من آداب

(١) مؤسس هذه الدولة هو من نسل احد قواد اورنگ زيب المشهور الذي حاصر سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وطامسة مملكته حيدرآباد وهي انكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن
(٢) عدد هذه الامارات عشرون امارة وهي ماعدا مملكة باهوبال وناهاوال لاشأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك

أتمته ودينها فيملاً ذهنه بالترا كيب المهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها
« لنعبد النور السامى من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود التى تقود
فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السموات »

أما التعليم الحديث فان رب الاسرة يدفعه عن أسرته مشمئزاً بقدر ما كان
يشمئز لاوكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يمز على البراهمة أن يخونوا
مبادئهم المقدسة وأ كثر ما يحذرونه من الامور التى يحملها اليهم الغرب بالمدرسة
فان شيئاً خفياً فى فطرتهم يدعوهم فى السر : اياكم والمدرسة الانكليزية
فهى عدوتكم

وعلى هذا حارت انكلترا فى سياسة التعليم التى تجرى عليها بين البراهمة لانها
لا تستطيع ان تعلمهم التعليم الاوربي الا اذا أضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم
هو وطنيتهم وهى لا تريد أن يخرجوا عنها حتى ان انكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ ان
تجيب مطالب ثلثمائة ألف رجل اجتمعوا فى سهل بنارس يقيمون الحجة على
الرسوم التى تريد وضعها على البيوت وعزموا أن يهلكوا جوعاً أو تجبيهم
الحكومة الى الغاء هذه الرسوم فاجابتهم مكرهة مخافة أن يحدث وباء فاذا عادت
روح الاعتصاب وسرت فى أعصاب مائتى مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم
ماذا تعمل بريطانيا ؟

ولم تر انكلترا أسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج على أن تعلمهم
ما تعلمه أبناءها فى عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الانكليزية على شرط
أن لا يحميدوا عن جادة الاخلاص لها ولا يسيثوا استعمال المفتاح الذى تسلمهم
اياه ويستخدمونه لفتح الباب فى ايذائها

والمسألة لا تخلو من اشكال أيضاً فيما يتعلق باهل الطبقة العالية من المسلمين
فقد جاء فى احد التقارير عن الهند مانصه : « اذا صرفنا النظر عن الاسباب
الاجتماعية والتاريخية فى الشعب الاسلامى فى الهند نرى لانحطاطهم أسباباً ذات
شأن لها علاقة بتربيتهم التى تؤثر فى حياتهم . » فتعليم الجامع يجب عندهم أن

يكون سابقاً لدروس المدرسة ولا يتيسر أخذ الطفل من المسلمين الا بعد أن يقضى بضع سنين في مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقہ الاسلامی ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده الى أن يختار الخدم الدينية مؤثراً لها على أريح المسالك والاعمال . وقد أيدت التجارب هذه الملاحظة اذ حدث ان حب الوظائف العامة قد أثر قليلاً في المسلمين في الهند وظلوا يقاومون التعلم الانكليزي كل المقاومة ولحسن طالعهم لم تمن الحكومة الانكليزية بان تجعل المسلمين أوريين كما صرحت على جعل الهنود كذلك ورأت انكثرا ان تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الاوهام القديمة لتستخدم منهم أناساً في الادارة والقضاء والمالية وقد رأى لورد ما كولي سنة ١٨٣٥ على ما فيه من العقل الذي أثر تأثيراً سيئاً في الهند ان من الواجب تعليم اللغة الانكليزية في مدرسة شبان الهنود من أرباب الطبقات المختةمة لترشح التربية الانكليزية من الاعلى الى الادنى وكان يقصد من ذلك ان يأخذ ما يلزم للبلاد من الموظفين من أهل البلاد أنفسهم

وفي سنة ١٨٥٤ أنشأت انكثرا ديوان المعارف العمومية فعنيت بادخال اللغة الانكليزية الى مدارس بنغال وبنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها على صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ أثمرت البذرة التي وضعها لورد ما كولي في تربة الهند فأسست ثلاث كليات في كلكتا وبومباي ومدارس على مثال الكليات الانكليزية فيها أنواع الراحة والرفاهية وتدرس فيها الدروس التقليدية وأنشئت في حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفي المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لاقليم بنجاب والله آباد لاقليم الشمال الغربي وساغ للمتخرجين من تلك الكليات أن يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتي اكسفورد وكمبريج

فتخرج من تلك الكليات أناس من أرباب النوق والادباء والمشرعين وقل في المتخرجين العلماء اذ لاحظ السير هنري مين ان عقل الهندي المستعد لقبول ما حلا وطلب من المعارف هو محروم مما يتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندي

يجيد التكلم والكتابة والتفكر الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والارقام وأصبحت الحكومة تبعث الى لندرا بارقي طبقة من متخرجي كليات الهند ليكونوا نموذجاً على اشتغالها وراموزاً لمن طبعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم في لندرا ولم تعقمهم ألوانهم السمرء وتناسب أعضائهم وعيونهم التي تقدح شراً وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وأمزجتهم الشديدة عن أن يستميلوا قلوب الناس اليهم ونالوا من الكرم البريطاني أنواع الرعاية والعناية وفتح الانجائز لهم أبواب دورهم الانيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان أميراً خطيراً وراجاً كبيراً فأخذوا بما شاهدوا وتكلموا على أجل أسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الانجليز وقدروا حق قدره كل ما في الوطنية من الاحترام والامن والشرف والاستقلال العالي .

فكانوا يتعاشرون ويتسامرون ويتعارفون في المجالس الى من يخطبهن من الآنسات الفتانات الشقر البيض ويلعبون معهن أنواع الالعاب المألوفة والرياضات الانجائزية الدافعة وكانوا في جميع أحوالهم مثال الظرف في ألبستهم والترتيب في قبعاتهم حتى اذا أتموا دور القرين التي كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا أسرار فلسفة هربرت سبنسر وشوبانهور ونيتشي وخفقت أفئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدايع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الانكليزي - يركبون البحر عائدين الى بلادهم بلاد الشمس والحرية يحملون أجل ذكرى مما رأوه وفي صناديقهم وأصواتهم الاوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض القساطين يؤبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهي يتحيفهم ويرجعون الى سابق أوهامهم وأحقادهم على الادارة الانكليزية التي لم تؤثر فيها كثرة تغذيتهم بمبادئ أصحابها

ولقد شاعت اللغة الانكليزية بين أمراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو في الغرب يتكلم بها الهنود وهم من أجناس مختلفة وأصحاب لهجات متباينة فالتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية

والهندستانية والمالا كالية والتاؤولية وغيرها من لهجات الهند يحسنون الانكليزية كأهلها وهذا ما حدا انكثرا ان تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة أن تعتمد على العنصر الاسلامي فاعظمت له مكائته وأقلت من مكانة العنصر البرهمي فزاد ذلك البراهمة نفورا وأخذوا ينادون في سرهم وجهرهم « الهند للهنديين » وأرادوا محاربة الانكليز حرباً اقتصادية فلم يكن من أبناء جنسهم أناس يكفون للظفر في هذه الممارك فلم يسعهم الا أن يلجؤا للاجانب فكان الألمان وهم الشعب الذي يحاول أن يخلف الانكليز في كل مكان هم الذين مدوا أيديهم للهنود وأصبح ماخرجه هندهم من بالات القطن وصناديق الشاي وأكياس القهوة يسافر الى ميناء همبورغ بدل منشستر

ثم حدثت مشاغبات وفتن وقتل رجال الثورة بعض أعضاء الحكومة فلم يسع انكثرا الا أن تعطى الهند نظاماً جديداً مصبوغاً بالصبغة الديمقراطية أكثر من ذي قبل وأشركت الهنود في سياسة بلادهم واستعملت انكثرا الرفق فيمن دعوا الى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان أكبر مفتر لهم الهنود عن نزاع أيديهم من يد حكومتهم أما المسامون الذين رأت بريطانيا بعد حين ان تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وأدركوا قصورهم خصوصاً عند مارأوا اخوانهم شبان العثمانيين الأحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هذا ليصدق على سكان الهند ما قاله أحد المفكرين من رجال السياسة الانكليزية « سيبقى الشعب الهندي على الدوام شاهداً ناطقاً بالماضي غير ممسوس بيد الغرب الا مساً خفيفاً » ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة اه .

هذا وصف لادارة حياة الممالك في أكبر مستعمرة لا كبر دولة وقد كانت الهند مدة قرن ملك شركة تستثمرها بمراقبة ^(١) مكتب تعيينه الحكومة ويقيم في لندرا وبعد ثورة السيبي سنة ١٨٥٧ انحلت الشركة وجعلت تحت ادارة

الحكومة مباشرة . وأصبح مكتب المراقبة وزارة الهند التي مازالت تؤلف دائرة على أحدثها غير وزارة المستعمرات وسموا الهند أمبراطورية وجعلوا الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا اذ ذلك أمبراطورتها وذلك سنة ١٨٧٧ وما زال ملك بريطانيا العظمى يقرن الى القابه لقب « أمبراطور الهند »

لم تعدل كما رأيت في الفصل الذي سلف الادارة الانكليزية الا ببطء شديد والتبديل الذي وقع حتى الآن في الاصول القديمة لم تغير من طبيعته فان الشركة الانكليزية أتمت عمل الادارة المغولية وما ادارة الهند كما قال أحد رجال انكلترا الا أشبه بادارة والد مستبد يملك في الجملة جميع الأرض ويرى من واجبه أن يقوم بواجب أعمال صاحب ملك غنى وذكى . وفي الهند اليوم مائة ألف جندي وضابط وموظف من الانكليز يقبضون رواتب مهمة ويقضى على رجال الادارة ان يحسنوا اللغة الوطنية لأن الترجمان لا يعبر عن فكر المترجم عنه وله وقد يرتكب القلط عن قصد فيبث الاوربي بقبعة ذلك أمام المرؤوس أو المتقاضى والهنود يجدون من رجال الادارة عدلا وفضل شرف فيما قيل . وعمال الهند من الانكليز موسع عليهم في المشاهرات فيبدأ أحدهم براتب ثمانية أو عشرة آلاف فرنك في السنة ثم يزيد بسرعة حتى ان من يصل الى مرتبة راقية في الجملة يتقاعد في سن الخامسة والاربعين وينال راتباً سنوياً قدره ألف جنيه ويعود الى انكلترا مستريحاً ويقبض نائب ملك الهند ٤٣٠ ألف فرنك مساهمة . ورواتب الموظفين في المستعمرات الانكليزية باهظة خلافاً لسائر الامم في مستعمراتها التي تتوخى الاقتصاد فلا يدخل في خدمتها الكفاة من أهل الطبقات المختارة .

ويعيش ضباط الانكليز وعمالهم في الهند في عزلة عن الوطنيين لا يختلطون بهم ولا يساكنونهم ولا يقبلونهم في أنديتهم . وبعض الفنادق تقفل في وجوه الوطنيين حتى المتخرجين في الجامعات الانكليزية منهم ويحظر على الدارسين من الوطنيين في محطات السكك الحديدية أن يدخلوا غرفة الانتظار بل هي خاصة بالانكليز والاوربيين . ولكثير من شركات الخطوط الحديدية مركبات خاصة

بالبيض وأخرى مقصورة على غيرهم من الوطنيين . والتمييز بين الغربي والشرقي مائل هناك للبيان في كل حال وشأن . ونسبة الوطنى الى الاوربي في الهند كنسبة الخادم الى سيده والعامل الصغير الى مديره . وصغار الموظفين من الهنود لا يلقون أمرهم الا في حالة من الخضوع كأن يفضوا من أبصارهم ويضعوا أيديهم على صدورهم قال ميتين : ان كل من ذهب من الهنود الى أوربا أو نظر في الاخلاق الغربية يتألم من القسوة البريطانية ويثنى على سهولة الاستقبال التى يجدها المرء في قارة أوربا . ولقد لقينا في رحلتنا محاميا شاباً مسلماً كان يتأسف على ألمانيا ويقول ان الالمان أكثر الأمم بشاشة وجذلاً فلا تكاد تصل الى حانة الجمعة في بلادهم حتى يوجهوا اليك الخطاب ويضعوا لك الأسئلة ويجيبوك على أسئلتك . ولا يقبل في المجتمعات الانكليزية من الوطنيين الا من بلغوا درجة عالية من الشرف والغنى كالأمراء والاقبال مثلاً وأبناء الرسول وكبار تجار المدن الكبرى وقليل من كبار الموظفين الهنود وذلك في مجتمعات من يفوقونهم في درجاتهم وقد تشاهد بعض أغنياء من التجار في الردهات الانكليزية وذلك في المدن التى اختلط أهلها منذ القديم مع الغربيين مثل بومباي ومادراس وكلكتوتا . بيدان تفرز الانجليز من الداخلين عليهم ظاهر على أمه فلا يكون الوطنيون الا بمعزل ويحظر على الانجليزى أن يتزوج بهندية ومن يفعل ذلك يقضى عليه ان كان موظفاً أن يستقيل أو يقال . والتسرى مع الوطنيات نادر مكتوم في بعض المدن . اليك جملة حال الهنود مع مستعمرهم وليس استعمار الانجليز حسنات كله ولا سيئات كله فقيه الجيد وفيه دون ذلك . ومن المحقق الثابت ان الهند ارتقت ارتقاء محسوساً في عهد حكومتهم شأن معظم مستعمراتهم ونشروا لغتهم بينهم مع الزمن الطويل ولكن كل وطنى من الهنود لا يروقه الا أن يرى بلاده مستقلة عن كل سلطة أجنبية .

الاندلس

صدر الكلام ومصادره



زرت ^(١) في الشتاء الماضي (١٣٤٠ - ١٩٢٢) بعض أمهات مدن الاندلس فأرادني غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم الى رغبتهم ، شاكرآ حسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتي ، بشيء من مطالعاتي ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر . وجه الحاضر ، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد أمتنا ، على ما هو كائن اليوم في عهد غيرهم . أذكر ما أثره العرب في تلك القاصية من حضارة ، وأثله من مجد خالد على جبين الدهر ، والسبب الذي به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة في عهد شبابها . والاعراض التي عرضت لها . فهرمت فزال سلطانها ، وتداعى عمرائها ، وابدع سكانها ، وربما تقعت في الاخلاف . سيرة الاسلاف ، خصوصاً في أرض لم يكتفوا بأن فتحوها ، بل عمروها وتديروها ، وحكموها واحكموها ، ومدارس حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد . يصيدون فيها حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقي الفكر الجديد ، وينير الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل في تأليف الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين في العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات .

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي « طبع بيروت » (٢) نفح الطيب للمقرئ

« مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي « ليدن » (٤) قلائد
العقيان للفتح بن خاقان « مصر » (٥) مطمح الانفس له « الاستانة » (٦) البيان
المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة في أخبار غرناطة
لسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحلل له « تونس » (٩) الحلل الموشية
له « تونس » (١٠) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار له أيضاً « قاس »
(١١) طوق الحمامة في الألفة والالاف لأبي علي بن حزم الأندلسي « ليدن »
(١٢) الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر
في انقضاء دولة بني نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن
فضل الله العمري « مصر » (١٥) المسالك والممالك لابن حوقل « ليدن » (١٦)
أحسن التقاسيم للمقدسي « ليدن » (١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي
« ليدن » (١٨) تقويم البلدان لأبي الفدا « باريز » (١٩) أخبار مجموعة في فتح
الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم « مجريط » (٢٠) الجزء
الثاني والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وفيه أخبار
ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بني أمية الى حين انقراض
الدولة العبادية « غرناطة » (٢١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية « الجزائر »
(٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين « الجزائر » (٢٣) عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة بيجاية للغبريني « الجزائر » (٢٤) المؤنس
في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار « تونس » (٢٥) ديوان ابن حمديس
الصقلي السرقوسي « رومية » (٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي « ليدن »
(٢٧) العميون والحدائق في أخبار الحقائق « ليدن » (٢٨) تاريخ المسعودي
« باريز » (٢٩) تاريخ السكامل لابن الأثير « مصر » (٣٠) تاريخ ابن خلدون
« مصر » (٣١) الحلة السيرة لابن الابار « ليدن » (٣٢) كتاب القضاة بقرطبة
للخشني « مجريط » (٣٣) تكملة التكملة لابن الابار « مجريط » (٣٤) التكملة
لكتاب الصلة لابن الابار « الجزائر » (٣٥) صبح الأعشى للقلقشندي « مصر »

- (٣٦) معجم البلدان لياقوت الحموى « ليبسيك » (٣٧) المكتبة العربية الاندلسية وفيها ستة كتب وهى الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتبس لابن عميرة الضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الاشبيلي نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا ورييرا « مجريط » F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid) (٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى « ليبسيك » (Leipzig) M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان « مصر » (٤٠) السفر الى المؤتمر لاحمد زكى باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفيدي (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة ابن زيدون « ليدن » (٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الأفطس « ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى « تركى طبع الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس « مصر والشام » (٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى « باريز » : Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris (٥١) التاريخ العام للأفيس ورامبو « باريز » : L' Histoire générale, Paris (٥٢) تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا والبرتقال لكونده « باريز » : J. Conde : Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, Paris (٥٣) تاريخ العرب العام لسيديليو « باريز » : Sedillot : Histoire générale des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب لحوار « باريز » : C. Huart : Histoire des Arabes, Paris (٥٥) عجالة فى تحليل نفوس الشعوب الأوربية لقوليه « باريز » - Fouillée : Essai d'une psychologie des peuples européens. Paris (٥٦) المخطوطات العربية

- في الاسكودريال لهارتوينغ دارنبورغ (باريز) Hartwig Derenbourg : Les
manuscripts arabes de l'Escorial, Paris (٥٧) الصنائع في اسبانيا
لكوميز مورينو «مجريط» Gómez-Moreno: El arte en España «Madrid»
(٥٨) الكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافواتي أي الكنتارارا «مجريط»
Emilio Lafuente y alcantara : Inscripciones arabes de Grenada
«Madrid» (٥٩) دليل اسبانيا والبرتقال لبيدر «ليبسيك» Baedeker
Espagne et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفي لمصانع العرب تأليف
رافائيل كونتروراس «مجريط» Raphael Contreras : Etudes descriptives
des monuments arabes, Madrid (٦١) تاريخ الأديان العام لسدون ريناخ
«باريز» Salomon Reinach: Histoire generale des religions, Paris
(٦٢) اسبانيا في القرن العشرين لمارفو «باريز» Marvaud : L'Espagne au
XXe siècle, Paris (٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون في بلادهم لكيلاردى «باريز»
Quillardet : Espagnols et Portugais chez eux, Paris (٦٤) اسبانيا
والبرتقال مصورتان «باريز» L'Espagne et le Portugal illustrés, Paris
(٦٥) دائرة المعارف الافرنسية الكبرى «باريز» La grande encyclopédie
française, Paris (٦٦) معجم لاروس المصور «باريز» Nouveau Larousse
illustre, Paris (٦٧) بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور «الجزائر»
Auguste Cour : Ibn Zaidoun, Alger (٦٨) تعليم اللغة العربية في اسبانيا
لميكائيل آسبين بلاسيوس «الجزائر» M. Asm Palacios : Enseignement
de l'arabe en Espagne, Alger (٦٩) معجم الكل في واحد أو موسوعات
العلوم البشرية Tout en un: Encyclopédie des connaissances humaines
Saladin et Migeon : (٧٠) دستور في الصنائع الاسلامية لسالادين وميجون
Manuel d'art musulman (٧١) معجم الالفاظ الاسبانية والبرتقالية المشتقة
من العربية لانجلمان «ليدن» Engelmann : Glossaire des mots espagnols
et portugais dérivés de l'Arabe, Leyde (٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية

العربية لريتوانجن «مادريد» Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica
« Madrid »

نحية الاندلس

١٩

عشقها ولم تسعدني الايام بامتع النظر في جمالها ، واستطلعت طلع أخبارها .
فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس المتعمدة ، ويأخذ بمجامع القلوب
الجافة العاصية . تفردت بين بنات جيلها بما خصت به من معاني الحسن والاحسان ،
فكثر الخطاب والطلاب . وهي لا تقتأ تبدي لمن أم حماها صنوفاً من اللطف
والظرف . وتخطب البعيد والقريب بشعر باسم . وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من
غمزات . تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافة الانسان .

عشقها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف
سجاياها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه : وبدبرت خوافيه وحواشيه . وزادني
غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلي أصيبوا بما أصبت به . وعدوا النزول في حماها
ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقي كان لأرض الاندلس
عليها من كل عربي ألف ألف سلام : على مر العصور والأيام .

عشقها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبناءها وغير أبناءها ،
وكانت الخيلة تتصورها في مظاهر صرح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ،
في الاندلس تم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا في أرجائها نحو ثمانية
قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة : ودور ظهور النوابع وأرباب
الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست
وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا
الصقع في منقطع أرض المغرب ، وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط
برهاناً أزيلاً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من أنكروا
لافراطهم في الشموية فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغربيون ضروباً من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن ، منذ عهد اليونان والرومان ، طرزا من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول . وينظر اليك في شغاف قلبك ولا عين له فتنظر ، ويطربك بتساوق نغماته من دون ماسناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها . وسالمتها حيناً فابقت عليها ، أو رمت شيئاً مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد اليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجل الهبات الطبيعية الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها . ولا أشجاراً باسقة وزروعاً خصبة في سهلها ووعرها ، ولا اعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوي بإيجاده كما زانها الصانع الأرضي بأبداعه ، وما أجمل الطبيعي والصناعي ، اذا تواعدا الى الاجتماع في خير البقاع . ليالى الأناضول . في جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر . في سالف الدهر . فيك قامت سوق الآداب . بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب . وكل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم انك نسيت كل شيء ماعدا الأدب ، وما هذه الآثار الأبدية الاثمرة علمك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم في الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلاً رقت حواشيه ، ونظاماً متقناً في حكم الانسان للانسان ، يطبع في تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع ، وينشئه على أرق مثال من الخيال في الكمال والجمال . مثال حي من حضارة العرب في القارة

الأوربية عامة ، وفي شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي ، نزل طلابه في قرونها المظلمة على علماء العرب فأوسعهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا مثوانهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من أرض كان الغرب كله يمدحهم فيها أثقل دخیل ، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معاني ليست في معاجم نقائسهم ، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويفمط الحق لصاحبه ، ويستهو به الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دع كتبها من أعمال هذه الحضارة الغربية ، وما ذاك الاثر الضئيل الباقي من عادات الاندلس العربية . الا برهان جلي على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاضقاع

تقويم الاندلس

٩٠

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالسيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هي في الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أو الثنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أيبيريا

أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء عشرين يوماً عرضاً يحدها البحر من أطرافها الأربعة إلا من الشمال الشرقى . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد: انها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جانب . والاندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثمانى ولايات ولالية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولفا ؛ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في أيدي الاسبانيين والبرتغاليين من هذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلومتر مربع سوى أراض مصخرة خثيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذاً الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربية على التحقيق ويقول المسعودى ان ان مسيرة صمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره ان فى أرض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن فى الشمال والغرب والشرق دخلت مرات فى حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية فى القرن الثانى ثلاثمائة فرسخ فى ثمانين ثم صغرت فى القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمري — كمفحص القطاة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لاجرم أن مقام العرب فى الاندلس كان غير طبيعى لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها فى الجنس واللسان والدين حتى ان عمر بن عبد العزيز لماولى السمع بن ملك عليها أمره أن يكتب اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها

منها لا تقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وصف المراكشى ما كان في أيدي الاسبان والبرتغال من أرض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن في الحد الجنوبي الشرقى على ساحل البحر الرومى مدينة برشونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التى على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافرغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشونة وهى الجهة التى تسمى ارغن . وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (مجريط ؟) ووبذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهى سمورة وشلمنكة والسبطاط وقامرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبيوج وتسمى هذه الجهة لبون . وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر ما يملكه المسامون لعهد من الاندلس فاورد حصن بنشكة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لركة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وفوتم الفلقشندي الاندلس فى المئة الثامنة فقال ان الاندلس أقامت بأيدي المسلمين الى رأس الستمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض ثلاثة أيام فى طول عشرة أيام وباقي الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمى على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه النفس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها . الثانى صاحب لشبونة

وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي وهي تشتمل على لشبونة وغرب الاندلس . الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهي بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال للملكها ملك البشكنس .

هذا في الجملة تقويم الاندلس في القديم وكلما توغلت في سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المسافات وهي اليوم في الخطوط الحديدية سهلة في الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط في ست وعشرين ساعة وهي ١٤٥٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأني اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس

٩٠

لما فتح موسى بن نصير مولى بني أمية أفريقية وما حولها أي تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه في تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف في أربع مائة رجل ومعهم مائة فارس فصار في أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ،

فاغار على الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالماً وذلك سنة احدى وتسعين . ثم دعا موسى مولى له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين ، جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل . فدخل في تلك السفن الاربع في سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيول وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافي جميع أصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة . كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافي المسلمون بالاندلس عند طارق اثني عشر ألفاً ومعهم يليان في جماعة من أهل البلد يدلمهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهمزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة ، وحارب فل العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق ، وفرق جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى رية ، وثالثة الى غرناطة ، وسار هو في عظم الناس يريد طليطلة . ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير ، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ، ومنهم من هرب الى جليقية في الشمال . ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة ، وخلي بها رجالاً من أصحابه ، فسلك الى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسعى فج طارق . وفي سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنع طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بني أمية . فلم يلبث ان فتح من المدن ما لم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة واشبيلية وحاصر هذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينة ماردة وقاتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين

وأموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .
ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج . ولم يبق لاهل
الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة
وصخرة جليقية . فاما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلقوا
بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون
على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين
من جليقية وهي فشتالية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك أن قرب سواحلها
من شواطئ أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق
كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدو (١) وبر الاندلس قريب جداً يسهل
معه نقل الدخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة
طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلا في الغرب الأقصى وعرضه
اثنا عشر ميلاً ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلاً .
والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فريضة
الغرب الأقصى في نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس
في مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الاندلس
وبين أهل شمال أفريقيا وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أي الغرب
الأقصى والأوسط . قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن
يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ، ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها :

(١) العدو بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدو على ما سامت الاندلس من شمال
افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدو المغرب الأقصى والأوسط والأدنى أي مراكش والجزائر
وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدو بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوي
عن قاسم بن اصبح قيده الرشاطي . ولعل العدو هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة
والمشهورة ان العدو كما قلنا وايده علماء الجغرافيا من العرب .

فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر. واذا صح ان الملك الاعظم في طليطلة جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثني عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا في الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامر من حكوماتهم ومواطنهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر رد- لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقمهم بالعتاخين. وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم. ثقة في ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم في الاندلس.

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية في الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرهم خطب مدة قليلة للعباسيين^(١) بعد سقوط دولة الأمويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هارباً عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسعى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالي آل مروان وبماله من العصبية في قبائل زناتة أخواله. وكانت والدته منهم حتى استولى على الاندلس، وبذل أهلها له الطاعة، فأصلح من شأنها ورفع وأبناءؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت القلوب على حبهم وفل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية نفسه عند استغلاط امره واستيلائه على دار الامارة فرطبة ويقال انه اقام شهراً دون السنة يدعو لاني جعفر المصور: نقيلاً في ذلك يوسف الفهرى التولى فيه الى ان افرغ نفسه بالدعاء. ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند حلوته اليه فقبله الا انه لم يبعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته في ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذي تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعى بأمير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطاتهم بالمشرق وذلك في آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المتغصن منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان وورخ الاندلس.

سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسي عند ما لقب عبد الرحمن الأموي بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجيباً مفرداً ، فصر الأعداء وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام سلطاناً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيته »

انقرض ملك بني مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعد ان جمعوا الشمل ، ورأوا الصدع . وأحيوا المعالم ونشروا العدل ، وخدموا الحضارة . وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بأيدي ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيده فضبط اشراف الممالك أزمة أمورهم . وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا في انتحال الالقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة » الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين الامتوني صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه علي بن يوسف سالف انضارتها ، ودعا للحلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة في بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التي جاءت بها دولة المرابطين لشد ازور المسلمين في الاندلس . كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة اخوانهم في الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنييه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « وأوصيكم بالايام واليتيمة » أراد بالايام أهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس ، الا أن أحوال الجزيرة اختلفت في أواخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم . وميلهم الى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو . واستولى النصاري على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بني أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بني مرين من بر العدو فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ في جيش ضخم فملك

بالاندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب ^(١) سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم في القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً ما يؤدى ملوك العرب الجزية الا لفرنج بعد ان كان هؤلاء في القرن الأول والثاني والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما أغاظ ابن تاشفين لا لفونس الكلام في المكاتبه قال هذا : « بمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبى نفرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت في حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفي أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندي يرثي الاندلس ويستصرخ أهل العدو من بنى مرين قصيدته المشهورة التي يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له هوى له أحد وانهد شهان
أصابها العين في الاسلام فامتحننت حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشان مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هي المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa وهي قرية من عمل ولاية يان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل في بلاد اسبانيا

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدو فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الأحمر أو بنى نصر فى بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الأحمر على قوتهم فى حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الأسباني على إخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق إيزبيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك أرغون وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الأندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمارة الأندلس

٩٢

ولا يفارق فيها القلب سراء	فى أرض أندلس تلتذ نعاء
ولا تقوم بحق الانس صهباء	وليس فى غيرها بالعيش منتفع
على الشهادة ازواج وابناء	وان يعدل عن أرض يحض بها
على المدامة امواه وافياء	واين يعدل عن أرض تحت بها
وكل روض بها فى الوشى صنعاء	وكيف لا يهيج الا بصار رؤيتها
والخز روضتها والدر حصباء	انارها فضة والمسك تربتها
من لا يرق وتبدو منه اهواء	وللهواء بها لطف يرق به
ولا انتشار لآلى الطل انداء	ليس النسيم الذى يهفوها سحرأ
فى ماء ورد قطابت منه ارجاء	وانما أرج الند استثار بها
وكيف يحوى الذى حازته احصاء	واين يبلغ منها ما أصنفه
فريدة وتولى ميزها الماء	قدميزت من جهات الارض حين بدت

دارت عليها نطاقا ابجر خفقت وجدأ بها أوتبتت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللأغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهى الرياض وكل الارض صحراء
« ابن سفر المرينى »

كانت شبه جزيرة اسبانيا فى عمراتها قبل الفتح العربى من محطة عن عامة الممالك
الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنيانا ، واقام فى المعمور عمرانا .
ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر ، فلما جاء العرب الفاتحون فى العقد الاخير من
المئة الاولى . كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم فى الشام ،
فما التفتوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من
دمشق عبد الرحمن الداخل الاموى سنة ١٣٨ هـ نقل مع جماعته أسلوب أمته
فى العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم
وأصول معاشهم ، فاعتمدوا فى بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية
فى الغالب . وجعلوا فى الدور فناء أو صحناً فى وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الارهار
والاشجار ، وتقوم بعض طيوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام
وغيرد ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية لاصيف والطبقة العلوية لاشتاء ويدخل
الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادىء بدء مهندسون من الروم
ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم فى الشام .

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقل
فيهم كالايبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا فى النقش . واقدم مصانعهم
مسجد قرطبة ، انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من
عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت فى المساجد والبيع والقصور
والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المباني مسجد طليطلة مثال
الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب .
ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الأحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء

وظهرت بدائعه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التي تفتقت
أكمها بأيدي العرب . وظل صناع العرب في اسبانيا قرونًا بعد ذهاب دولتهم
يعملون في المصانع الاسبانية ويدخلون في هندستها بعض أساليبهم فاثروا بها
تأثيراً عظيماً في المعاهد المبنية على الأسلوب الفوطي والايطالي (الرئيسانس) .
ولقد كان للملك الاندلس وامرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم
والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال نخامة الملك . وتشيد القصور . وجلب المياه
وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى
آل بيته وعظما مملكته ، على قدمه في هذا الشأن . ومنهم عبد الرحمن بن الحكم
(٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل . وترتيب
الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور . وجلب اليها المياه ، وبنى
الرصيف ، وعمل عليه السقائف . وبنى المساجد الجوامع بالاندلس . وعمل السقاية
على الرصيف ، وأحدث الطرز . واستبسط عملها ، وأخذ السكة بقرطبة ، ونغم
ملكه . وفي أيامه دخل الاندلس تقيس الوطاوغرائب الاشياء . ومنهم عبد الرحمن
ابن محمد الذي قال فيه صاحب العقدة : « ان الملوك لم تزل تبني على أقدارها ويقضى
عليها بآثارها وانه بنى في المدة القليلة . ما لم تبني الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم لم
يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده . ومما أوليته ، بنية الاوله فيها أثر
محدث ، أما تزويد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً في العمران حتى كان للقرى أيضاً نصيب وافر من
العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادي الكبير فقط أربعة عشر
ألف قرية فسكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد
تنقطع من العمارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحاري فيها معدومة ، أي
في القسم الذي تأصل فيه حكم العرب . ومما اختصت به ان قراها في نهاية من
الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلاثين العيون عنها بل هي طراز
من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تحطف بالابصار عند وقوع شعاع
الشمس عليها .

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدريين زبرجد مكنون
قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ، ولما ابتنى
عبد الرحمن بن محمد في غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الاسواق وابتنى
الحمامات والخانات ، والقصور والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر
مناديه بالنداء ، الا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله
أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل
الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً منه الحمرى
والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالهم على
الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبى فرنسا
وايطاليا ومن أفريقية والاسطانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس . أو جلبت
من القاصية ، فان فى ذلك فضلاً كبيراً للعرب : يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة ،
وقدرتهم على حمل هذه الاثقال فى البر والبحر . مع قلة الآلات الرافعة . وقصور
علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا

قال أحد الباحثين من الفرنجة : فى اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية
المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادية بديء بادية عليها الى أن ظهرت فى مظهرها
هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت
جهدها فى قصور الحمراء ، وأتت ماوسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ بمجامع
القلوب فى العمران : ولولم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص فى البناء ، وهما
مما تقل متانته ، لانت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش
غريب يمجّد خيمة العرب الرحل فى البادية . ومن أغرب ما اصطنعوه عمل المقرنص
فى القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة : بدون أن ترى اللحمه بينها ،
والنقش فيها قليل الا ما كان من جل نقش بالحروف الكوفية أو العربية
المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التي بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدى صناع من العرب . أبقوا عليهم لقيام مصانعهم . وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين في الهندسة والصنائع النفيسة . وأهم ما يتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه في كل بيت وكنيسة . وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه ما يجعل على الأرض ، ومنه ما يجعل على طول فامة الانسان في الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم في البناء . وقد يدم فروناً كما شاهدنا ذلك في خرائب القسطنطينية بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للمهجرة

يصعب تعداد المصانع التي شاهدناها العرب في أوقات مختلفة . في الاصناف التي نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالهم ، لان كثيراً من نهبان الاندلس عوررتداول الايام . فمسح في مدينتها ودساكرها قول أحد الاندلسيين في بلنسية وقد عاث العدو فيها

حانت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والمار
فاذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تفاذت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرايبها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٩٣

كان الجيش الذي فتح الاندلس بادىء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مارحل عنه أهله من المزارع والمداشر . وقد فرق الحسام

ابن ضرار الذي ولى اماره الاندلس في سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد ، وأبعدهم عن دار الأماره قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أى السابقين الى الاندلس . في سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة . والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ . أنزلهم على شبه منازلهم في كور شامهم ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل في كورتى اكشونة وباجة جند مصر مع البلديين الأول ، وأنزل باقيهم في كورة تدمير وأنزل في كورتى لبلة واشيلية جند حمص مع الأول أيضاً . وأنزل في كورتى شذونة والجزيرة جند فلسطين وأنزل في كورة رية جند الاردن . وأنزل في كورة البيرة جند دمشق ، وأنزل في كورة حيان جند قنسرين أى حلب ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من المعجم طعمة . وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب : أنزلوا القبائل الشامية في كور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا . وكبروا وتمولوا ، الامس كان نزل منهم لاول قدومه موضعاً رخياً ، فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل في البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلبهم قيس وافنا : قبائل العرب . ونزل رية جند الاردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار قنيسير . ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل . ونزل في حيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا في بلاد الاندلس على ما رأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم في بودقة واحدة . قال هوار : ولما أصبح عبد الرحمن ملكاً على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ - ٩٣٢) استنداقاً لطبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين

على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت في الشرق باسم الاندلس .

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « في غمار من الروم يعالجون فلاحه الارض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم . أولو حنكة ودهاء ومدارة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين ، وهبأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم . فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب . وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لاول الامر في مناحيهم وعاداتهم : شأن المغلوب مع الغالب : قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرد من الدم الافريقي فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل في اسبانيا . ومزج الدم الاسباني بالدم العربي هو ولا شك من جملة الاسباب التي تحمل بالاسبان على اختلاف أصقاعهم الى الطموح الى العظام ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف في الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج . روى المقرئ : ان بنى الاحمر كثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة « في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم . حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء ، فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء في أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب تقلدهم في أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، ونفسح المجال لكل ما ينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية ، سنة الله في الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة Lesmozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية في الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا في

الادوار التي كانوا يكيّدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدو « عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » ، على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا في النادر لان العرب كانوا يحرسون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساء لنا أن نقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة النفس : أهل الاندلس عرب في الانساب والعزة والالفة وعلو الهمة . وفساحة اللسان ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم ، وقلة احتمال الدل . والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخسوع واتيان الدنية هندیون في أفراط عنايتهم بالعلوم . وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم . بغداديون في نظافتهم وظرفهم . ورقة أخلافهم ونباهتهم وذكائهم . وحسن نظرهم ، وجودة قرائنهم . ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم . وتفوذ سواطهم . يونانيون في استباطهم لأميائه . ومعاناتهم لضروب الفراسات . واختيارهم لاجناس الفواكه وتدييرهم لتكوين الشجر وتحسينهم للنباتين بأنواع الخضر . وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس لاسباب الملاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب . في تجويد الاعمال . ومقاساة النصب في تحسين الصنائع . وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطمع والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس صينيون في اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركبون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها . والنظر في مهماتها . وقال ابن بسام : في جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيها بكل اقليم . على عرق كريم .

تسامح العرب

٩٤

العرب من أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم أيام عزهم بالاسلام، لم تبقى بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضى بالرفق والرحمة، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً إذا كانوا أصحاب دين سماوى. ولذلك اكتفوا من أهل الاندلس بجزية^(١) وتركوا لهم حريتهم. فأعجب بهم مخالفوهم، لانهم حملوا اليهم سلاماً، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً، تأتي على الأنفس والمفائس. وتلك معالم الامن والامان.

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزولوا بينهم من الاسبانين والبرتغاليين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحي من الجند، يعطى الحق غالباً للمسيحي. وجعلوا

(١) هذا كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غيدوش (غيدوس) الذى سميت باسمه تدمير اذ كان ملكاً ونسخة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غيدوش انه برل على الصلح وان له عهد الله ودمته ودمه صلي الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ولا يرع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا يرع عن ملكه ما تعبد واصح وادى الذى اشترطوا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريواله وبلنتنة وافنت وموله وبقره وايه ولورقة وانه لا يؤوى لنا آذناً ولا يؤوى لنا عدواً ولا يحجب لنا آمناً، ولا يكنم خبر عدو علمه، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قح وأربعة أمداد شعير وأربعة أفساط طلا (شراب من العنب غير محمر وهو أشبه بالصليب في بلاد الشام) وأربعة أفساط خل وقسطى عسل وقسطى زيت، وعلى العهد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبى عتبة الفرثي وحبيب بن أبى عبيدة . . . ابن ميسرة العمى وأبو قائم الهذلى وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .

ايام الآحاد أيام عطلة ، بدل الجمع . و رخصوا ان يتعبد كل انسان على الصورة التي يراها . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، حتى لم يكذب يشعر هذا الا في النادر و باغراء رجال الدين ، انه مغلوب على أمره ، فاقد لاستقلاله ، واعتمد الامويون في أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقابي من فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تمصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) . وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن أثر التسامح . شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب . بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ، لان هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية ، ونشأ لهم غرام بالعربية . فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون بأشعارها ، ويكتبون فيها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكاء الجلالة والقشتاليين والليونيين والنافاريين : دع من كانوا في البلاد التي فتحها العرب من المسيحيين ، يتعاملون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي أو أحد رجاله يستخدمون في الادارات ، وتجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون بأشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى بأزيائهم وألبستهم وعاداتهم ، في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا في الاندلس الملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً فاسلم^(١) والمسلمون لا يضمنون بشيء على أهل ذمتهم يجرؤون عليهم

(١) راجع نبذة في امتزاج العرب بالمعم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالفاظ في كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطانتهم وأهل نخلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ،
وينتدبونهم في سفاراتهم . ويطلعونهم على أسرارهم ، ويأمنون الاطباء منهم
على أرواحهم وحرمةهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتغاليات اللاتي كن بجمالهن . أجل
صلة لتمام زيج الفاتحين بخصوصهم ، والتحام القرابات بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين
على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف . أمسوا يتزوجون من بنات الامراء
المسلمين ، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية . وعقد مثل
هذا الزواج كثيراً . وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتغاليات بالمسلمين
وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتغاليين آخر أيام الاندلس كثيراً
جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج
وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١)
وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون
بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان
والبرتغاليين . أما معاملتهم للاسرائيليين فكانت أيضاً مما يدهش له ، فأصبح لهؤلاء
في الاندلس منزلة سامية في العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة في القرن
العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتغالية والعربية على السواء وأخذوا
بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو ألفي صك
من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ، والعربية
كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية . هجر ما عداها في جميع الممالك . فصار
استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم وألسنتهم
في جميع الامصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين . وصار اللسان العربي

لسانهم . حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم . وصارت الالسنه المعجمية دخيلة فيها . وغريبة عنها ، فآله ابن خلدون :

ولدا آئت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما إليها من الاصقاع واصطرت الحكومات الصغرى الى اعتصمت فى أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها ، وهم أرقى منها نظاما ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذلك العهد تطلب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها . حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذى أشبه ملكا من ملوك هذا العصر لا بنقاد لا وهام العنصر والدين ، ولا يوقف فى أمر فيه مصلحة ، وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر الى ملك ايطاليا الى امبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والامان تتوارد على فرطلة . وقد وضع هذا الخليفة حدا للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر فى الاندلس ، وحصن حدود مملكته من ملوك لبون وقشنة ونافار واستولى باسطوله على غربى البحر المتوسط . وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين^(١) العلوم والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد اصمحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة مآلته دائرة المعارف الاسلامية .

لا جرم أن خلفاء الاندلس كانوا من النسامح مع الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ، ويجب التنويه به . لانه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الامم الاخرى . فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيعون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبأخت الحال ببعض المتحمسين منهم . ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع لينسقلوا المسلمين بالدعوة الى دينهم ، وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل نفوذ مولاة لتشييط الآداب والعلوم فأغدق نعمة على مرجيل وهوراس وروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات فى السنة الثامنة قبل المسيح .

مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع طادية التعصب
الاسباني إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا في سبيل
دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم . ولكن الخليفة مات قبل التمام هذا
المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتبايهم
يوسعون المجال لاقلامهم وألسنتهم ، حتى في أعمال الخلفاء ، ولا يحدون منهم
إلا لطماً وعطفاً ، ذلك ان الناصر كان كلفاً بعمارة الارض . وإقامة معالمها . وتكثير
مياهاها ، واسجلايها من أبعد بقاعها . وتحاييد الآثار الدالة على قوة ملكه ،
وعزة سلطانه . وعلو همته ، فانه لما انتهى الزهراء . واستفرغ وسعه في تنجيدها
واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها . انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد
الجامع ، فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام
جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريم آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا
الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون . انى أخاف عليكم
عذاب يوم عظيم) ثم أفضى الى ذكر المشيد . والاستغراق في زخرفته ، والسرف
في الاتفاق عليه . فخرى في ذلك طلقاً ، ونلافيه قوله تعالى (أقن أسس بنيانه
على تقوى من الله ورضوان خير . أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ،
فانهار به في نار جهنم . والله لا يهدي القوم الظالمين ، لا يرال بنيانهم الذي بنوا
ريبة في قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب في ترويع
الخليفة وتقريعه ، ولم يحسن السياسة في وعظه . فاستشاط الخليفة غضباً ، واقسم
أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما الذي يمنعك عن عزل
منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه واتهره وقال : أمثل منذر بن سعيد
في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ، ناكبة عن الرشـد .
مثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين في الاندلس ، فحق ابن

الملك وهم بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلتني لا كونن أنا المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليا بس ثيابه ، رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقة من الملك يقول فيها : ان الذى أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لا تشمر ، قادر ان يرسل اليك من يقتلك فكف غرب لسانك عنا وإذا عدت فأرخت ثانياً لا تشنع علينا أعمالنا . قال دوزى اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب فى الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افرقيبين لا يخلون من شى . من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشىء . وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التى أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها وخبرها لولا أن قام الملوك من بنى نصر فى غرناطة ، ورأبوا الصدع . وجبروا الكسر . وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم . زادت الرقعة الباقية ارتقاء ، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم الى بلاد يرفرف عليها عامهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريهم . وهممة فى تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التى حصنوها بالعدل والاحسان

العرب والاسبان

٩٥

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس ^(١) بحروب دينية فى القرن الخامس لتعذر على

(١) كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من أيدي الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوندي سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من رحد بلاد غاليا (فرنسا) فى دينها وسياستها .

المسلمين فتح اسبانيا . ونحن نقول لو لم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموي مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قرونًا عن الظهور في ربوع أوربا^(١) وقد أجمع المنصفون أن العرب لو لم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هي بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقدرأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم . وأكملت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الدينى . أن تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا في القرن الخامس عشر تنتقل منها الى أوربا بأسرها .

وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما في القسم الجنوبي منها أنه في بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية . ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية . وبعض عاداتهم وطبائهم تم عن روح عربية على سعى رجال الدين في نزعها من بينهم ، منذ استعاد اسبانيا أرض الاندلس أواخر المئة التاسعة . لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تنزع من القوم ما تأصل فيهم في ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب .

ذكر بعضهم أن في الاندلس أهم آثار اسبانيا . والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البروفانس في جنوبى فرنسا وصقلية من ايطاليا . وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والخرائب المبعثرة في طول اسبانيا وعرضها ؛ ولهجة الاندلس ماثلة الى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الاساليب العربية .
نعم لا تزال تسمع في اللغة الاسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات . وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هي عربية لا محالة ، ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادى فدخلت مئات من الألفاظ في اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت

(١) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جبب قال موسليم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة فى الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التى بزغت فى أوربا منذ القرن الماشر فصاعداً .

البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية ، وهى ظاهرة كل الظهور فى اللغة الاسبانية وأقل منها فى اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادى الرامة ووادى الحجارة ووادى القنال ووادى البياضة ووادى الكبير وقاعة وقلعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنازة والربض والمسجد والرابع والشمسية والفندق والحراب ومئات غيرها أفردھا علماء اللغة منهم بالتأليف .

أخذ الاسبان عن العرب أشياء ظنوها بعد من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم . وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثنى الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطلع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية فى القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسبانى ويرى الرقص الاسبانى انها عربية الا قليلاً بحيث ساغ لنا أن نقول اذا كان الروسى شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسبانى عربى شرقى « تأورب » واستغرب أيضاً

ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابيين من الاسبانيين يدعون ان أصلهم عربى يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغنى بذكرى القديم الجليل . وقد رأينا الاسبانيين فى القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها لبحث عن ماضيهم أو ماضى اسبانيا الاسلامية وصرفوا فى ذلك وقتاً ومالاً وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم .

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان فى الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقى والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لى الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية

في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه :
جمع أكثر هذه الخزانة أستاذي ريبيرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزرات
« الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس
وقد استنسخها البرنس ليوني كايثاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير
ليطبعها في مجلة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت في بلدي وجئت مجريط
لأعمل مع أستاذي أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضمنت مجموعتي الى
مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لي بكتبه على أن أشتغل
بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى
فيه الكفاءة للعمل بعدى أو أجعلها في إحدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osuma ناظر مالية
اسبانيا سابقاً وهي من الفسيفساء والقيشاني الاسباني والسلاح والرخام والسجاد
والادوات والالوانى الفضية والزمردية والالوانى الخزفية والبلورية والالبسة
والمقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والمقود العربية والاسبانية ذهبية وفضية
ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية في القرون الوسطى هذا
عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد
بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشرف اسبانيا
منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغالى
بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة أوصت بالقسم الذى جمعته
في حياتها والذي ورثته عن أبيها لزوجها السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة
كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان

Justituto de Valencia de Don
المجموعة ما جمعه في حياته ويجعله في دارين بناهما في أهم أحياء مجريط Juan
الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الاندلسي والثانية على الطراز المسيحي
في القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التي تناسبها

فأصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً راقياً بمعرفة صاحبها الآن وإشارة من يختلف إلى داره من غلاة العاديات والآثار وحمة العلوم والفنون الذين يضمهم في ناديه مرة في الأسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً بمجموعة البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار إليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألفي مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون في اسبانيا وقد توخى في وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم في اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة في مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها في صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها . هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام في أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبة ولعدت في اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تزج ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التي يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم في الاندلس

٩٦

قال لنا الدكتور روزيه^(١) رئيس جامعة لوزان في سويسرا سابقاً اننى طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ،

(١) من محاضرة « العرب في الاندلس » القاها في النادي العربي بدمشق مساء ٢ حزيران ١٩١٩

ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية ، فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفصل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدينة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم في القرون الوسطى . ولحسن الحظ لم يقو التعصب الدينى الذى ذك كثيرا من المعالم فى أرض أندلس على نفس هذه السكور على وادى الأحمر وغيرها والا لهلك أهل ذاك الاقليم عطشاً ، ومن الاسف ان مدينة هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها . فقبح من قضوا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذنتنا منذ فاوينا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا بهاء عهد الاندلس وعهد عمرانه الزاهر . وارتقائه الباهر . ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبه الغربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ، ولكنها شرقية عربية مساهمة باقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها ، وقلنا اننا معاشر العرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقيد علوم ديننا ولساننا وما الى ذلك . لم تكن فى العناية بالعلوم التى هى اليوم العلوم الحقيقية كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير . والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور . ولما أعجب الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا . بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث الثقات ان الغربيين من المجاورين للاندلس كالفرنجة أى الفرنسيس والالمان وسكان برومية أى الطليان وكانوا أمثال الافرنج مدنية لذاك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم عرب الاندلس فى العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوربا زمناً طويلاً .

ولذلك كانت الاندلس فى عهد العرب كعبة العلم يحج اليها أذكاء الطلاب من فرنسا وايطاليا وغيرها كما يحج اليوم طلاب العلم الى كليات فرنسا والمانيا وانكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندا

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس وترجموها باللاتينية ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط ^(١) . وأن العلوم التي تلقاها جربرت الذي أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثاني عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أنهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ هـ خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ، إلا إنه يوجد فيها طلبات قديمة في مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بما سكتهم . ولما استقر الامر لبنى أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفي أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبدالرحمن أي في أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزلوا يظهرون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة . ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس . ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه . فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد في العلوم الاخرية . فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها . ولكن أكثر ملوك بنى أمية ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم في النيل ممن يريدون الايقاع بهم . لمخالفتهم لهم في العلوم التي يمتنون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلمسى المعروف بصاحب القبلة كان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب وغير ذلك ، متصرفاً في العلوم . متفنناً في ضروب المعارف ، وكان معتزلي المذهب . توفي سنة ٣١٥ وممنهم محمد بن اسمعيل المعروف بالحكيم وكان عالماً بالحساب والمنطق نحويّاً لغويّاً توفي سنة ٣٣١

انتدب الامير الحكم في أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة الى العناية

(١) راجع ما كتبه هوار في تاريخ العرب في أسماء نقله الافرنج في العلوم عند العرب وما كتبه بالينو في كتابه علم الملك عند العرب المطبوع في رومية .

بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار الشرق عيود التواليف الجلية في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة . فكثرت تحرك الناس في أيامه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الحاكمة لاكتتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج ما فيها من ضروب التاليف بمحض خواس من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج ما في جماتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر باحراق ما عدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها . وطرح بعضها في آبار القصر . وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغيير . فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس ونقيباً لمذهب الخليفة الحكم عندهم . اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم . وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة . ومظنوناً به الاحاد في الشريعة . فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك . وانضمحت نفوسهم . وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم . ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية من الاندلس . قال هذا القاضي صاعد وتأييده رواية ابن سعيد في المغرب قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء . الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا ينظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه . فان زل في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فاما ما في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف ججدها لما رأى من انحراف منصور بن عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم باشبيلية وهو علم محقوت بالانداس لا يستطيع صاحبه اظهاره ، وكان مطرف الاشبيلي قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ، الا أن أهل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن ، فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من المتكمن في علوم القراءات والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء . واسع العطن ، متناهي الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم في رسالته هذه من نبغ في الاندلس من المؤلفين في علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فاني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً ومؤلفات لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف في الازياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمع ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر . وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية . وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليه تنتسب الالحان المطربة بالانداس التي عليها الاعتماد ، وليحيي الخلدج كتاب الاغاني الاندلسية على منزع الاغاني لابي الفرج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد : ولما افترق الملك في صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس ، واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع . فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفق قيمة ، انتشرت

تلك الكتب بأقطار الاندلس ، ووجد في خلالها اطلاق من العلوم القديمة ، كانت أفانت من أيدي الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها ، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ، ثم أبيحت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفي غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فن اعلام هذه العلوم على ذاك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضي كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم الهندسة . وعبد الله ابن محمد المعروف بالسري كان عالماً بالعدد والهندسة وكان ينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً في العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك في أيام الحكم . وعبد الرحمن ابن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدي كان متقدماً في علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبي (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد ابن محمد العدوي كان معلماً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد ابن فتحون بن مكرم المعروف بالخمّار السرقسطي كان محققاً اماماً في علم النحو واللغة ، وله تأليف في الموسيقى ورسائل في الفلسفة . وأبو القاسم مسامة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان امام الرياضيين في الاندلس في وقته ، واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ، وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن في تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيح البتاني ، وعنى بزيح محمد بن موسى الخوارزمي . وصرف تاريخه الفارسي الى التاريخ العربي ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفي في سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، فن أشهرهم ابن السمع وابن الصفار والزهرراوي والكرماني وابن خلدون فاما ابن السمع القاسم أصبغ بن محمد بن السمع المهندس فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وكانت له مع

ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة في الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ، ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققاً أيضاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الاسطرلاب ، لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنماً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعدد والهندسة معنياً بعلم الطب . وأما الكرماني فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، رحل الى الشرق وانتهى الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان النفا . ولم يدخلها أحد من أهل الاندلس قبله ، ومحلّه من العلوم النظرية المحل الذي لا يجارى فيه ، توفى بسرقة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي من اشراف أهل اشيلية في علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة في اصلاح أخلاقه ، وتعديل سيرته . وتقويم سياسته ، توفى سنة ٤٤٩

ومن مشاهير نلاميذ أبي القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر والقريشي والامطش المرواني وابن العطار قاما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بآثار علم الافلاك وهيئاتها وحركات الكواكب وارضادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو . ومعرفة القرآن والفقه والوثائق . واشراف حسن على سائر العلوم . توفى سنة ٤٤٤ وأما الواسطي فهو أبو الاصبغ عيسى بن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك . وله أيضاً بصر بمعمل من علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعيني كان بصيراً بالهندسة في النجوم متقدماً في اللغة والنحو والحديث والفقه

شاعراً متكلماً ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمع أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشيء وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المنطبيب ومن نظراء هذه الطبقة عبد الله ابن أحمد السرقسطي كان نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لنعاجم ذلك في بلده توفي سنة ٤٤٨ . ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان والاسان والمساءلة متفنناً في ضروب المعارف صنعا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي فاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققاً بعلم العدد والهندسة مغنياً بعلم حركات الكواكب وارصادها وكان مع هذا بصيراً بالنجوم واللغة والفقه توفي سنة ٤٠٥ . وأما ابن حي فهو الحسن بن محمد النجيبى من أهل قرطبة كان بصيراً بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند همد وخرج من الاندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل الى اليمن واتصل بأمرها المسبحى وكان ملكه اذذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظى عنده وتوفي سنة ٤٥٦ . وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المنحققين بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعى .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد السكمانى المعروف بابن الوقشى من أهل طليطلة أحد المتفنيين فى العلوم المتوسعين فى ضروب المعارف من أهل المكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ فى علم النحو واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو

مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيع من أهل طليطلة أحد المعتبرين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضي أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبي اسحق ابراهيم بن لب التجيبي المعروف بالقويدس قعد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم ونقود في العربية توفى سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طلحس الوزير كان كاتباً كاملاً الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ في علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفى سنة ٤٤٨

وكان في القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث في الاندلس مشغولون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهم رقيقة فممنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن علي بن خلف بن أحر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجبي وأبو جعفر أحمد ابن يوسف التهلاكي وعيسى بن أحمد بن العالم و ابراهيم بن سعيد السهيلي الاضطرابي . ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد ابن جوشن . ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد .

وأبرع هؤلاء في الهندسة علي بن أحر الصيدلاني وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلامهم بحركات النجوم وهيئة الافلاك أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيا — والزرقيا نسبة لآلة سموها الزرقلة وهي صحيفة لرصد الكواكب — فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها وأعلامهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد ابن يوسف يعرف بابن كماد (حماد ؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط علي ارصاد أبي اسحق الطليطلي المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأسيير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضى منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعي والعلم الالهي . وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليدس الاندلسي متقدما

في علم الهندسة معتنيا بصناعة المنطق . وموسى بن ميمون الاسرائيلي الاندلسي
قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ
المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره
في مصره وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين
قال القفطى الا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية
استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته في سنة ٥٣٣
ومن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلاسفة أبو محمد بن حزم
القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي طاهر ووزر لابنه
المظفر وكان ابنه أبو محمد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذه هذه
الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم
أبو الحسن علي بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق
عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متى بن يونس وهو بعد
هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله في اللغة توالييف جليلة
منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨
ومن أعاجيب النوابع الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم
ابن الحناط الكفيف الذي قال فيه ابن حيازانة كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية
والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ،
ماهرأ في العربية واللغة والآداب الاسلامية ، وسائر التعاليم الاوالمية . ولد
أعشى ضعيف البصر ، متوقد الخاطر . فقرأ كثيراً في حال عشا ، ثم طغى نور عينيه
بالكلية فازداد براعة ونظر في الطب بعد ذلك فأنجح علاجاً وكان ابنه يصف له
مياه الناس المستفتين عنده فيهدى منها الى مالا يهتدى البصير ولا يخطئ الصواب
في فتواه ببراعة الاستنباط ، وتطبيب عنده الاعيان والملوك والخاصة فاعترف
له بمنافع جسيمة .

وأما العلم الطبيعي والعلم الألهى فلم يعن أحد من أهل الاندلس بهما كبير

عناية ومن المشتغين بهما ابن النباش التيجاني وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفصل بن حسداى الاسرائيلى . وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق بأحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالاندلس أحمد ابن اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحراني ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقدة وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلاً . دقيق النظر . بصيراً بالمنطق . مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد بن تميم وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى كان عالماً بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك النقي كان عالماً بالطب والهندسة وكان الطب أغاب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحمد الحراني . ومنهم محمد بن عبدون الجبلى وكان قبل ان يتطب مؤدباً فى الحساب والهندسة ومنهم سايان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبد الله ابن اسحق المعروف بابن الشناعة المساماني الاسرائيلى وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى المظفر وكان بصيراً بالطب منقداً فيه ذاحظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠

ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصارى من أهل بانسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لا يجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونش عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن اللخمي غنى عناية باللغة بقراءة كتب جالينوس وارسطوطاليس وغيرهما من الفلاسفة وتتمهر فى علوم الادوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدوس

وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة وكان له في الطب منزع لطيف ، وذلك أنه لا يرى النداوى بالأدوية ما أمكن النداوى بالأغذية أو ما كان قريباً منها . فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى النداوى بمركبها ، ما وصل الى النداوى بمفردها ، فان اضطر الى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه . ومنهم أبو مروان بن زهر الاشبيلي وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهب وأبو عبد الله محمد البجائي المعروف بابن البياض معني بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي ومشاركة في الاهلي وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق . وممن عني بطلب الفاسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع البدن متصرفاً في ضروب من الاعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافذة بالاندلس وديماً وحديثاً فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر بجي بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجى أحد المتحققين بعلم الاحكام والمشرفين على كتب الاوائل والاواخر وله في التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يقدمه أحد اليها . ومن المذكورين أبو الاصبع عثمان الفري من أهل قرطبة وكان عامه الذي ينسب اليه ويغلب عليه التيجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمى من أهل طليطلة رحل الى قرطبة فاقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه في ذلك فقيهاً عالماً متفناً وله في الملاحة مجرع مفيد وكان عارفاً بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أباً للعلاء بن زهر باشبىاية وأخذ عنه علمه وبرع في الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الاطباء بالاندلس جواد الطبيب النصراني كان في أيام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وله اللعوق المنسوب الى جواد وله دواء الراهب والشرابات

والسفوفات . وكان خالد بن يزيد بن رومان النصراني بقرطبة صانعاً بيده علماً بالادوية الشجارية وابن ملوكة النصراني كان في أيام الامير عبيد الله وأول دولة الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد العروق وكان على بابه ثلاثون كرسيّاً لقعود الناس وعمران بن أبي عمرو واسحق الطبيب المسيحي كان مقبلاً بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصرو ابن أم المؤمنين وأبو بكر احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفي كان أديباً عالماً بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولي وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم والرميلي كان بالمرية في أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله ومنجم بن الفوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدماً في صناعة الطب متصرفاً في علم المنطق وسائر علوم الفلاسفة ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب مشاركاً في علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم في اللغة العبرانية وبراعة في فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداى بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً في علم شريعتهم وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون في فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنينهم فلما اتصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تأليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداى من ساكني مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالاندلس غنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فاحكم علم

لسان العرب ونال حظاً جزيلاً من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضاً بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر في الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية في الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاصلاً في معرفة الادوية المردة وكان أبو جعفر الغافقى والشرىف محمد بن محمد الحسنى وخاف بن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس في صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وكان أوحده فى العلم الرياضى متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللاب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان فى العلوم الحكمية علامة وقته متميزاً فى العربية والادب والطب متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللاب بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان فى أقاويله وفى حسن فهمه لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيى الدين ابن عربى صاحب الفتوحات دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية فى علوم الاوائل والطب وأبو مروان ابن أبى العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزاً فى العلوم ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد ابن أبى بكر بن زهر وأبو جعفر بن هارون الترجالى من أعيان اشبيلية وكان

محققا للعلوم الحكمية متقنا لها معنئياً بكتب ارسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلا في صناعة الطب عالما بصناعة الكحل ؛ وأبو الحجاج يوسف ابن موراطير من شرق الاندلس وموراطير قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعية أديبا شاعرا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبال وأبو اسحق ابراهيم الداني وكان أمين البهارستان وطيبه بالخرقة وكذلك ولداه وأبو يحيى بن قاسم الاشبيلي كان صاحب خزانة الاشربة والمعائن التي يأخذها الخليفة المنصور من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر احمد بن حسان وأبو العلاء بن أبي جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذوني وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبد العزيز ابن مسامة الباجي وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري وابن الحلاء المرسى وأبو اسحق بن طملوس من حزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبي وأبو العباس بن رومية النياتي العشاب وأبو العباس الكنبنازي وابن الاصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعرا أوفقها وحديثا وقرأت أو فلسفة ومنطقا أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الديني في الاندلس ذلك القطر الذي اليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة الى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والاطليان والالمان والفرنسيين وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الاندلس عالما مفتنا مكرما للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفنيين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من

الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبئه عايتهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نبهه الى أبي الوليد محمد بن رشد . وأشار اليه بتلخيص كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من قاق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين في هذه العلوم أبو علي الصعاعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين : وكان فقيها اماما في علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنهلاء قائما على الاطلاع والرخائم والآلات الشعاعية ماهرا في التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتوايف نسيج وحده ورجعة وقته ، ومثل أبي جعفر أحمد بن حسن بن باضة السامى الموقت بالمسجد الاعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وأحكاما للآلة الفلكية ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ في ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيرا من الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالجمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتعالى الناس في أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتقن شيخ الجماعة في هذا الفن ، ومثل أبي العباس أحمد بن مفرج النبائي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيرا باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى . والمحيط المتعدد الاكواب الخفى الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذي كتب في الوباء ^(١) كتابا عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا العصر ، وفيه يقول ابن

الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ، ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طملس الوزير ، كان كاتباً مهندساً الى من ضارعههم في علمهم من الاطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين في صف العلماء جهلاً وتعنتاً .

هذا في العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ في الاندلسيين من العلماء في التاريخ والجغرافيا والادب والرحلات أفراداً ما برحت كتاباتهم مرجعاً الى اليوم لكل عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد في العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على ما رأيت سابقاً وألقوا فيها فاحسنوا احسانهم في صنائع لا يحسنها الا صنع الايدي دقاق النظر وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون في تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلداً في علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس فالف كتابه في ستين مجلداً وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم في مئة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الاجناس في غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر فيهم المكثرون من التأليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد . وقالوا ان تأليف ابن حزم بلغت نحو أربعائة مجلد وتوايف عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمي بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكناني (٦١٤) الذي رحل الى المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها في طاب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة .

واشتهر في الجغرافيا أبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبي بكر الزهرى الفرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الادريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لانه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا سنة ٥٤٨ هـ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضي وابن بسام
 وابن بشكوال وابن الابر وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم المشهورين
 ابن جزي وابن هاني وابن سهل الاسرائيلي ويحيى القرطبي وابن رزين وابن
 عمار وابن لبون والباجي وابن الدباغ وابن الجدد وابن القبطرنة وابن عبد البر
 وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبابة
 وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن
 خاقان والمصحفي والاشجعي وابن جهور وابن سلامة واللماني وابن برد وابن أبي
 أمية ومنذر بن سعيد والزبيدي وابن القوطية وابن العربي (أبو بكر) وابن الأعم
 والرمادي ومن أدبياتهم حفصة بنت الحاج الركوني وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلاري
 وولادة بنت المستكفي بالله ومريم الفيصولي (الفصولي) وصفية بنت عبد الله
 التبري والغسانية والباشية والوادي آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة
 كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعامة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامبي . وقر
 البغدادية وحسانة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة
 الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمدح المرية . والعروضية مولاة أبي
 المطرف عبد الرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية
 جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وحفصة بنت حمدون ، وزينب
 المرية . وغاية المتى ، وعائشة القرطبية ، وأسما العامرية ، وأم الهناء بنت القاضي
 عبد الحق ، ومهجة القرطبية ، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية ،
 وحمة بنت زياد المكتب وأختها زينب ، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أدبيتان
 من أهل الجمال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على مخالطة
 أهله مع صيانة مشهورة وزاهة موثوق بها . وسعدونة وغيرهن

هذه حالة العلوم في تلك المملكة التي بادت وباد سلطاتها ، وقدر آيت كيف
 كثر المهندسون في بالسية وغرناطة وقرطبة واشبيلية وغيرها من حواضر
 الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام زخر بحر العمران ، وقامت مدنية العرب على
 أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزبه السويصري على
 ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

٩٧

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع في هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزيق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ، فان هذه الاعمال في العمران كانت نتائج لازمة لاثروة العظيمة التي فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومناجرهم ، فقد تفننوا أنواع الثمن في الزراعة ، ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعا من الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهد بها ومنها انقلت الى أوروبا الغربية ، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات القسطنطيني والموز والنخيل والارز والفطن والتوت وقصب السكر والزعفران والهايون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الياباني وغير ذلك . ونفمنوا في هذا تفنن العربيين لعهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الاندلس المعتدلة الاقليم ، الحسنة المناخ ، تعطى ثلاثة مواسم في السنة لحس استثمارها . فنذر على أهلها اخلاف الرزق والغنى سواء في العناية عندهم الاعضاء أي الاراضي التي تسقى بالامطار أو التي تسقى سيجاً أي بآبار الانهار ، ذلك لانهم حفروا آبارا . وأسألوا المياه من القاصية ، وعمرُوا خزانات وسدوداً .

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت الى دمشق حتى اليوم فقليل لها بالافرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو Damasquinerie أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الخيزر والكنان مزينة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثياباً على النمط الدمشقي .

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود واشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعاًة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصى البلاد » والى اليوم ينسبون هذا الصنف الى مالقة فيقولون في بلاد الشام المالى للصحاف والاولانى المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشى والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للاجواخ) و « لكورة باجة خاصة فى دباغة الأديم وصناعة الكتان » وكان فى المرية « لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللإسقاطون ^(١) كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللإصمفانية مثل ذلك وللغنائى والمعاجر ^(٢) المدهشة والستور المكلفة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف »

وكان الديباج والوشى يعمل أولاً فى قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق فى الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية . وانفردت سرقسطة بصناعة السمور ولطف تديره وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع « وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان فى جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد فى رية والسلاح والحلى فى قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفى شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار « خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى واتقان لجميع ما يصنعون » قال ميجون : كانت فى الاندلس عدة معامل مشهورة لصنع الفسيفساء ويسمونه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب الإسقاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها إسقاطوناً قال فى التاج هي كلمة رومية (٢) المعجرتوب يعنى ياتحف به ويرتدى والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع في امصار الاندلس ، برسوخ الحضارة وطول أمدتها قال ابن خلدون : فانا نجد في الاندلس رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني والطبخ ، وأصناف الغناء والاهو ، من الآلات والاولتار والرقص ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها الثرف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديايو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة كانوا أرق بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع . وفيهم الكرم والاخلاص ، والاحسان الذي لم يكن عند عدائهم كما ان فيهم عزة النفس التي امتازوا بها في كل زمن ، وكان الافراط المضر فيها داعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب في اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً كثيراً وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق في اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع . والشعر يرقى النفوس . وغدت المنافسة الشريفة على أتمها في الافكار . وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها ، واسم بانيتها . والأمة تمدح المحسن بها ، والمحسن لبنائها ، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات بال ، ولا يزال الى اليوم في الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وكان لدولة الموحدين في الاندلس ذوق خاص في البناء انشاؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، في كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار اه .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود « المشهورة في جميع الارض بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التي يلون بها

الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسناً وكثرة . » ويحملون حاصلاتهم ومصنوعاتهم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصى البلاد الشرقية والغربية في البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل في كل فرضة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطئ أفريقيا وآسيا وأوربا ما يروج فيها من سلمهم ومعادتهم وثمارهم وحبوبهم .

قال كاباتون : كانت مدينة العرب في اسبانيا ظاهرة في الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لاختصاب الاراضى البائرة في الاندلس من الاساليب العلمية التى اتخذوها لريها وهى أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين اكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبسور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا مالا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعى اعجاب الامم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من انشائه اه .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان في الاندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليوناً وسكان البرتغال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التى يعجب الناس الى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجري الى كل مكان فى بسائطها فتحمل الخصب والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى .

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعمدين المناجم واتساع

التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها الى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل : ولست أشك على ما يوجبه النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادر من الذين كانوا في جلته عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عينا ٦٠٢٤٥٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخي الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطر خمسمائة الف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجباية اثلاثاً ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمئة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق^(١) والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصى ديوان . وانهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف دينار بالانصاف .

كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذي استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمتقال (١) ليعرف الاوقات على غير مثال واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بني الانسان وكان أهل قرطبة أول من غنى بتبليط المدن وكذلك انارة الطرق في الليل عرفت لأول مرة في قرطبة أيضاً ولما ارتقت العلوم على عهد بني الاحمر في غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم

(١) الستوق الزيف البهرج اللبس بالنضة

التي دافعوا بها عن غرناطة محفوظة الى اليوم في أحد متاحف اسبانيا .
وفي الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق في مضمار هذا
الاختراع الذي لم تنتفع الانسانية بافيد منه . فكانت لهم فيه طريقة لم ينته
الينا خبرها بالتفصيل بل عرف اجمالاً ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر
من أهل المئة الرابعة « كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها
للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه » فاذا كان هذا
هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن بدر العربي قد سبق غوتمبرغ
الالماني مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة
بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل لويز الرابع عشر وكولبر
في فرنسا . وعنى الاندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل انسان تكون معواناً
على الانتفاع بالاعمال العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التداول يتدارسها الصناع
والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التي
استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون متزعمها وكانت طبقاتهم في نظامهم وشرهم
لا تخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مقلق بل « كان من
مدنهم مثل شلب قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني الأدب
ولو مرتت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت
عليه وأى معنى طلبته منه » وخص أهل وادي آش بالأدب وحب الشعر . وعلل
ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الاندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى في بلادهم
وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم
أحد في هذا الشأن .

وكانت للاندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون
منهم في هذا المعنى^١ واثقوا فيه التأليف الممتعة . وكانت لهم مدارس لتعليم

القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها في الجوامع من غير تكبر يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادئ الطبيعة والكيمياء والمواليذ الثلاثة ذكروا أنه كان في قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وان الموحدين انشأوا في الاندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة اتخذها المؤدين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفي ذلك يقول بن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها

لومكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وواعيها

واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون في جميع العلوم في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لا لان يأخذوا جاريًا فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم يباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلاني من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فها هو الا أن يحفظه مئات طمعاً في الجائزة وعم التلذذ بالادب جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويؤوونهم زمناً على نحو ما كانت الحال في القرون الوسطى في المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكفين به في بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية التروبادور والتروفير^(١)

Les Troubadours et les Trouvères

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة في القرن الحادى عشر الى

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهم يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالأوربيات اليوم وإذا عرفت ان المدارس كانت مبذولة في المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان اسبانيا الاسلامية الا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان اهل الطبقة العليا في أوروبا المسيحية أميين لا يقرأون ماعداً أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم .

وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعمين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة . وقد انشأ الحكم الثاني عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة ألف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلوات لبعض مؤلفي الشرق والاندلس حتى يذكروا في مقدمتها أنهم القوها برسم خزائهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه .

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء في الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن

القرن الخامس عشر والتروفيش شعراء باقة وال من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يختلفون الى الملوك والمظماء يشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا في قصورهم مدة ثم ينتقلون .

الافطس صاحب بطليوش من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الاندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم جمعاً فى قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ أحمد بن سعيد النصرى جمعاً فى طليعة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثانى وكانون الاول وكانون الثانى يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فرش فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة .

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء^(١) فكان اذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبالغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولايته من أعيان الكتاب وفرسان

(١) كان للقضاة فى الاندلس مشاورون حتى لا يصدرُوا الا عن آراء ناصجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيع ، وانهاض الى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الامير الناصر للدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، لاوزير الفقيه الاحل المشاور الحبيب الاكل أبى بكر بن أبى جرة أدام الله عزه امسه به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بأمر ، أو يحكم فى نازلة ، يحرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقل بأعبائها ، الا نحن بأنبيائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويرها وترفيها ويورثه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا ، وكتب فى التاسع لذي حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اه .

البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرتها حضرة بنى العباس في صدر دولتهم وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لاهل الآداب خللت فيهم ولهم قصائد أشادت بآثرهم ، وابقت على غابر الدهر حميد ذكرهم .

كان أهل دانية اقرأ أهل الاندلس لان مجاهداً العامري كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا في بلاده قلنا واذا كان عرض الاندلس في بعض أدوارها ماورق جامعتها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشيء فالتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاخضاء من رجاله .

ومن لطيف تدبيرهم في الاتفاق على الجند دون تحميل الامة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم بحصاة عليهم يأخذون ويبيعونها فقط ورؤوس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت حتى اذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .

ومن أجل أعمالهم في اقامة قسطاس العدل ان هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكي وقال له : احلف على كل ما ظلمك فيه فان كان ضربك فاضربه أو هتك لك سترأ فاهتك ستره أو أخذ لك مالا فخذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شيء الا أقيد منه .

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد السابط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة

وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهدهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على الابواب في أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلمات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرباً مستطيلاً لذلك فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انتهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً في الجمعة ليباشراًحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترأ . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .

وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو ببعضه ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل في قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردعاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان في البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد ان انغمسوا في الحضارة قال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة	أبدى البناء بهامن علمهم حكما
لم أدر ما أضمر وافيهِ سوى أم	تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ما أخطا مشبهه	حقاً لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به	مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا	أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حداثق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فصارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال^(١) والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة

(١) الخيال هو الذي يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قره كوز» وبالفرنسية Marionnette, pochetinelle والكرج تماثيل خيل ممرجة من الخشب ملقاة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الحيول فيكررن

والقيثار والزلاحي والشفرة والنورة والبوق وكان في مدينة آبدة من أصناف الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ماتظهن فيه احذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والذكر واخراج القزى والمربط والفتوخة أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجرى عندهم مجرى الموصلى في الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولا عجب اذا قلنا ان تفرق الاندلس اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما الى أمارات صغيرة تتنافس في مضمار العلم والصنائع والعمران .

مدينة مجريط

٩٨

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتقننهم في ضروب الحياة المادية والأديسة ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلاً محطة إرون الاسبانية قاصدين الى

ويفررون ويشاققن وهي من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, chevaux de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو Rote وبالفرنسية rotte أو Role, واللؤنس قرينة يركب فيها زممار ولعلها من اصل اسباني بقاها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالاصابع Githare والقتار Guitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومة الى انصاف الحان يركب عليه دساتين والزلامي نوع من الزمار هو تصحيف الرنامى نسبة الى زنام مستنبط الناي وكان زنام زماراً مشهوراً عند هرون الرشيد يضرب به المثل في حسن صناعته . والشفرة والنورة زماران الواحد غليظ الصوت والاخر رفيقه والمود معروف بالفرنسية Luth والرباب معروف بالفرنسية Rebec والقانون مشهور بالفرنسية Harpe والبوق معروف . والذكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الرنج والحيش بالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب الشموذين والفتوخة جمع فتخة وهي خاتم كبير وهي لعبة الخاتم « من مقالة للعلامة الابانستاس ماري الكرملي : المقتبس م ١ ص ٤٣٥ »

مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لوايعج الاشواق الى الصقع الاندلسى واشتدت
تباريح الذكرى

وأكثر ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام
تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية ، وما أثلته من الأتجاد في هذه البلاد ،
وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلاً عظيماً ، لم يبق سوى التحدث
بطيب أخباره . والتطلع الى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الألوف من العظماء
ضمت الاندلس أعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال
لهم في أمة في القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال :
خفف الوطء ما اظن أديم الا رض الا من هذه الأجساد
وحرام بنا وان قدم العى دهوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هي عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم
يقربون من سبعمائة ألف وهي العاصمة التي اختارها فيليب الثاني لتوسطها من
البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا
ضاحية بدية مشجرة مثمرة بل كان قديماً في أرباضها بعض الغابات فخطمت ولم
يبق منها الا القليل . على أن فيها اليوم ما في جميع عواصم الغرب من المرافق
والمصانع . زرت بعضها وهي لا تختلف عن مصانع الأمم اللاتينية الا قليلاً بل
هي أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس في مجريط أثر يعتمد به من آثار
العرب ، وأما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة
عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية في كل مصنع من مصانعهم .
وأكثر أحياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة في أوروبا
الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثة هي على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق
وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت في زمن
الحرب العامة في مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى
الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالترامها

خطة المسألة ومن هذه البيوت ما يقتضى ألوفاً من الايرات . فلما اشتدت الازمة على أوروبا عامة لحق اسبانيا من أثرها شئء بالطبع فوقف العمل فى بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التى أحدثوها مغتنيين فرصة تقاقل جيرانهم

فى مجريط تسمون كنيسة من الكنائس التى لاشأن لها فى نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع فى باب البناء الحسن . والمصانع التى من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلا للصيد . وفى متحفها الوطنى بعض آثار العرب التى أفلتت من أيدي الدين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربى أى مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه الى أن استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها فى الجزء الثانى من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشئ فيها فى العهد الأخير ترامواى كهربائى Métropolitain تحت الأرض على مثال ترامواى باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

دير الاسكوريال

٩٩

أهم ما فى ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناء فيليب الثانى ونجرت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكى وقيل انه أتفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف

مليون من البستاس أى الفرنك الاسبانى .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما عمله الارادة ومما لا عمله فقد قيل ان الارادة قادرة فى بعض الاحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقريه وهذه الشعلة الالهية قد تقصت فى عمل بانى الدير : فمن انه نشأ فى عهد لم يشتهر بقوة الایجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدي المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب فى مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه فى هذا الشأن فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذى أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة وأربعون ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذى كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا فى القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين باجل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمننا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهى ألفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراکش المتأخرين . وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربى فالتهمتها النار فى الحريق الذى نشب فى الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية فى خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت أدري بالذى فيه أخبرنى أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى فوقعت فى أيدي الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا

لدى الباب العالى ولما غادر الاستانة أهداها للملكه فوضعها هذا فى الدير الذى كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى أصح .

وقد وصف هذه المكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩
١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما
كتبه أحد علماء المشرقيات من القرنيسس ولا سيما القسم الذى يهمنى منها
عرانى فى هذا الدير ما عرا كثيرين قلبى من السویداء ثم السكون والراحة
والبرودة التى تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت
تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة
الاديار كما تشمر فى مدارس اكسفورد ويبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً
من نفسه يدفعه الى أن يشغل نفسه بشىء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم
يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر فى كشف المسائل المتعذرة
المهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

قرطبة والزهراء

١٠٠

بأربعة فاق الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شىء وهو رابعها
لم يكتب لي أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها
القائمة الى اليوم وعادياتها الماثورة وكانت من عظام مدائن الاندلس وهى من
قرطبة على عشرين يوماً فاكثفت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية
قرطبة واشبيلية وغرناطة وهى العواصم الثلاث التى تأصل فيها حكم العرب
وطالت أيامه .

وقرطبة كانت فى عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن وليس فيها من

السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت ألفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقية مقلص ^(١) تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم .

قال المراكشي : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشي يستضيء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفي تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس ما يشبهها بعمارتها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربضاً وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المنزهات البهجة المفروسة بأنواع الاشجار على طول الوادي الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادي الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسي فقال : « وصف ما شئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ما حكى لي وهي مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلاً ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينياً وهي في جهاد وثقير أبداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات

(١) المقاس هو الذي يلبس القالس أو القانسوة وكان يحق للمقلس وحده في الاندلس ان يفتي وكان عليه ان يستطهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث والمفلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزي في ملحقة على المعجمات العربية)

وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدتها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الأموي في دمشق يوم بنى جامعها واستبقى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربيع جميع ماجرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم الا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمتها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية ان عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأم الدائرة قد هدمها مرور النهر على ممر الزمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه عند ما اتصل به خبرها فامر السمع بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على أيدي عرب الاندلس في القرن الأول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملنفة والباقي منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخر ان البانى واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية فى القاصية كجنوبى فرنسا وأفريقية أى قرطاجنة والاسطانة وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى ما بعد اليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفيسفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون باباً معمولاً بالنحاس بقى الآن منها ١٢ باباً وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقاموها وسط الجامع على عهد شارل كان فى مكان آخر اصار لما شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه فى العالم .

وكان فى جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزهرى والياقوت والمقصص وغيرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقى الى اليوم من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لاسبيل الى وصف التأثير الذى يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامى القديم فيتراءى لك انك تسير فى غابة مسقوفة لافى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اه .

نعم ان البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قدشوهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى

بدون زيادة ولا نقصان طرازاً في البناء منقطع القرين في الأرضين إلا ان البيعة الوسطى بيعة شارل كان يصعب نقل انقاصها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا ما بقى من آثار الأجداد في قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهي على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها صواحي دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربى البديع ولأهائها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموى فى ست عشرة سنة وطولها ألف وستائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل فى سورها ثلثائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثائة سارية وأهدى ملك المرينج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجواهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذى جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه

اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدتها متهمة :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
نخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرق الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخرت قرطبة وعمرت اشبيلية .

مدينة اشبيلية

١٠١

على شاطئ الوادي الكبير في أجمل بقاع الاندلس وأعدلها هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من أعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة في أيدي الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم في اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا أو منارة الجامع الاعظم وهي أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤ - ١١٩٦ لأبي يوسف بن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يندق حجمها كلها ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و ٥٥ سنتمترًا ويزيد سمك الجدران علي مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان

بعد خروجها من أيدي العرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال في ذيل الباب : فدخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ هـ فآخذ في إتمام بناء الجامع وتشيد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدراً إلا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى ركب عليه أربعون ربعا من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموتت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً هـ .

ومن أجل ما فى كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولبس الملاح الجنوى الذى اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان فى كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحها أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجير الدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هى التى اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذى سار فيها « من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان ما اشتهرت به فى جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ما أدري ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها ولطبيعة الاقليم دخل كبير فى هذا الشأن . فى اشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت

في اعطافها وهى ملك لا ناس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلاً من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعنى الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التى قامت فى كل ناحية من انحاء البلاد التى ظل فيها حكم العرب نافذاً دهرًا طويلاً .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت فى أيدي الاعداء هاجر من مساكنها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بنى نصر تحقّق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مساحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٠٢

بلد يحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره
هذا ما قاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكمته العرب من أرض
الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو
قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرائها . جاءها جميع المسلمين الذين
لم يحبوا ان يبقوا في البلاد التى وقعت في قبضة العدو يحتمون بملوكها من بنى نصر
جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من
الصنائع والثروة فى تلك الأرجاء .

قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له
في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من
الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بهامن
كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق
بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد
أطل عليها جبل التاج Sierra Nevada — كما أطل جبل التاج أو جبل الشيخ
أو جبل حرمون على دمشق — وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عايتها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف وغطتها تحتها
تجري فيها الأنهار ودمشق في وهددة تنصب اليها الأنهار وقد قال الله تعالى في وصف
الجنة تجري من تحتها الأنهار . أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق
باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء صرداء ولذلك
كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطلت عليه من سفوح لسان الغربي .
وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .
قال الرازي : وخص البيرة أي سوادها ورينها لا يشبه بشيء من بقاع الارض
طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وخصها أي خص غرناطة لافيح المشبه بالغوطة الدمشقية
حديث الركاب وسمر الليالى قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله
الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلا ونحوها
تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال
لمتظامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منذ المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة
مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى
الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً
كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج ابن حسان :

أحن الى غرناطة كلما هفت	نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل	بمنهل سحب ماؤه من هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها	وارض بها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري :	ألاها ثم الباكي اليك طريق ؟
وما شأقتي الا نضارة منظر	وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل	ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت	وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شليل فرنداً مهنداً	نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نمت منه طيب نشر اراكه	أراك فتيت المسك وهو فتقيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت	تغور أقاح في الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الأحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبالحسن
لسياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحاطة القشتاليين الأسبانيين وبني مرين المرراكشين
نارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها
لصنائع والتجارة وعمروا الطرق والجاري وتسلسل ذلك فيها فاتم الثاني مابداً
به الأول وزينوا البلاد بابنية بديدة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة في شبه جزيرة
يبريا وبحكمة أمراءها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية في اسبانيا وأنست عنايتهم
بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء
وأصبحت قصورهم منابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر المقصود
والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما استولى عليها الاسبان سنة
١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة أشهر فنيت في خلالها ازواد المحاصرين من
لعرب وفنيت خيلهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان
سكانها نصف مليون نسمة (تقوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على عهد الاسبان

بعد حين وأقمرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الدينى ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى ما يناهز أربعة عشر ألفاً وكان فى جوارها ما ينيف على ثلاثمائة قرية عدا ما يجاور الحضرة من قرى الأقليم أو ما استضيف اليها من حدود الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها ما يناهز خمسين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدى وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة وثلاثين رحى)

قصر الحمراء

١٠٣

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها من بعدهم قبألسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقياوكم ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاضم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

الحمراء ويقال لها القسبة الحمراء ومعنى القسبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهى مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق . سميت بالحمراء لاجرار جدرانها بل للون التربة التى قامت عليها فى سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلس والحصياء . وفى قسبة الحمراء قصور العرب وهى ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الالكمة وقد بنى كل قصر منها فى زمن غير زمن القصر الآخر وبقي من القصر الأول شئ قليل وهى المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بنى نصر قال فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء

على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وابداع أثرها أتفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلا وكان فيه دائرة حرمة ومساكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الاسود وهو في الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعرض ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمي أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من أجل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران في قوالب من حديد وهي الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي	اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحات بنوره	أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه	فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسى «الصبيح» مع «المديح» بذكره	وسما ففاق خورتقا وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه	ما كان شيئا عنده مذكورا
أعيت مصالعه على الفرس الاولى	رفعوا البناء واحكموا التدويرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا
 اذ كرتنا الفردوس حين أريتنا
 فالمحسنون تزيدوا أعمالهم
 والمذنبون هدوا الصراط وكفرت
 فلاك من الافلاك الا انه
 أبصرته فرأيت أبداع منظر
 وظننت انى حالم فى جنة
 واذا الولا ئد فتحت أبوابه
 عضت على حلقاتهن ضراغم
 فكأنها لبدت لتهمصر عندها
 تجرى الخواطر مطلقات أعنة
 بمرخم الساحات تحسب أنه
 ومحصب بالدر تحسب تربه
 يستخلف الا صباح منه اذا انقضى
 وضراغم سكنت عرين رئاسة
 فكأنما غشى النضار جسومها
 أسد كأن سكونها متحرك
 وتذكرت فتكاتها فكأنما
 وتخالها والشمس تجلو لونها
 فكأنما سلت سيوف جداول
 وكأنما نسج النسيم لمائه
 وبديعة الثمرات تعبر نحوها
 شجرية ذهبية نزعته الى
 قد صولجت أغصانها فكأنما

لملوكم شهباً له ونظيراً
 غرقاً رفعت بناءها وقصوراً
 ورجوا بذلك جنة وحريراً
 حسناتهم لذنوبهم تكفيراً
 حقر البدور فاطلع المنصوراً
 ثم انثنت بناظرى محسوراً
 لما رأيت الملك فيه كبيراً
 جعلت ترحب بالعفاة صريراً
 فغرت بها أفواهها تكسيراً
 من لم يكن بدخوله مأموراً
 فيه فتكبو عن مداه قصوراً
 فرش المها وتوشح الكافوراً
 مسكا تضوع نشره وعبيراً
 صبحاً على غسق الظلام منيراً
 تركت خير الماء فيه زئيراً
 وأذاب فى أفواهها البلوراً
 فى النفس لو وجدت هناك مثيراً
 أقعت على أدبارها لتثوراً
 ناراً وألسنها اللواحس نوراً
 ذابت بلا نار فعدن غديراً
 درعاً فقدر سردها تقديراً
 عيناي بحر عجائب مسجوراً
 سحر يؤثر فى النهى تأثيراً
 قنصت لهن من الفضاء طيوراً

وكأنما تأتي لواقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين غيرا
خرس تعدد من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهر يج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منشورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفع الابواب تبرا نظروا بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيरा
واذا نظرت الى غرائب سقفه أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصورا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكان ماء اللازورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاء تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذي أضحي له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور الملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بنى سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل
في أخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها
الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء
الملك في الشتاء وتقسها من أقصى ما بلغه النقش العربي من الاتقان وأهم ما فيها
المقرنص الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها
مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها

كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء من الصور أو كأنها خلقت خلقه ولم تمسها يد بشر

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها في منحدراتها وإكاثها وبساتينها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابىء وفوارات وسياج تشبه المصايف الإيطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جعلتها سرورة يدعونها سرورة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة في غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الإحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الأسبانيين فنجا الأمير الأموي بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون إلى هذا القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دولة بني نصر أو بني الأحمر الذين استقلوا بأماره غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكي بالقرب من السور والقلمة وفي عهد الإمبراطور شارل كان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا إن فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيتين عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتاما فرصة اختلاف العرب وأمراءهم وعزما على إخراج جميع العرب من إسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورما جدرانها وكان شارل كان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب إليه من القول عند ما وقع

بصره على آثار الحمراء : يا لشقاء من أضاع كل هذا .

جاء في دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذاك العهد في القاهرة مثلاً كجامع السلطان حسن الذي بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة في حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد في مملكة من الممالك قصر اسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا ابنية العصر الأموي التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرقى بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي في سامرا والرقرة . وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومنتزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأَبصار وفي مسالك الأَبصار: ان الحمراء كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى رجب منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبخائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة مانعق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذي كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم في الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسماً منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاطادة الحمراء الى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصوصهم

معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعد ان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : وأهمات الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود يياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرايون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفي جدرانها والباس يعبثون بما فيها وربما أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة في هذا الشأن تقتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفي هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارل كان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناء من الجزية التي كان ينقضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارل كان ابنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما أشاء من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبناؤه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس في الحمراء من الفرش والأواني الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها أكثر من متر صنعت من تراب بالمينا ولها لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي من صنع معامل غرناطة في القديم هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلي يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر	عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة	تمشى العيون بشدة اللعان
لا يرتقى الراقي الى شرفاته	الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كي ترى	شرف المكان وقدرة الامكان
في جنة غناء فردوسية	محفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجر من نار مجها
وكأنهن كرات تبر أحر
ان فاخر الأترج قال له ازدجر
لي قمحة المحبوب حين يشمى
منى المصبغ حين يبسط كفه
والماء منه شبائك فضية
وكأنما سيف هناك مشطب
كم شاخص فيه يطيل تعجباً
عجباً لها تسقى الرياض ينباعاً
خصت بطائرة على فتن لها
قس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت
وكان صانعها استبد بصنعة
أوفت على حوض لها فكأنها
فكأنها ظنت حلاوة ماءها
وزرافة في الجوف من أنبوبها
مركوزة في الرمح حيث ترى له
وكانها ترى السماء بيندق
لو عاد ذاك الماء تقطاً أحرقت
في بركة قامت على حافاتها
نزع إلى ظلم النفوس تقوسها
وكان برد الماء منها مطفى
وكأنما الحيات من أفواهها
وكانما الحيتان اذ لم تخشها

فكأنما خلقت من النيران
جعلت صوالجها من القضبان
حتى تجوز طبائع الأيمان
طيباً ولون الصب حين تراني
فبنان كل خريدة كبناني
ذابت على درجات شاذروان
القتة يوم الحرب كف جبان
من دوحة نبتت من العقيان
نبعت من الثمرات والاغصان
حسنت فافرد حسننها من ثان
وفصاحة من منطق وبيان
بخير ما دأبهم الهملان
نخر الجناد بها على الحيوان
منها إلى العجب العجيب روائى
شهاداً فذاقته بكل لسان
ماء يريك الجرى في الطيران
من طعنه الحلق انعطاف سنان
مستنبط من لؤلؤ وجمان
في الجومنه قيمص كل عنان
أسد تذلل لعزة السلطان
فلذلك انتزعت من الابدان
ناراً مضرمة من العدوان
يطرحن أنفسهن في الغدران
أخذت من المنصور عقد أمان

كم مجلس يجرى السرور مسابقاً منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الحدود ملاحه فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٠٤

تقرأ في قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على
الأجر أو بالجلس بالخط الأندلسي المشبك وهو أقرب إلى النسخ المتعارف في هذه
البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا
الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على
الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا
السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الاسلام صنائعه الزاكية
وتقبل أعماله الجهادية فشيء ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين
وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام »
ومنها « عز لمولانا أبي عبد الله » ومنها « ولا غالب الا الله » ومنها « وما بكم من
نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير
المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالحمد خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الأبيات التي رسمت على إحدى القباب في مدح
أبي الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده فاولى بك الاسلام فضلاً وأنما

فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها وأمسيت في أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فأصبحوا بيابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ففتحت باباً كان للنصر مبهما

ولو خير الاسلام فيما يريد له اختار الا أن تعيش وتسلم
الى أن قال :

قامنت حتى الغصن من تفحة الصبا وأرهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم تخيفة وان مال غصن البان شكرك يما
ومنها: ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت مافيها لجيشك مغنا
وكتب في قاعة السفراء

أنا محلاة عروس ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف فضل صدق في مقال
واعتبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرمى العروس وزدته اني ضمننت سعادة الازواج
من جاءني يشكو الظماء فوردى صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام اذا بدا والشمس مولانا أبو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغدا بيت الاله مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحبيك مني حين تصبح أو تسمى ثغور المني واليمن والسمد والانس
هي القبة العليا ونحن بناتها ولكن لي التفضيل والعز في جنسى
جوارح كنت القلب لا شك بينها وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالي بروج سمائها ففي عدا ما بينها شرف الشمس
ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير أبي عبد الله
محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين بن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمدا	مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع	أبي الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها	تحلى بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد	فلم ندر أيأ منهما كان جاريا
ألم تر ان الماء تجري بصفحتها	ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب قاض بالدمع جفنه	وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذغدت	تفيض الى أسد الجهاد الاياديا
فيامن رأى الآساد وهي روايض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
وياوارث الانصار لاعن كلاله	تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلصاً	تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ومما كتب في احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا	تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الامام محمد	باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه	يفوق على حكم السمود المبانيا
فكم فيه للابصار من متزه	تجد به (!) نفس الحليم الامانيا
تبنت له خمس الثريا معيزة	ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الفراء قل نظيرها	رى الحسن فيها مستكناً وباديا
تعد لها الجوزاء كف مصافح	ويدنوها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها	ولم تك في أفق السماء جواريا

ولو مثلت في ساحتها وسابقت
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى
فبين يدي مولاي قامت لخدمة
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا
وكم حلة قد جللته بحليها
وكم من قسى في ذراه ترفعت
فتحسبها الافلاك دارت قسيها
سوارى قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شف نوره
اذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
فلم نر قصراً منه أنم نضرة
مصارفة التقدين فيه بمثلها
فان لملاّت كف النسيم مع الضحي
فيملأ حجر الروض حول غصونها
ومن الأبيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيمها
وقد حزت من كل المحاسن غاية
واني بهذا الروض عين قريرة
فصحت هوا- والنسيم قد اعتلا
تقبس عنها الشهب في الافق الأعلا
وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفي الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها
وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر
وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة
الهواء جميلة الطبيعة فلا بدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم
وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكرى مؤمنة

١٠٥

مضت أعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاھلها ، وتستبطن معاهدا ومصانعها . فتتدبر . وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة الاندلس . وانتقلت أحكامها الى أيدي الغالبين من الاسبانيين ، والجرس يدوى في كنيسة الحمراء دويًا متواصلًا امتساوقًا مدة أربع وعشرين ساعة ، احتفالًا بهذا اليوم الذي يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أديها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حلته في جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضي على أعلى برج في الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يبعثه العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وأمه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ما كآلم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال . كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوى وقد احتفلوا به حتى اليوم

أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متمصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذرايرهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها . ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تساط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن النار لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من أيام البؤس ، المشتعلة بالحزن . المملوءة بالاستعباد ، يتناشدون فيه التعازي والمراثي ، ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس في بر العدو ما برحوا الى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في الاندلس على أول أن يعود أولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم في باب الهزل ، وقيده في سجل المستحيالات ، يحوى ولا جرم في مطاويه أجمل العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ما حل به خصوصاً في البلاد التي يبعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد صراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً أقاموا خلالها مدينتان وأنشأوا أمجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدينة الاندلس وقاموا في عصور الظلمات

بأعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائنهم ، وثمره عقولهم ، ولم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ، لا يعجزهم اليوم ، والمصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ما عمله أجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياداً أنفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبورتيقال اللتان ثارتا لنفسهما من مستعبيديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل إقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغي الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقديس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً لامحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة أيبيريا وجزيرة صقلية وسردانية فأرتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل ان تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغفوة ، في جانب ما حملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات . ومستحسن الآداب والأخلاق . العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، أحلوا محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم .هما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشحصاتهما ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيين ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

جهود المسلمين و تنصيرهم

١٠٦

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصلين على الدخول في دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الخفيف ، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية . لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي الادعائه المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وسأوهم في جميع الامور بانفسهم . مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة . وهم في عز سلطنتهم ، والقول الفصل في الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة . هكذا فعل العرب في أبان قوتهم . فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلاً عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلى بلش وقرى جبل منتميس وحسن قارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين . وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم فنهم من جوزه العدو الى أرض العدو ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى أرض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وبلش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤

خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة
وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين
يدلونهم على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التي يستولى عليها يبنى
بأتقاضها مسورات في بضعة أيام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط
أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونسأهم وصبيانهم ومواشيهم
ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرّمون إلا الزكاة والعشر لمن
أراد الإقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن
لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدو
بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته . ويحمله في مراكبه الى أى أرض أراد من
المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الإقامة من
المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا
عليه عهداً ومواثيق في دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء
كما أخلوا غرناطة ودخاها الأسبانيون . ولما سمع أهل البشارة أن أهل غرناطة
دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق
للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من أراد
الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة
المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن
الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ،
ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، ومن المسلمين
من طمعوا في عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزوا
على المقام في الاندلس .

ثم إن الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش
من قرى البشارة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ثم ظهر له أن يصرفه

فبعث للمراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز
فركب الامير محمد ومن معه فى تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة وفاس من
عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التى اشترطها عليه المسلمون ،
وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان ، وأمرهم
بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى ، وبعد ذلك دعاهم الى التنصر
وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس
كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الاندلس من التنصر كأهل قرية ونجروا بالبشرة
واندرش وبلفيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ
صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم ، وامتنع أناس فى غربى الاندلس
من التنصر وانحازوا الى جبل وعمر منيع ، فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم
منا لا أعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسرح لهم
شيئاً من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا
ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوى : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع
وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهى سبعة وستون
شرطاً عروقة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا
بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والاقواف كذلك الى أن آل الحال لحلمهم
على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وكان أهل الاندلس كثيراً
ما يهاجرون الى بلاد الاسلام غير ان طاعتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق المعجم (غير
العرب من الاسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة
أعقابهم بين أظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم
يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها . وفى خلال ذلك منع العرب من التكلم
بالعربية (١) .

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم

قال المقرئ : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسامين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف آخر بتامسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمرروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم^(١) ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

* * *

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك مقاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفى العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثيل ولم ينزل عن

دوا أو الرموا بالمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الحيامو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسون كل ما ليس بهى اعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يعاقله فى اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاحاءيا) ولما كان أهل اسبانيا يقرأون أغلب الحيات حاء آت قالوا (الاحاميا) أو (الحيا) وسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amin) وعلامة النسبة عندهم (ل) توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمى . (السفر الى المؤخر)

(١) قال ابن ابى دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٠١٧ - ١٠١٨ هـ كانوا خلفا كثيراً فوسع لهم عثمان داي فى البلاد وفرق صفاهم على الناس وادن لهم ان يعمرروا حيث شاؤوا فاشترى الهناشير وبنوا فيها واتسعروا فى البلاد فعمرت بهم واستوطروا فى عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسنى عبد الوهاب من علماء تونس فى رسالة بالفرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس فى القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة ألف أندلسى وأن الطبقة المتدنية الفنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بنى حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولا نجاح وحدة اسبانيا وانتقاذ البلاد من أولئك المحالفين سرّاً للاتراك والانكليز والفرنسيين على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهزري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل السلاح واذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويخرج موقعها . واذا كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غني بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين الى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضي على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم حاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد اليها الجبل والخبز نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات ومعجات بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالي وفرح الرأي العام الاسباني اذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من أعظم الاعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفيق الى

أن يعمل هذا العمل من طرد العرب . ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوباً بل وصفه ريشايو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك ^(١) وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشى وبما اشتهرت به قرون الدين من التعصب وعدم التسامح فأروا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ما هم فيه من التويفتتون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالمون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ما عليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوكاس أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لآثامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلى أو كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلى وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فأثروا الثاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس ^(٢) الذى عهد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا الى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايرال الى اليوم يدعى في الرسميات صاحب العظمه الكاثوليكي Sa Majesté, Católica

(٢) هو مرشد ازابيلا الكاثوليكيه ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قصوا على العرب ومدنيهم على ما مر بك في الفصول السابقة

في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الدينى سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفى اليهود سنة ١٤٩٢ ونفى العرب (١٦٠٩) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الالوف فخرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مئة ألف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدينة تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نازت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكنيسة فاضر ذلك بالصناعة الفرساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط عربى في ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

١٠٧

كان العرب في الاندلس في جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا بأعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلالة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا اليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتغاليين

على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بنى أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانزاع كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بألقه وبلغهم شأن المعجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدي في أرض اندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهري يحكى انتفاخ صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر منها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثاهي يسمى كل واحد منهم بأمر المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في اشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبته وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتغالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء امرائها وأصبح بعضهم « ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه . وهو يقطع به أيامه » واسترسلوا الى اللذات وركنوا الى الراحة ، وأغفلوا الاجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسد الامور الى الضعاف فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغة ولاردة وقلعة أيوب

في يد بنى هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى مافوق طليطلة من جهة الشمال في يد بنى رزين وطليلة في يد بنى ذى النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور واشبيلية في يد بنى عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بنى برزال من البربر والمرية في يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامرى وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة في يد بنى الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتهم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في أيامه منفردة ومثناة (أى الوزير وذى الوزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالة وقشالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقبض للبلاد دولة أخرى جديدة قوية جاءت من الجنوب أى من المغرب الأقصى وهى دولة المرابطين فافرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلفت اختلا لا مفرطاً آخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وأمرائها وقد

كانوا يدعونهم الى نصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والثر ويستنفرون الناس من العدو .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدو ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابرأ عن كابر
ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ويهنثكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الاعصر
الى أن قال :

والخيل تضجر في المراتب عرة الاتجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا من معشر . كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا من حلية التوحيد صهوة منبر
الى أن قال :

عند الخطوب النكريب بدو فضلكم والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم ودعاكم يأسرتي يامعشري

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسين والفاكريين قسموا صقلية الى أمارات صغرى فانشأوا جمهورية في بلرم وأخرى في سر قوزة وكان ذلك من أكبر الدواعي في زوال سلطانهم . لاجرم ان ضعف الوازعين الديني والمدني من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى في أحكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ريمهم لا كما يدعي بعض المامة من أن

رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسائيات لان للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظمًا أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابههم في تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم^(١) والعرب لا يجوزون أن يستبدلوا العادات الحربية بأعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافقوا الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المربة وطارطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية المزوجة بالوطاء والركة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الاول ، واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة بيمضى الالخان المهيجه ، ورماتهم قسيهم عريية جافية ، وكلهم دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وطار شنيع ، ورماتهم يسبقون الحيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اه

وهم الذين استولوا علي بقايا مجد العرب بعد ان انتضر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ علي الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد المدو وأخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقرى الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيسيتين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطنجة

١٠٨

كان جبل طارق الذي نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذي بلغه في جيشه أواخر المئة الاولى بأيدي العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى الاسبان ولبث في حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة ١٧٠٤ - ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسي للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطول ان الفرنسي والاسباني تخليص هذا الحصن من أيدي الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ مترأ وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحناها بالمدافع فجاءت من أحسن مافي العالم من الحصون . فهو في الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعدا الحامية الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك ابنتها مزيج من طراز الالبنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقضى ملكا في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بنى في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضعة دقائق يجتازها المجناز على ظهر سفينة . وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدو من تنور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائياً من مدنية راقية الى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتذمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق الى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتغاليين واليطاليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محنطة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول عليها من الأمم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتغاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيون سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيون والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقع فيها كثير من معمدى الدول والاسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين في الغرب الأقصى أمثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوروبا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً « وهو أسبق موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال العميق المرادى المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا بشدة أهوال بحر الزقاق

ققات لهم قربوني اليه انشفه من حريوم الفراق

فلما فعلت جرت ادمعي فعاد كما كان قبل التلاق

علم المترقيات في اسبانيا

١٠٩

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تنفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة عربية أنشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحى العرب وفي سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رُسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلمهم القدماء ومنافسيهم الا لداء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء

شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن ما فى الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ فى اشبيلية مدرسة طامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربى الصرف واستمدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهى أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبرانى .

كان لليهود يد طولى فى نقل العلوم من العربية الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدينة العرب فى الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا فى نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفينهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربى باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ — ١٢ امتدح البابا اكلنص الخامس فى أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية فى مدرسة صلمنكة وفى أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة فى نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية فى ميرامار وأنشأ المجمع الدينى فى طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولا سيما الفرنسيسكانية الى القرن الثامن عشر فى اسبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة فى أوروبا حتى غدت إحدى المراكز العلمية الأربعة وهى باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربى أقامت على أساس معقول تعاليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسة صلمنكة فى أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية

وأخرى للعبراية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما أعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيهم ودينيهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كائنات بل أخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ - ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في أذهانهم انها خطر عليهم .

صدر أمر الكاردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان أحرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . وأخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه اباداة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء أسفهم الا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أي المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم .

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد أبناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في اسبانيا غير ذكرها وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم

ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيين في أشبيلية من أساليب تعلم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية في اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة في أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دوز رجال الدين والملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصامانكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون مانشره الهولنديون والجرمانيون والبريطانيون والطيالان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ايبيريا أى في اسبانيا والبرتغال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتغال درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لويس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتغال اليوم كما أن الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

اسبانيا بعد العرب

١١٠

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان الانحطاط دب في اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع تعليله الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ، وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكدا لا يختلفون هم فيه ومنهم من يقول ان منشأه حروبهم مع العرب وفتح امريكا فنفدت قوة الامة في اعمال هي الجيوش بعينه . ويقول - القشتاليون ان جلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب لمزالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم ان الاصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعد على النمو . ويدعي آخرون ان السبب في بقاء اسبانيا منحلة ميل الشعب الى المقاومة والمشاكة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر ان هذه الاخلاق في الاسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغنى اهل كل صقع بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار - كل ذلك من امارات الوطنية فيهم وان كانوا في الاكثر اذا شكوا عضو من أعضاء البلاد او قطر

من اقطارها لا يشاركه في شكواه جاره ولا اخوه . وعماذ الوطنية عندهم هو
لدين الكاثوليكي يسرون سيره ويندفعون به وامله . ولا شأن في اعمالهم
للآراء التي تحملها المصلحة وتنبعث من عظمة الامة . وينسب بعض الكتّاب
الذين كتبوا عن اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر في انحطاط امتهم
الى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويحجب آخرون ان ضعف الوازع
الديني في قومهم هو الذي كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدداً منه قديماً الابساق
الدين فلما قل المعتقدون كثر المنحطون .

ويقول فوليه : ان اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية المختلفة فالشمال
منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي - فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب
وانها في بعض اصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم
وشتاؤها تسعة اشهر وقد فطر الاسباني على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله
وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمس وانه ظل افريقياً وان كان يعد في الاوربيين
ومزاج الاسباني صفراوى عصبي ومعنى ذلك ان في باطنه حرارة شديدة
تحرقه فيعرف كيف يقمع هواه المذيب وان في استطاعته ان ينام على احقاده
طويلاً حتى اذا عرضت له الفرصة وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة
على الانسان قساة على انفسهم . وقد جاءهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان
يحرق بالار ايام ديوان التفتيش الديني وما زالت القسوة متسلسلة في دهرهم يساعدها
ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعى بعضهم ان صراع الثيران يورث
النشاط - ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطاً - فان هذا الصراع هو التوحش
بعينه وليس من الضروري اهراق الدماء حتي ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهداً وعندهم شعور بالاحترام
والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم في الجنوب
اكثر من الشمال ولكن لا يجزم بانهم يميلون كثيراً الى الانسانية
اماتعصبهم فيه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان التعصب بالنسبة
للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للاحب واذا كان الاسباني عيوراً جداً في حبه فهو

متعصب جداً لدينه ومع هذا فقد رأينا الايطالى غيوراً فى حبه ولكنه غير متعصب فى الدين . قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ما كان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرائه على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التى قضت على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ فى اسبانيا فلاسفة لأنه لا يتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتيا والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لا يزال الحال كذلك ليس للفلاسفة من يمثلها فى اسبانيا فى الحقيقة ونفس الامر

لا جرم أن الاسبانى شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً فى مضمار العلوم - والتربية . وقد غرس فى العنصر الاسبانى الصبر والثبات وحب الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تخالف السكان فى المناحى والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلاً بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات الى فتح زهاء مئة نفق طويل فى انحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال فى صعوبة المواصلات البحرية فان فرضها وسواحلها على كثرتها وطلوها صعوبة المجاز على السفن . ومع هذا رأينا أمماً كثيرة غزت شبه جزيرة ايبيريا مثل الابررين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلمتين والفينقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر والمرابطين والموحدين

ولم تخرج تلك الشعوب التى دخلت اسبانيا على توالى القرون فى بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين فى طبائعهم تخالفهم فى بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ما هنالك من صلات ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة . فانا نرى البغضاء قد تأصت فى قلوب الاسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة

شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاندلس ويمتقرونه وأهل برشلونة ييغضون أهل بانسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لا يميلون - الى القرطاجنيين وأهل قادس يعقتون أهل شريش وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولولم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية في تلك الحقبة - من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لا يتأخر اتحاد الاسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعهم لولم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا على اختلاف بينهم أيضاً .

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا - وهم الذين قاموا بأعمال مهمة في جمع سلطان الاسبان وطرّدوا العرب من الاندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم في الدين من العرب النازلين في اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا في حرب فرنسا وانكلترا وتبدد قوتها في الممالك التي صمت اليها من طريق الارث لم لها ما تريد من فتح مرا كس .

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوسيلة لم تقو على نزع الفوارق في طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد لاوطنية لا تتعدى حماسه اسوار بلده خلافا للفرنسيس والانسكيز والالمان والاطليان وغيرهم من الامم الكبرى فانها نهضت متحمسة حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها في بلادها وفي الخارج وأن فقد الشعور الوطنى هو أهم عامل في انحطاط اسبانيا تضاف اليه أسباب سياسية واقتصادية .



لا مرء في أن النسبة مفقودة بين المشاريع التي قام بها ملوك اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية . ومن الجنون أن يعتقد أن

التوسع في الفتوح في الخارج ينمى قوى المملكة . ومن أبشع الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم الذهب في العالم الجديد أميركالا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب من أميركا يغنى الأمة على وجه الدهر . قال فوليه : وكان في افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادئ فأصبح الناس يرقبون القرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة في هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأى مثال لشعب ينتحر . ثم ان ديوان التنقيش قرض بيوتاً وأسرّاً كانت مباءة ذكاء وجرائم فهم وعلم فبقصائمه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل في دعايتها للدين « النار والحديد » فتسوط على الوجدانات المتحمسة وتقضى على الارادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم ويقل النسل ثم ان حروب شارلسكان الجنونية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فافقرت وأغلقت بيوت برمتها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ - ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه خات محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المفروس في سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرصاهم النظافة والاعتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص .

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم في دور من الادوار ذوق في الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل زوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهي من هذه الوجهة لاتشبه فرسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال . وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغت درجة

حسنة في بعض العصور والامصار في اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد . وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك . فللغريب الى اليوم اليد الطولى على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيين والالمان وغيرهم .

إذا اشتهر عن الاسباني أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جنديّة . وشتان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمى اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسباني من غير الاسبان في حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسباني وهكذا في كثير من حروبهم في جنوب أميركا وفي جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكر الديني في الامة وموردها اموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون ان يعملوا خارج تخومهم خانتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بان ما ساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبوار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فخرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة - ان ما ساعد على انحطاطها في الاكثر كان اعتزالها الديني الذي فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات في ارضها ولم يشعر الاسبان في زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا في القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لهم وادهش من ذلك ما قال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الديني كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحي يرمى الى التجدد وتقاتل في ارضها وخارج ارضها كل ما يراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد الباباوية الايمن في الضرب

على ايدي المجددين والمصالحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم في الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد السكتلانكيين ان تودي معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما وكلما قام المصلحون فيها أذوا وقتلوا حتى كان احدهم لوكرم يقول ان الاسبانين كالاولاد يبكون كلما حميتهم وغسلتهم . وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستوري في نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية . اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لا تشبه بادارتها الحكومات النيابية الا لميلا وذلك لان كبار الموظفين الذين يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ - كالقواد والحكام ورؤساء الاساقفة قد اعتادوا ان لا ينظروا المسائل التي يبحثون فيها الا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف والمنتخبين من الولايات لا يجرون الا على هذا المثال اما القضاء فيكاد يكون هزوا والدعاوى تكلف تفقات باهظة أكثر من كل ممالك أوروبا والذي يوكل اليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الاكثر مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلاً فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور منهم وقد قال أحدهم : ان اسبانيا لا يحق لها أن تحسد مراکش على قضائها لان القضاء في الأولى هو كالقضاء في مراکش الى الانحطاط والسقوط . وسوء الاستعمال محسوس الأثر في كل عمل من أعمال الحكومة هناك .

لا يقل عمل العمال في دوائر الحكومات الاوربية كما يقل في حكومة اسبانيا فان من موظفيها من لا يعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتيون خلسة الى دوائرهم ثم يذهبون حالاً دون أن يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر — لا يفكر في عمل مفيد بل يحرص على يقين أقاربه والمخلصين له في المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة في اسبانيا تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجرط ولا بسط المسائل ملفات من الاوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها أشهراً وصاحبها يذوب كدأً على نجاز عمله . واذا خلت وظيفة التدريس في إحدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضي شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد .

وليس للأعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والساكن فيها محرومة من كل نظام صحي . وتخف التبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى في الحقيقة أحداً يسأل عن عمله والشعب لا يهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلماً يشور له طالبة بحق له الا اذا فقد الخبر أي بسائق الجوع ولا يشور دفاعاً عن أفكاره وأمانيه الوطنية . الشعب الاسباني ملكي يتفانى في الحكم المالكى كما هو مغموس في الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم في كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التي نشبت في اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب الاسبان مع العرب لا نقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الأكبر فيها — اختلاف الأديان . وهكذا مقابلة الاسبان للإصلاح الدينى وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيين لاحتادهم أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزي ما وجدت البرتستانتيّة لها منفذاً في بعض مدن الساحل من اسبانيا لأن كانت المرأة في اسبانيا لا شأن لها في الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن في بعض المسائل التي يهتم لها رجال الدين

فيسوقونهن الى التدخل فيما ليس من خصاصهن توصلا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضي المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنها ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً . وفي اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستانس أي ثمانين مليون فرنك في السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة في بلادهم فأجابني بين الهزل والجد : عندنا ياسيدي ثلاث صناعات رائجة وهي صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران ^(١)

كانت اسبانيا في اوائل القرن الماضي امة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية وكان للجيش المقام الاول في كل عمل حتى صار ينهق ستون في المئة من ميزانية الدولة على الجيش . وأقي عليها زمن في اواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائدا و ٥٧٨ زعيما وزهاء ٢٣ الف ضابط اي نحو خمسة او ستة اضعاف ما يلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف الى ذلك سوء ادارة الحكومة هناك ففقد التناسب في أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة

(١) كل صراع الثيران الى القرن السادس عشر خفياً بالفرسان يعتمدون اليه لتمارين اخرى أو للاحتفال باعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أو يجر ثور برمحه وفي اوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطراً وجعلته الحكومة لمرجة وانتشأ له معاهد وهي تربو على مائتي معهد في اسبانيا لها أوقات معلومة في السنة ويمتحر من كان ثوره عامسيا على الصراع والرجال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما اذا صرعه فحدث عن تماخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تدسم لانوف من المتفرجين وذلك في أمهات مدنها فيمدان بلاسية يسع ستة عشر ألفاً وميدان أشيلية اثني عشر ألفاً وميدان غرناطة سبعة عشر ألفاً وهكذا أحدثت اسبانيا ساحات لهذه الفرع في مالقة وسرقسطة وصلايكة وقادس ومجريط والجريرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف تسعة ومن ذاك تحكيم على مبلغ صباية القوم بصراع الثيران ومكانته من نفوسهم .

السكان في العمل ومنهم من يعدونه شائناً فيدعون الشرف ولا يسعون لادنى عمل ولذلك تركوا في الماضي الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكريا لاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون على وجوههم في الارض ليغتنوا في برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب .

ولك بعد هذا ان تتصوركم عدد المتسولين - عددهم مئة ألف - والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف . لا جرم أن عددهم لم يبلغ في مملكة ما بلغة في اسبانيا . وكان من نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية وطليلة وغيرها آخذة في الانحطاط سنة عن سنة . ومن أسوأ الأعمال في اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق في اتفائه فلو استعاضت اسبانيا عن الاتفاق على الحيش وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملاً بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح آقنية وغرس أشجار لكان حقيقة في ذلك نجاحها الاقتصادي على ما أثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد في فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون في الزراعة نجد خمسة ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون في الزراعة . والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد في اسبانيا ٤٨٠٨ في المئة من أرضها بوراً على حين لا ترى في بريطانيا العظمى سوى ٢٨.٤ من أرضها لا يستفاد منه و ٢٣ من أرض هولاندة و ١٩.٣ في ايطاليا و ١٠.٢ في المجر و ٩.٩ في ألمانيا و ٩.٤ في البلجيكي و ٦.٩ في النمسا و ٩ في فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من أرض اسبانيا فانها لا تزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر المربع لا يقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء

في اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة في حين ترى في فرنسا ومساحة المملكتين واحدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و ٥١.٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحديدية وليس في اسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية في كل عشرة آلاف كيلو متر على أنك تجد في مثل هذه المساحة في ايطاليا ٥٨٠ كيلو متراً وفي النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفي ألمانيا ١٠٠٧ وفي بريطانيا ١١٨٠ وفي البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر في اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب في تعاريج على غير فائدة لانها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأغنى سوء الادارة ورداءة الحال .

داء ان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقاقلهما واعنى بهم اناية الاغنياء وجهل الفقراء . فالعلم متأخر جدا في ارض اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفي احصاء اخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون ويقرأون واربعة عشر مايونا أميون وليس في البلاد اكثر من ٥٢ الف كتاب ومدرسة للذكور والانات ولكليهما معا وفي فرنسا ٨٢.٢١١ مدرسة ابتدائية و ١٠٥٧ مدرسة وسطى وفي اسبانيا عشر جامعات وهي جامعة مجريط وبرشلونة وغرناطة وايدو وصاهنكه وسانتياغو وسرفسطه واشبيلية وبلنسية وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة اذا أردنا ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب في حين ليس في البلاد سوى ٢٦ الفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصرف اوقاته في التعليم الديني والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا بل قد يستجدى ويستوكف الاكف أحيانا لان الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أما كن لا ثقة بالتدريس وتحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى من يعلمه

التعليم في اسبانيا صوري غير عملي وجميع طبقات المدارس محتاجة الى الاصلاح الكثير وفي أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم لافائدة منه وليس في العلم من الفضائل التي تنسبونها اليه في ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال ونابل وميلان وأقليم الفرانس كوتته والفلاندر في أوربا ومعظم ما يدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وما ليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا في الطريقة التي يجب بها تقسيم اسبانيا ولم تنجح هذه الأمة في مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرهما من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير مخفلة بأملاتها في خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلي في سنة ١٨٤٥ وعن الارجننتين في سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها في تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى أميركا الجنوبية — بل الى سائر مستعمراتها — سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما تفهموها . ولطالما أُنذرت المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها . ولقد أُنذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم تبذل قانونها الاقتصادي والحركي تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليوناً من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين

نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم تريح اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلاداً. اميركا الجنوبية الانشرها لغتها ولا سيما في المكسيك^(١) وعدد السكان الاصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فنفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتي ألف اسباني يهاجرون الى اميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا اليها ولكنها ترح منهم أموالاً فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستانس ومنهم من ينشئ المدارس والكنائس والمباني الخلد المتسلدة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جيالها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا . أخذت الشعوب الاسبانية في اميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا اذا أنصفنا أن نذهب الى اميركا نتعلم في جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الاسبانيين ديوان تفتيش ديني الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذي مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات اميركا الجنوبية يرتحلون الى أوروبا ليدرسوا في جامعاتها ولا يفتشون اسبانيا التي تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلهم بانحطاطها وهيئات ان يعود الى جامعة صامتة الاسبانية - المشهورة في القرون الوسطى بانها احدى الجامعات الأربع التي كانت تفيض النور على عالم النصرانية - بهاؤها ورونقها القديم والمدارس في جنوبي اميركا تسير على خطة المدارس في فرنسا .

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارسمة قراطية

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية في اسبانيا واميركا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا واميركا الوسطى والانتيل وفيليبين وفي مستعمرات اسبانية أخرى زهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتغالية وعدد المتكلمين بهذه اللغة في أوروبا وأميركا نحو ثلاثين مليوناً .

لأن الثروة والتعليم والتهذيب العقلي والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهورا لامة يعيش محروماً كل ذلك والغلاء فاحش في البلاد لا في الكاليات التي تجلب من الخارج بل في الحاجيات وليس للأسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من بيوتهم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم في الاستمتاع بالطبيعة لسماع أصوات الطيور في الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهري عليها على انك ترى في الشعب السذاجة والاستقامة والكرم صفات احتفظ بها .

العامة في الاسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى في اسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملاً صالحاً الا هم الا في بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة في الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادئ الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيين والانكليز والالمان وغيرهم فتراهم يدخلون في كل مكان خاص وعام ويصقون في القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشتمل منها النفس . والطبقة العليا الغنية في الاسبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس في انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتكراسية والبور وكراسية أى الحكم الألهى والدينى والقرطاسى - أو الحكومة التى تدعى بأنها تصدر عن وحى سماوى أو تكون مأخوذة بوازع دينى أو تطيل في أوضاعها ومعاملاتها - من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجندية La Caciquism وليس في الاسبان عيوب متأصلة في عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وقلّة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه الأمراض طارضى . ثم ان الاسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غيرهم ويكرهون الغريب وان أظهروا له على رواية

بعضهم كرمًا ولطفًا وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .
وانا على ما نرى الآن من عيوبهم في قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة
عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات
صالحة للبقاء وهي الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل
الى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية في هزلهم واستكانتهم
وتبلغهم بميسور العيش وأنبعاث همهم الى أقصى مراميها . والاسباني ولا سيما
في الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم
في المدن والقرى يجتمعون أولادًا ونساء ورجالا على الابواب وفي منعطفات
الطرق ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك في قرية كبيرة من قرى الشام تبرنط
أهلها فقط أى لبسوا البرانيط أو البراطيل أو القبعات وأحسن ما فيهم كثرة النسل
ومنه مادة نجاحهم في المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعي
في المجتمع وتضطر الناس الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء

ان الامة الاسبانية التي وحدث قواها فطردت العرب في القرون الوسطى
ثم وحدث قواها في القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيين على عهد
نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا انصفنا وطيفتها في تينك الوقعتين المهمتين بيد أن
من عيوبها أنها لا تستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها
ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت لخدمتها نفسها بامتلاك الريف
وحرب أهله في مراکش ففشل جيشها وكان مؤلفاً من ثمانية عشر ألفاً أسرمع
قواده وضباطه فعادت اسبانيا وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى
مئة ألف مقاتل وما تدري أيلتئم أنتصارهم على هؤلاء البدو على ما في نفوسهم
من شتم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن ؟
واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى . واذا استولى
الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه الى أقصاه لا يساوى جزءاً من
المال والدم المهراق وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتقال بعرب العرب

١١١

ليس بين اسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة ايبيريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم في لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم في لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وواب وباجة وطبيرة وقلدرية وشنت مارية كما رسخت في برشلونة وطارخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادي آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ماتخلص من حكم العرب في القرن السادس .

ولم يشتهر البورتقاليون كثيراً في كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون في الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتقاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من آجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتقاليين في شبه جزيرة ايبيريا ثانوياً - بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً في اللغة البورتقالية أقل منها في اللغة الاسبانية وتأصات فيهم عادات العرب أقل من تأصلها في جيرانهم غزا العرب البورتقاليين في الزمن الذي غزوا فيه الاسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرت بهم كما فعل اخوانهم في بلاد اسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية في المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايبيريا ومن جملتها بلاد البورتقال فاورشها هو وأخلافه عمراناً وثروة وبلغت لشبونة (اشبونة) عاصمتها أقصى مراقي العمران في أيامهم ولم

تسكن بالبلد الطيب قبل العرب ، وما لبث البورتقاليون أن ألغوا حكومة لهم في بلاد الجلالة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتي قشتالة واراغون جنباً الى جنب في قتال العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا افيلا وصلمنكة سنة ٣٩٩هـ وافتتح الفونس الخامس جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ - ١٠٢٧ وسنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين^(١) وشنتره وفي سبتي ٥٥٣ و ٥٧٣ توسع البورتقاليون في فتوحهم وفي سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون في السنة التالية ٥٨٥ - ١١٩٠ م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهي من كبار مدن المسامين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وساموا ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطروا ابن الريق () مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأطاعه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها ثم عاد المسامون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م ففقدوا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ، وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهماً من بلادهم وغلبوا

(١) قال الاصطخرى في كتاب الاقاليم : وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع الغبر ولا يعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع غير الابشترين . . . ويقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لون الحر لونه لون الذهب لا يعادر منه شيئاً وهو عزيز قليل فيجمع منه وينسج منه ثياباً فينلون في اليوم الوانا ويحجر عليها ملوك بني أمية فلا تمقل الاسرا وتريد قيمة الثوب على الف دينار لمرته وحسنه اه قلدا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ في وقعة العقاب التي أفضت كما قال ابن الأبار إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها حتى استولت عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هـ جيش مؤلف من الصليبيين الفرنسيين والانسكليز والالمان والمالماندين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبي من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلوين الذين بقوا في لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية ، وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الالنادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الفارة كما يحسنون الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقوا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمساً وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خالصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم تترك البورتقال مجالاً لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .

ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايبريا أخذوا يتوسعون في فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولا سيما طنجة وأرسلوا الى بر العدو من الجند بقدر ما كان أهل بر العدو يرسلون منه نجدة لاخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل في الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير الى ان الاسبانيين والبرتقاليين كثيراً ما كانوا يستنصرون بحيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسيين لمعاونة اسبانيا على العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفي سنة ٦٠٨ قصد

صاحب الاندلس قلعة عظيمة للافرنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضيق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرغبة فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم مستنفر عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بالغ تقيده الى القسطنطينية ووافقه صاحب ارغون في سنة ١٢١٠ م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا اينوسان الثالث جميع امم أوروبا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرنات ستون ألف مسيحي لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة في سنة ٥٩١ هـ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلاً وأقسم انه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن الأندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغون وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال حكومات ايطاليا وفرنسا . ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف في تلك الارمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره ، ثم ان الحروب الصليبية التي دامت نحو قرنين أخرت قليلاً اخراج العرب من الاندلس ولو سيرت عليها بعض القوة التي سيرتها الى الأرض المقدسة لما طال حكم العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتقال تعتبر شريفاً كل يرتقالي أسره العرب ولم يصبأ عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب في وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التي كتب فيها النصر للبرتقالين ولا تعد في الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبرتقال مع العرب .

وما برحت البرتقال تن من سلطة رجال الدين أنين جارتها اسبانيا وهي في يد الباباوات كالتاتم في يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة

بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة
اليسوعية من بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات
انتقاما منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم في قتل فريرا رجل الاسبان
الحر وكانوا قتلوه بمساعيمهم لدى الحكومة على أبشع صورة عرفت في عصر النور
والمدينة فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكي
ولها اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون
نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون في ٩١٩٤٨ كيلو متراً ولا
تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال في مدينة شنتره ، وبجانب بعضها
مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها
ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب
وصورة الهلال والقسم الذي كانت تسكنه العرب في لشبونة يعرف عندهم باسم
الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الغاما ومنظر
هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra
المعروفة في كتب العرب باسم قلدرية . وهي الآن دار العلم ومحط المعارف
في بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها في كتب العرب بورتقال وبها يسمى
هذا القطر بورتقال . وفي هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربى
وتقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا في ضمن رسومها
اشعاراً عربية . وفي متحف لشبونة على ما حدثنى به الثقة كثير من الآثار العربية
ولا سيما ما أخذه الالمان من الشام قبل الحرب الاخيرة فوقع في أيدي الحلفاء
فاعطوا السفينة الالمانية وما حوت للبورتقال لانها أسرت في بحرها وذلك من جملة
مكافآتهم لها على محاربتها في صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفاً من رجالها .

برلين

١١٢

كنت أود أن أرى انكلترا وألمانيا بعيني من عرفهما مباشرة لا بالواسطة وان اسمع الانكليزي والالماني يتكلمان بافهما فافهما وأجيب على كلامهما دون أن أعمد الى اللغة الافرنسية . واذا سهل التخاطب بهذه اللغة مع خاصة الانكليز والالمان وغيرهم من شعوب الغرب فيتعذر التفاهم مع العامة من جمهور تلك الامم الا بواسطة ترجمان والترجمة يصعب أن تؤدي الروح الحقيقية في المخاطب والمخاطب . وأن روح الامة لتتجلى لاسأخ بالاحتكاك بالخاصة والعامة وربما أخذ عن العامة مالا يقيسرله أخذه عن الخاصة ولذلك سأغلب أن نقول اننا في البلاد التي ينطق أهلها باللغة الافرنسية كأننا في بيوتنا وفي غيرها غرباء .

عرفنا الالمان بما كتبه عنهم الفرنسيون في الكتب والمجلات والصحف . وفي ذلك الغناء في معنى ادراك مقومات هذه الامة ومشخصاتها . ولكننا نشعر أن هناك أموراً يتعذر إصدار الحكم الصحيح عليها دون الوقوف على أسرار لغتهم والنزول عليهم اشهرأ طويلة والاحتكاك باهل الطبقات المختلفة منهم وقد يهتم الشرق في الغرب بامور لا تحفل بها الغربي قال مونو المؤرخ الفرنسي (١٨٤٤ - ١٩١٢) أن المانيا الوطن الثاني لجميع الرجال الذين يدرسون ويفكرون . قصيت أحد وعشرين يوماً في زيارة برلين وليبسيك وهالي ومونيخ أشاهد نموذجات من معاهدها ومشاهدها ومكاتبها ومتاحفها وما أظن هذه الأيام تكفي لاستبطان عوامل الحياة المنبثة في هذا الشعب الذي جعل العلم رائده وقائده في كل حركة من حركاته . وبتأثيره جدد شبابه بمد الهرم وجمع شمله وقد أنبت منذ القدم .

أثرت الحرب العامة الاخيرة في الغالب والمغلوب من أمم الغرب على أنهم كلهم

مغلوبون في نظر العقل الصحيح بما صرفوه من الرجال والمال وخربوه من العمران .
ولقد أثرت عوازل الحرب بالمتحاربين والمتحايدين . وهل العالم الا سلسلة اذا
اهتز منها جانب تأثرت له سائر الجوانب ، ولذلك ترى الضعف باديا الآن في بعض
أوضاع ألمانيا كسككها الحديدية وتراوواياتها وطرقها . فقد كانت برلين قبل
الحرب تفصل شوارعها كل يوم بالماء والمطهرات وهي الآن قدرة بالنسبة لنظافتها
السابقة لا قياساً لها مع عواصم الممالك الأخرى وكان يريد لها وأسباب مواصلاتها
مثلاً سائراً في النظام فلما كثر اعتصاب العملة لسقوط أسعار الورق المالى أصيبت
بالخلل والشلل أحياناً .

كل شئ جديد في عاصمة بروسيا بل عاصمة جرمانيا لانها هي جديدة وقل
أن ترى فيها بناء عمره أكثر من عمر الانسان المعمر .

أدخل الى متحف من متاحفها يشتغل نظرك وعقلك في أسلوب البناء أكثر
مما يشتغلان بما حوى من التحف والعاديات كأن أبنيتهم الجديدة ألشئت على
غير مثال وكلها نموذج من العلم العملى والنظام الغريب .

شوارع برلين وجاداتها وأسواقها على نمط متوافر متساوق لانها قامت في وقت
واحد على تخطيط جرى التصميم عليه لاول اختطاطها فلم يحيدوا عنه قيد غلوة
والحال ليست كذلك في لوندرا وباريز مثلاً فانهما أنشئتا مع الزمن الطويل على
أساليب مختلفة . وشتان بين ما تجده من القدم الداعى الى التفكير والتأثر وبين
ما تجده من الحداثة وما يتبعها من اللطافة والنضارة . ولقد شبه أحد أصدقائنا
من علماء الترك برلين وباريز بشخصين أحدهما حديث النعمة بحسن زته وما يبدو
عاليه من الذهب والماس والآخر عريق في المجد لا يبالي أي شئ اكتسى ويبعد
عن الزينة ما أمكن .

قال هوره^(١) لا يعتبر الالمان برلين فقط عاصمتهم بل ان كولون وليبسيك
وهمبورغ ودرسله ومونيخ وجميع المدن القديمة لا تعترف لها بالارجحية

عليها أما أنا فأحب عاصمة بروسيا لأنها تسر وفيها قد توفرت اسباب الحياة والظرف والقرى وابتهج بمنظرها اللامع الجديد وبشوارعها الحديثة وواجهات أبنيتها البيضاء وشرقاتها المفضضة وزهورها وبيوتها الطريفة التي أخذت بحظ وافر من الجمال والنور والتنويع والتعريش مما يأخذ كله بمجامع قلبي . أما المدن القديمة فانها أيضاً تخلق الالباب كأنها الملكات ويرغب المرء في زيارتها أحياناً للاستراحة من طفولية الشباب المفرطة . وهذا حال باريز فانها حوت المزيتين تقدم لرائرها ما خلا لطائف التاريخ والصناعة ما يفتن الفؤاد ويأخذ بالقلب من أسباب السرور والتجديد . أما في المدن التي فيها ما يعجب ولا سيما قدمها فان الغرباء يصرفون فيها بعض أيام عطلة سريعة ولا يسكنون فيها مختارين دع المرضى والمنهوك قواهم ممن عساهم ينزلونها اذ يجدون فيها وفيما حوت من العادات الميته أو العتيقة نفمة قد تنجع في مداواة اجسامهم وقواهم . أما برلين فانها على العكس من هذا وذاك لان المدن الحديثة جداً تشبه الفتيات اللاتي في السابعة عشرة من عمرهن فهن على نضارتهم وحدثتهن لم يستوفين شروط الكمال . أن من يدخل برلين من عشاق الفنون يشهد فيها بمجموعة قد يأتي على رؤيتها في مدة قصيرة ولكنه مع ذلك يراها مملوءة بأسباب المرغبات في البقاء ويهتم لها كل من يحب الحياة ويعتقد في المستقبل

قال وأن برلين لتزيد كل يوم اتساعاً بما ينشأ فيها كل سنة من عشرات من الشوارع الحديثة حتى أن البيت لا يكاد ينجز بناؤه حتى يسكن وحذراً من رطوبة البناء يوقدون فيه مدة ثمانية أيام ناراً كثيرة قوية فيحف البناء ويخلص النازلون فيه من الخطر . وفي برلين شوارع طولها ١٢ كيلومتراً ولا تجد من يفاخر بها . وهذا مما يعجب منه لما فيه من الجرأة والثقة بالنفس والاعتماد على المستقبل والاحتياط وحسن الاسلوب الذي يتطلبه مثل هذا العمل . اذا رأيت هذه الشوارع ظننت نفسك في أميركا تزور مدينة حديثة من مدنها . والبلدان التي كانت تعد ريفاً وضاحية لبرلين مثل شارلوتنبورغ ويلمرسدروف وبانكوف وريكسدروف

وغيرها أصبحت بما لها من الحقائق والحقول بيوتاً ومخازن وأما كن عامة حتى أغنى من الاراضى من كان بالامس يزرع البطاطا والشوندر فى ارضه فاصبح من اصحاب الملايين بما باعه منها وقد بلغ ثمن المتر الواحد من الأرض فى حى المخازن الكبرى خمسة آلاف فرنك ذهب والمتر الذى كان يباع فى الضواحي بعشرة ماركات اصبح يباع بثلاثمائة فرنك .

يصرف العملة والمستخدمون أيام الآحاد فى الضواحي ولذلك تفص البحيرات والغابات والشوارع بالعمامة أما الخاصة ممن يحترمون انفسهم فلا يخرجون فى ذلك اليوم ليتركوا المجال لغيرهم واجور التنقل فى السكك الحديدية والتراموايات رخيصة للغاية وتجتمع الأسر البعيدة والشبان يتغنون باناشيد عسكرية حماسية والنظافة بادية على الجميع والنظام يتدفق من اطرافهم وكذلك حسن الذوق والادب . ولا يلتفت أحد الى أحد بل كل امرئ مشغول بنفسه واذا رأى الانسان أحد معارفه من بعيد حياه أحسن تحية وربما ساءوا على الغريب سلام تعظيم واحترام يفعل ذلك رجالهم ونساؤهم واولادهم وبناتهم ويحمل كل واحد مظلمته ورزمة بالقماش المشمع فيها خبز وحلويات وقهوة وسكر ويتناون للقهوة من المطعم ماء حارا بفلس أو فلسين فيطبخون فيه قهوتهم ومنهم من يذهب الى حانات الجمعة ومنها ما يسع عشرة آلاف متزه ومن الحقائق فى الضواحي ما تضرب فيه الجوقات الموسيقية .

وفى أي ساعة دخلت المطاعم والحانات والمقاهى فى برلين تجد فيها أناساً وأسرار مع أن الأسرة الالمانية عرفت بحبها لبيوتها وكنها كالأسرّة الانكليزية . والحقيقة أن هذه الأسر الى نشاهدها ساكنة فى أماكن بعيدة تضرب لها موعداً فى أحد هذه المحال لتتزاور مع من تحب ثم ينصرف كل واحد من أعضائها الى عمله .

وحدثنى الثقة أن الالماني يدعو صاحبه بالحاح الى تناول الجمعة معاً وعند

أداء قيمة ما يشربان يدفع كل منهما عن نفسه ولسان حالهم المثل الا فرنجي :
« كل لنفسه والله للجميع » بمعنى أن الدعوة تكون للمباشطة والمفاكة فقط
لا ليكرم أحدهما الآخر بشيء من المال يغرمه وكأس يشربها بل قد تأملت
فيهم هذه العادة بعد الحرب الاخيرة فاصبح الشاب والشابة اذا تصاحبا ينفق
كل منهما على نفسه في دقيق النفقة وجليلها وكلاهما يستمتع بصاحبه خلافاً لعادة
الامم كلها في ان الرجال قوامون على النساء . والرجل ولا سيما في الغرب اذا لقي
المرأة التي يعرفها معرفة بسيطة يتولى اكرامها واطعامها وليس من العادة أن تنفق
هي على طعامها وشرابها اذا صحبت الرجل مهما كانت منزلته منها

الالمان يحبون الزهور للغاية فمذ شهر ايار ترى الزهور مبسوطة على الابنية
والدور والفنادق غنيها وفقيرها من أول برلين الى آخرها وفي حي العملة يتنزه
الانسان في الصيف بين حائطين مزهرين علوها عشرون مترا وكلها من الزهور
المختلفة والبلدية تكافيء من يحسن زراعة الزهور ويتوفر على خدمتها أكثر من
غيره ولذلك صبح أن تسمى المانيا لا برلين وحدها « مملكة الزهور العطرة
والورود المعرشة » لان الزهور لا تعدم منها إلا عند كلب الشتاء وتجليد المياه .

قالت مدام دي ستايل : ترى الحدائق جميلة في بعض بلاد المانيا كما هي
في انكلترا والعناية البالغة التي تصرف أبداً في الحدائق تدل على شدة ولوع القوم
بالطبيعة . تجد في انكلترا دوراً بسيطة للغاية قامت وسط الحدائق الأنيقة
وصاحب الحديقة يهمل العناية بمسكنه ويزين حديقته وبستانه . هذا التناقض
وهذه السذاجة إذا اجتمعتا فلا توجدان حقيقة على نسبة واحدة في المانيا
ولكنك ترى في مجموع الفقراء واصحاب الاقطاعات ضرباً من ضروب الحب
للجمال الذي لا يلبث ان يورث الحريص عليه ذوقاً ولطفاً لانه المنبع الحقيقي لها .
هذا بعض ما عرفته وعرفه غيري في برلين من أسباب الراحة والهناء . أما
التي يرى مثلها في كل بلدة أوربية من التمثيل والغناء والرقص فهو فخم في موضوعه

أيضاً فيه الروح العسكرية والنظام الغريب . وكم من دار تمثيل أو مقهى أو مرقص يشبه قصور الملوك . وأسأل الله السلامة اذا وقعت الى مسرح من مسارحهم أو مرقص من مراقصهم فترى جمال الصناعة الى جمال الطبيعة الى جمال الهندام والنظام فيهرك ما ترى وتسمع وتقدر في نفسك حالة القوم قبيل الحرب قبل أن يفقدوا رجلاً من رجالهم أو درهماً من أموالهم أو شبراً من أرضهم وديارهم .

المانيا الاقتصادية

١١٣

اختلفت بعد الحرب جميع القواعد الاقتصادية في الممالك الاوربية ولحق من ذلك بلاد المانيا قسط وافر لما أخذه ولا يزال يستوفيه منها دول الحلفاء من الغرامات والتعويضات ولذلك يصعب إعطاء حكم سليم على هذه الامة وعلى ثروتها من النقد وغاية ما يحدث به من هذا القبيل شؤون لها وقعت قبل الحرب وبه يحكمون عليها. والحاضر مهما انحط تجد فيه شيئاً من روح الغابر .

قالوا ان العمل قوة توجد نجاح الامة وتزيده^(١) ونعنى بذلك العمل اليدوى كما نعنى العمل العقلى الذى يقوم به العلماء .

الانسان منتج العمل وفي الحكومات هو الشعب . ونتيجة العمل انتاج الثروة ويزيد ربح العمل بقدر تنظيم الأدوات الفنية وزيادة الربح في العمل يتجلى في الامة بارقام محصولاتها وحركتها الاقتصادية وغاية العمل في دائرة الاقتصاد والاستهلاك ويتألف من زيادة ريع المحصول على النفقة اللازمة مقدار دخل أمة وزيادة دخل أمة على استهلاكها يمثل زيادة ثروة الامة وطموح الامة في اقتصادياتها

(١) نجاح المانيا الوطنى من سنة ١٨٨٨ الى ١٩١٣ لهفرش

Hefferich : La prospérité nationale de l'Allemagne de 1888 à 1913

هو نجاحها بزيادة عملها ثم بزيادة دخلها بحيث تستطيع تحسين حالتها الحيوية وأن تقوم بحاجياتها المادية والعقلية وترفع مستوى نجاحها

ان حركة الشعب في بلاد هو العامل الاول في تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعقلي . ونمو الشعب في مملكة يكون بزيادة قواه العاملة وقوته السياسية وتوسعته مسائله الاجتماعية والعقلية والادبية . ونمو أمة يسئلزم بزيادة دخل العمل الذي يضمن لها ما يلزم لبقائها كان سكان البلاد التي تدخل اليوم في أراضي جمهورية المانيا سنة ١٨١٦ - نحو خمسة وعشرين مليوناً فأصبحوا سنة ١٨٧١ أحد وأربعين مليوناً وفي سنة ١٨٨٨ ثمانية وأربعين مليوناً وبلغوا في احصاء قبل الحرب ستة وستين مليوناً ومن ذاك العهد بلغت زيادة الواردات نحو ٨٠٠٠٠٠ بالنسبة لعدد السكان . وتكثر هذه النسبة في المانيا عن سائر ممالك أوربا ماعدا روسيا . فنشأت قلة هلاك الناس من تحسين التغذية والحالة الصحية وتقليل الاعمال الشاقة .

التفتت المانيا لاول نهضتها الى الزراعة وكانت اذ ذاك بحالة نستطيع معها أن تخرج من صادراتها ولا سيما الحنطة الى البلاد المجاورة كانكلتراوهولاندة وبلاد السكندينايفافكثر المال بين أيدي المزارعين ولا سيما في شمالي المانيا وتبسط القوم في القرى فكثر النفوس كثرة هائلة وتوفرت المقايضات والمواصلات وزادت الطرق وكثرت سرعة البرد . وقد أنشئ في المانيا سنة ١٨٣٥ أول خط حديد بين نورمبرغ وفورت وبعد عشر سنين بلغ مامت منها ٢١٣١ كيلومتراً وبعد سنة ١٨٤٨ أي عقيب الازمة الكبرى التي أصيبت بها البلاد استعادت المانيا قوتها وانها لعلها المال وزادت أسعار الاراضي بعد نزولها وظلت المانيا هكذا في ازدياد باعمالها الاقتصادية الى حرب السبعين فأست في خلال ذلك بعض مصارفها المهمة وعدنت مناجها واشتغلت معاملمها وأنشئت خطوطها الحديدية وبعد تلك الحرب كثر فيها الاعمال الاقتصادية وتأسست الشركات . وكانت السنين التالية أعوام رخاء ونماء لم يعهد لها نظير في تاريخ الاقتصاد الالماني

أن القاعدة السكاية في مسألة جمع رؤوس الاموال على الاسلوب الحديث والاستكثار أبدأ منها وتنمية مساحة المعامل والمصانع والمعاهد على أنواعها وجمع جيوش متكاثرة من العملة واستخراج كمية أكبر من البضائع قد تحقق في المانيا على صورة باهرة فنمت مصارفها في برهة قليلة على نسبة خارقة للعادة وكذلك أسباب المواصلات ومشاريع صلاتها وتجارتها على الخطوط الحديدية والطرق النهرية والبحرية ومكاتب ريدها وبرقها وهاتفها وصناعاتها الكبرى من كل نوع وكثرت خطوطها الحديدية حتى بلغت سنة ١٩٠٠ - ٩٦ ألف كيلو متر كان دخلها اذ ذاك نصف مليار مارك ذهباً في السنة وقد صرف عليها ١٤ ملياراً وهكذا نجحت في كل فرع من فروع العمل والانتاج .

قال لشتنبرجه : ان القرن العشرين زاد في استيلاء الانسان على الامور زيادة كبرى فعمل ونجح في عمله ما فيه ادخال الحياة تدريجياً في طور العقل ووفر الثروة المادية نوفاً كبيراً وحل مشكلة اعاشة ستين مليوناً من البشر في أرض المانيا على حين لم يكن في هذه البقعة نفسها أوائل القرن التاسع عشر ما يقوم باعاشة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً وعلى صورة كانت أشق مما هي عليه اليوم فاستحوالت مملكة فقيرة زراعية الى معمل كبير مجهز بالعدد الصناعية والتجارية التامة الى التي ما بعدها . وهي تقوم بفضل حذق عملتها ورؤوس أموال أغنيائها و ثروتهم المحصلة والالمان يعجبون وحق لهم العجب بما فيهم من صفات الاجتهاد والثبات في العمل والنزاهة في العلم والنظام وحسن التدريب والترتيب خصوصاً وهي صفات مكنتهم من أحراز مقام عال بين الامم الصناعية الحديثة ومن مجازاة الممالك في الجهاد العام اه .

نعم أن ارتقاء الصناعات الالمانية قد جعل المانيا المعمل الاكبر للعالم اذا وقفت حركته وقف العالم وقد ظهر ذلك عقبى الحرب فلما كانت المانيا والممالك الوسطى في أوربلا محصورة كان العالم في ضيق شديد حتى اذا فتحت حدودها وصدرت مصنوعاتها انفرج العالم وأي فرج . خذ لذلك الكتب فان المانيا

وحدها تطبع نصف ما يطبع منها في العالم بأسره ونصف هذا النصف أى ربع كتب العالم تطبع في ليبسيك فلم يكن في أوائل القرن الماضى عدد المصنفات الجديدة التى تصدر في المانيا سوى ٣٩٠٠ — فاصبحت سنة ١٩٠٠ — ٢٤٧٩٢ وفى سنة ١٩٠٥ ٢٨ و ٨٨٦ وفى سنة ١٩٢١ ٣٢ و ٣٢٥ كتاباً على حين طبعت أميركا في هذه السنة ٨ و ٣٢٩ كتاباً وانجلترا ١١ و ٦٢٦ كتاباً . وكان في المانيا سنة ١٩٠٥ — ٧١٥٢ كتبياً يصدرون الى البلاد الخارجية كتباً قيمتها مائتان وتسعون مليون مارك . وقد أصدرت المانيا الى انجلترا فقط خلال ثلاثة أشهر عقيب الهدنة ١٨١٨ من الكتب ملايمته خمسمائة مليون مارك وفي المانيا زهاء ثمانية آلاف صحيفة يومية وشهرية وأسبوعية .

ولا عجب فقد قيل أن علم الاقتصاد كان قديماً يستند فقط الى العرف والتجربة وما النجاح الهائل الذى أحرزه العلم الاقتصادى الحديث الا منبعت من انتشار العلوم الطبيعية انتشاراً خارقاً للعادة ولتطبيق النتائج العلمية على العمل الاقتصادى فان العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الكهرباءية وهى من متعلقات العلمين السابقين قد تسابقت في هذا المضمار وأثر كل منهما جد التأثير في تبديل الادوات الاقتصادية وكان ذلك بفضل المفكرين والعلماء من الالمان الذين فتحوا في هذه العلوم طرقاً جديدة وجددوا انساع العلوم الطبيعية بما اكتشفوه من قانون حفظ القوة ولم يكتف الالمان من هذا العلم بنظرياته المجردة بل صار هذا الشعب المشهور بأنه شعب شعر وعلم خلال القرن الاخير أمة عملية موجدة وهذا الاشتراك بين الذكاء والعلم والارادة قاد المانيا الى أرقى درجات النجاح .

كان من نتائج انتشار العلوم الطبيعية وارتقاء العلم في نواميس الحركة منذ القرن الثامن عشر ان يتوسع في استعمال الادوات كأدوات الحياة والصناعات الميكانيكية وآلات الاستخراج والتعدين والمضخات وغيرها وباستخدام القوى الجديدة المحركة من البخار أولاً والكهرباء آخراً ومن استعمال القوى المفجرة عم استعمال الادوات وانصرفت الهمم الى اتقانها لاجرم أن آلة البخار اخترعت

في القرن الثامن عشر ولكنهم لم تكمل الا في القرن التاسع كما لاكثر معه استخدامها في الجملة . وبذخ الترقى الذي حدث في البخار مثل زيادة احماه والتوربين هما من مكتشفات العهد الاخير . وساعد المانيا على ارتقاءها غناها بمعادنها فيها الحديد والذهب والفضة والقصدير والكاولين وغيرها من المعادن . ولم تكن المجارى الكهربية منتفعا بها حق الانفعا في الابعاد الشاسعة وبدأت الحركة باختراع التلغراف الكهربي نحو سنة ١٨٣٠ ثم باختراع الهاتف بعد ثلاثين سنة وفي ايامنا اخترع التلغراف والهاتف اللاسلكي . وكان لعملاء الالمان وأهل الصناعات منهم اليد الطولى في هذه الاختراعات وفي اكمال البرق والهاتف واستعمالها استعمالاً عملياً وقد راعوا في كل ذلك ولا سيما في انتقال القوة الكهربية والغازية والحركة الى الابعاد الشاسعة قلة النفقة والاقتصاد من عمل الايدي وبذلك بدأت المستنقعات والبطائح في بلاد المانيا تجفف وتعود صالحة للزراعة

وأن التوفيق الذي وقع في امكان جمع قوة ضخمة وذلك باجتماع القوة البخارية وتوزيع القوة الحادثة منها من محطة مركزية الى عدد كبير من المراكز المختلفة قد فتح لصنع الآلات ميداناً للعمل لا نهاية له فأنشئت أدوات لم تكن تعرف للتعدين والحديد والنسيج والورق والزراعة وما يتبعها وعمل عدة الالكحول والجمعة والسكر والصناعات الكيماوية وساعد ذلك كل المساعدة على ازدياد أسباب النقل بحراً وبراً وعلى سير السيارات والمجالات الكهربية وعربات الركاب والبضائع وأسباب النقل في الماء في قوارب متحركة بذاتها حتى السفن التجارية والبوارج الحربية الضخمة واختراع المحرك الخفيف ذى الوقود قد مكن من اختراق الهواء في الطيارات والمناطيد وبهذين الاختراعين حققت الآمال التي طالما حامت حولها أفكار بني الانسان منذ ألوف من السنين .

وانتشار الكيمياء أكمل على أتبع وجه الاختراعات الطبيعية والكهربية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ودرس المادة تأليفها وتبدلها درساً علمياً قد أثر

في الحياة الاقتصادية عندما ظهر علم فسيولوجيا النبات والكيمياء الزراعية وهي الاصل في النظرية الحديثة للسماد وبذلك ارتقت الزراعة الى حد لانهاية له في المانيا . ولئن كان أساس هذه العلوم قد وضع في النصف الاول من القرن التاسع عشر ولكنها لم توضع موضع العمل الحقيقي الا في الثلاثين سنة الاخيرة ولما عرفت مكانة الحامض الفوسفوري والبوتاس والازوت لحفظ القوة المنتجة في التربة وزيادتها وكانت هذه المواد مهمة الى ذلك العهد أصبح لها شأن مهم وقيمة عالية . وفي المانيا معادن مهمة من البوتاس تكاد تكون منقطعة القرن في الارض . وقد شرعت المانيا تحسن الانتفاع مما ضمنته اولاذ تربتها من المعادن في الصناعة والزراعة على مقياس سارت فيه سيرا عظيما وان المانيا بما تستخرجه من المواد القطرانية هي في الدرجة الاولى بين الامم لارتقا أساليبها العلمية وأهم ما تستخرجه من القطران ألوان الانيلين والاليزادين والمستحضرات الصيدلية مثل الاسبيرين والفيناسيتين والسكرارين وسائر أنواع الزيوت القطرانية هذه نبذة في حال المانيا الاقتصادية وجهادها في مضمار الحياة المادية وقد ساعدها على ما هي فيه مزج كل شيء بالعلم وكل علم بالعمل بحيث يتراءى لك ان سماء بلادها وأرضها تعمل عملا متساوقا متقنا .

العلم والعمل

١١٤

قال أحد الالمان لرجل من الفرنسيين اننا من عدة وجوه متأخرون عنكم فقد كانت بلادنا التمسعة مدة ثلاثة قرون مساحة حرب أوربا . أتذكرون أن الفرنسيين كانوا إذا فكروا في مسألة عرش النمسا وغوستاف أدولف إذا أحب أن يصبح رئيس حزب البرتستانت ولويس الرابع عشر إذا نشأت له بعض

صعوبات مع الامبراطور كانوا كلهم ينزلون أرضنا ويقتتلون على أديمها فتخرب على الدوام فكنا فقراء بينا كنتم معاشر الفرنسيين آخذين بأسباب النجاح والترقي . قلنا ومعظم تخريبات الحرب الاخيرة لم تكن هذه المرة في أرض المانيا بل في بلاد الحلفاء من الفرنسيين والبلجيكيين والروس فتغيرت تلك النظرية . وقد تداركت المانيا ما فيها من نقص وحتت نفسها وبسطت سلطانها بالمدرسة والثكنة . وجعل اليوم المعمل بدل الثكنة ولا يزال الالماني كما كان قبل الحرب الا قليلا يعيش موسعاً عليه وياً كل كثيراً ويؤوى الى مسكن حسن للغاية والعامل فيهم يكتسى أحسن من ثياب صاحب الاملاك في الامم الاخرى ويستحم على الاقل مرة في الاسبوع . ومن المدن مائة عطي لاعضاء بلدياتها رواتب الوزراء . وفي كل محل ترى صناديق الضمانات تعمل عملها مع المرضى والزمنى والشيوخ كما تشاهد ملاحى للناقبين وعشرات من المعاهدين تشبهها . وليس في الطرق شحاذون والفقراء يؤخذ بأيديهم ويعالون بعض الشيء أو يستخدمون . ومن الناس في المانيا من يبتاعون أحياناً بعض رفاهيتهم بالدين وللكثير من البيوت أنثاء حسن لم يؤد أهله نعمة . وكثير من مدنها كانت تقترض ملايين للنشىء بها دور تمثيل وتنصب في ساحاتها التماثيل والنصب فالالمانى يستمتع بالحياة وربما تعجل الرفاهية

ولقد وضعت الحكومة يدها في المانيا بعد الحرب على المساكن الفارغة في المدن فصارت لا تكرىها إلا لمن كان له عيال تؤثرهم على غيرهم من العزب فحملت بذلك الناس على الزواج من طرف خفى ثم لما امتلأت الدور في بعض المدن أعلنت أنها لا تتعهد بعد الآن بمسكن لصاحب أسرة يتطابه منها فأخذ الفتيان في بعض الامارات ولا سيما في بافاريا يتزوجون في الثامنة عشرة من عمرهم حتى يولد لهم ويسدوا نقص الامة ويستعيضوا عمن فقدت من أبنائها في الحرب وبذلك أصبحت المانيا تزيد في السنة نحو مليون نسمة وناهيك بهذه الزيادة بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكل من يصلح للعمل في المعمل أو في الحقل ينال رزقه في الحال

ولذلك قل- أن ترى في المانيا عطلا من عمل أو رجلا ضاقت عليه أوجه الحيل لاستحصال معاشه .

كانت الهجرة قبل الحرب كثيرة من ألمانيا الى أميركا وغيرها وزيادة المواليد على الوفيات كانت تسد الخلل ومازال بضعة ملايين من الالمان في شمالي أميركا محتفظين الا قليلا بلغتهم ومشخصاتهم ولهم هناك جرائدهم ومدارسهم . ولا لمانيا منذ القديم معرفة باستعمار الارض وتكثير السلح حتى أعطى ملوك بروسيا أراضي اربعمائة الف مهاجر فرنساوي وسالشبورغي وسوسنباني ممن كانوا يغادرون أرضهم هرباً من الاضطهاد الديني في بلادهم الاصلية فأسكنوهم في البلاد القليلة السكان في بروسيا الشرقية فأصبحوا الماناً مع الزمن واليوم نرى حكام المانيا يحاولون ارجاع قسم من سكان المدن الى الارياف والارباض ليتوفروا على الزراعة ولا يحملوا المدن فوق طاقتها

من كان ينزل المانيا قبل الحرب الاخيرة لم ير غير جند يتنقل ، وضباطاً تنزل وترحل ، كأن البلاد في حالة حرب فلما نارت الحرب العامة وغلب ذاك الجيش الالمانى العجيب بتدريبيه وقوته على ما شهد له بذلك خصومه أصبحت لا ترى للجندية تلك الروح التي بثتها بروسيا في ست وعشرين أماراة المانية ضمتها الى صدرها وجعلتها بعد حرب السمين الفرنسية الالمانية مملكة متحدة الاجزاء قوية الدعائم . بل قد عادت تلك القوة الى السكمون فقد أوقفت المانيا بعد الحرب معامل السلاح والتدمير والاساطيل البحرية والهوائية وقلبها معامل صناعية وارتقاء الصناعة الالمانية كان علة الحرب أو احدى عللها . وكيف تترك انكلترا الاولى في الصنائع لالمانيا كما كانت لها الاولى بجيوشها البرية وكاد يكون لها التقدم في البحرية لو طال السلم بضع سنين أخرى ولم تنشب تلك الحرب الضروس . والتربية كما قال ميلتون لاتعد صالحة الا متى جملت المرء كفوّاً لجميع أعمال السلم والحرب

قال غوستاف لوبون : ما من ينكر على الالمان ذوقهم في العمل ونباتهم وفكرهم

في النظام ووضع الخطط اللازمة له ولا سيما في الأعمال المشتركة . وقال بلغ من ارتقاء الألمان في النشوء الصناعي الحديث ان برزوا في قليل من الزمن من مستوى منحط في الجملة الى أول درجات المدنية . وقال أيضاً : استخدمت انكلترا الحرب لتوسع مملكتها الى أقصى ما يتصور من العظمة وتغلب على الشعوب الضعيفة ارادتها واستبدل في أوروبا فضل تصدرها بتصدر الألمان . وقال أيضاً : لا يروق انكلترا أن ترى في قارة أوروبا دولة قوية تهددها فقد كانت سنة ١٨١٥ هذه الدولة دولة فرنسا وعلى رأسها نابليون وفي سنة ١٩١٥ كانت تلك الدولة ألمانيا وعلى رأسها غليوم .

نشأت الروح البروسية من أربعة عوامل أساسية : «الثكنة» و«المدرسة» و « تأثيرات الفلاسفة » و « حكمة المؤرخين » . عوامل رئيسة عملت عملها عدة أجيال فأنت بتأثيرات مهمة يصعب معها نزع فكرة التسليح من نفوس الألمان بعد أن أصبحت عقيدة ثابتة فيهم حتى قال لوبون : ان الألمان لا يعدلون عن هذه العقيدة عقيدة حمل السلاح أو ينزع المسامون عن الاسلام . وليس في تاريخ العالم شيء من المعتقدات نزع من نفوس معنقيها بقوة السلاح ولا بالبرهان العقلي فان الألمان ينسبون جزءاً من تفوقهم الاقتصادي الى التسليح . يقول « لايبنز » الفيلسوف الألماني : يتأتى بالتربية تغيير ذهنية شعب في أقل من قرن . وهذا الحكم لا يصح في الشعوب التي ثبتت تراكيبها وكان لها ماض طويل فان روح عنصر تمثل شيئاً من معنى البقاء والديمومة وفي التربية تنوجه ملكة الأمة الى معنى معين ولكنها لا تتبدل .

بعد حرب الثلاثين سنة نزل سكان ألمانيا الى النصف وبحروب نابليون بهزت الديون عاتق المدن قرناً من الزمن وأفاس ألوف من البيوت الكبيرة وكانت العروسان بعد واقعة بينا يجمعلان في يديهما خاتمين من حديد بدل الذهب علامة الخطبة وقد نقشا عليه : أعطيت الذهب لأحصل على الحديد .

قلنا ان أول قوة من قوى ألمانيا الحديثة قوة المدرسة فقد كان فيها بحسب احصاء سنة ١٩٠٦ - ١٩١٨ ٦١٨٩٨ مدرسة ابتدائية فيها ٩٣٥٨٩٧٧٩ تلميذاً ولها الآن احدى وعشرون جامعة لا يقل تلامذتها عن ٦٥ ألفاً هذا عدا المدارس الوسطى والصناعية والزراعية والمدارس الفنية العالية ومدارس العميان والزمنى والمعتوهين والصم والبكم والمصابين بالصرع ومدارس الليل للبالغين وغيرها مما يدعو الى تعليم وتربية . وتقسم المدارس في ألمانيا طبقتيين مدارس التربية والمدارس الخاصة أو الصناعية ويدخل في الأولى المدارس الابتدائية والوسطى للذكور والإناث وهي ثلاث درجات مدارس القرى (من الصف الأول الى الرابع) ومدارس المدن من سبعة الى ثمانية صفوف والمدارس الوسطى في المدن الكبرى مع تعليم لغة أجنبية (٩ صفوف) والمدارس الثانوية هي مدارس الذكور ذات تسعة صفوف وأربع لغات أجنبية ومدارس الإناث مع أربع لغات أجنبية ومدارس أخرى ذات تسعة صفوف ومنها ما يدرس ثلاث لغات أجنبية ومنها لغتين والمدارس المنظمة على طريقة فرنكفورت والمدارس الثانوية للبنات مع لغتين أجنبيتين وهي ذات تسعة أو عشرة صفوف هذا ما عدا المدارس الصناعية وما عدا مدارس المعلمين والمعلمات التي تناهز ٣٠٠ مدرسة عالية ووسطى ولا يقل تلامذة المدارس الدنيا والوسطى والعليا على اختلاف فروعها وأسمائها عن عشرة ملايين وناهيك بذلك من قوة لا مثيل لها في المغرب اللهم الا في الولايات المتحدة .

بدأت ألمانيا ^(١) في أوائل القرن التاسع عشر بقيام الفيلسوف فيختي وهيغل لاصلاح التعليم وما أنشأه من الأوضاع العلمية التي حملت الحكومة على تولى ادارة التعليم بدل الكنيسة وأخذها على طاعتها تنسيقه ومراقبته ونشره على اختلاف درجاته ورأت الامة من واجبها أن تحمي المساكين والضعفاء خاصة وتدفع عنهم عوادي الهلاك وأسواء الفساد الادبي وتعد اليهم أيدي المعونة في الازمات وتقيم مقعدهات العجز والزمانة فكان نجاح التعليم العام وتنظيم التضامن الاجتماعي

أول ما بذلت الحكومة الألمانية عنايتها به فبعد أن كانت المدارس اللاتينية والكلديات تخرج في القرون السالفة رهباناً ولاهوتيين نزعت عن التعليم صبغته الدينية فأصبحت مجامع علمية لا يتصدر فيها اللاهوتيون ولا الفلاسفة واللغويون كما كانوا أوائل القرن الماضي بل يتصدر فيها رجال العلم والأطباء . ثم نزع التعليم من يد الكنيسة بتحريض بستا لوزي أحد كبار علماء التربية فيهم (١٧٤٦—١٨٢٦) وأخذت تلقى في نفوس التلاميذ الاعتماد على النفس وحب العمل وتبث فيهم القول بحب الذات أو بالشخصية الحرة المستقلة وأخذت المدارس تشرب طلبتها بحبة الوطن كأنه دين ثان وذلك بفضل العناية التي صرفت لتعليم اللغة الألمانية ولا يزال للكنيسة الى اليوم تأثير مهم في ألمانيا ولا سيما في دائرة التعليم الابتدائي والظاهر ان ألمانيا لا تنوي الآن نزع النصرانية من المدرسة حتى ان أرباب الافكار الحرة وهم بعيدون عن كل معتقد لا يرون بان نزع الصبغة الدينية من التعليم في ألمانيا هو من الممكن أو مما يرغب فيه وهم معتقدون بأنه متى أصبحت المدرسة « كافرة » لا دين لها يحول قسم وافر من سكان البلاد ولا سيما الكاثوليك وجوهمهم عن المدارس العامة وينظمون لا بنائهم مدارس خاصة لتعليمهم الدين الذي يرونه ضرورياً لهم .

زالت الحواجز التي كانت تحول دون أصناف التعليم وبطل اعتبار اللغة اللاتينية لغة إجبارية لكل من أراد التهذيب العالي وانتزع من المدرسة المدنية على التدريج ما كان لها سابقا من صبغة مدرسة لاتينية وغدا التعليم على اختلاف درجاته أكثر تشبعاً بالروح الادبية أو الفلسفية وأقل تمسكاً بالنظريات وقامت بجانب المدرسة الادبية مدارس أحدث من مدارس الفلسفة الحقيقية والحسية وزادت العناية بتعليم العلوم واللغات الحية فكانت وافية بحاجات أهل المدن الصناعية أو التجارية ونشأت بالقرب من الكلديات في كل مكان مجامع علمية مازالت على ارتقاء ونماء ، وقد جرى بين الناس مجرى المثل قولهم بأن المعلم الألماني كان هو الظاهر الحقيقي في معركتي سادوثا وسيدان وأن غلبة ألمانيا

أنتها في الحقيقة من سر تقدمها في مضمار العلم والتهديب . ولئن قالت فئة من العارفين بأن المانيا بالغت واكثرت في نشر العلم فان أهل الاعتدال منهم مازالوا موقنين على الجملة بأنه لا تحرز المسكنة العليا في ايجاد العالم نحو التفوق والسلطة الا الامم التي تحسن أن تضمن لفتيانها تعليماً متيناً وتهذيباً راسخاً بما تنظمه من المدارس المتقنة وما تكونه من البيوت الناجحة في شؤونها الاقتصادية والسالمة من شوائب مفسد الاخلاق

يرى العارفون أن تأويل الارتقاء الذي فازت به المانيا أتى من اسراعها قبل جميع الامم في وضع قانون التعليم الاجبارى ومن عنايتها بتخريج أساتذة عارفين ما أمكن في جميع فروع التعليم . وبالتعليم فتحت العقول واستوت (المقتبس م ٢ ص ٤٠٤) لقبول الافكار الحديثة فرق شعور الافراد ومرت قواهم وامتد ذكاؤهم وفويت عقولهم وقل الاختلاف بين الطبقة العالية والطبقات النازلة في المجتمع وذلك في الامور الذهنية فقط فخرج عاميهم من غفلته وتغلبه وصقل ذكاؤه ورق احساسه وبدأ يفكر في غير الضروريات المادية في حياته اليومية واتسع أمامه ميدان النظر وامتد أفق الغايات السامية واهتم بالاطلاع على ما يحدث في العالم وقد زادت بارترقاء المانيا في صناعاتها وتحسين زراعتها ورفاهية الامة وحسنت الاخلاق وسعدت الحياة وأصبحت داخلية المدن الى اللطف والدوق يتوفر فيها الزخرف والبهرج والمظافة المفرطة يلبس العملة منهم أجمل الثياب وأنظفها ويسكنون في أبنية جديدة ويعيشون مرفهين بالجملة . وانتشرت الديمقراطية في المدن أسرع من القرى حيث يهتم السكان للزراعة والقيام على الماشية وساكن المدن أكثر علماً وحركة وحسارة . والفلاح في العادة من المحافظين وعامل المدن ديمقراطى

هذه نتف من حال العلم والعمل في المانيا والفضل الاول في تسلسل العلم في أبنائها جيلاً بعد جيل لما منحه امراء البيت المالك في ساكس للآداب من أشرف أنواع المعونة والاستقلال منذ عهد الاصلاح الدينى ولا حرج اذا قلنا أن ليس

في بلد في الارض انتشر فيها التعليم كما انتشر في ساكس وشمالى المانيا فهناك نشأ المذهب البرتستانتي وحرية البحث والنظر منذ ذاك العهد بشدة . قالت مدام دى ستايل هذا وأوردت أمثلة على انتشار العلم في عهدها في تلك البلاد يدهش لها سامعها وقالت ان الكتب منتشرة بحيث أن الحجار بل جميع طبقات العملة اذا أحبوا الراحة تجد كتبهم بأيديهم يطالعونه وان ليس من مدينة مهما صغرت الا ولها خزانة كتب مسبلة على المطالعة وفي كل مكان رجال عظام يرغب في محادثتهم للاستفادة منهم .

وقالت : ليس للآداب الالمانية ما جرت العادة بأن يدعى بالعصر الذهبي أى القرن الذى كانت فيه الآداب مرتبة بارتقائها لحماية زعماء الامة فان ليون العاشر فى ايطاليا ولويس الرابع عشر فى فرنسا وفى القرون القديمة بركليس وأغسطس قد أطلقا اسميهما على عصريهما ولك أن تعد عهد الملكة حنه أزهر عصور الآداب الانكليزية ولكن هذه الامة الالمانية التى تقوم بنفسها ما كانت قط مدينة لملوكها برجالها الاعاظم .

مدارس المانيا

١١٥

قال أحد علماء الفرنسيين للعلم العملى عند الالمان شدة وتفوذ لا تجد مثلهما فى أمة من الامم فان جميع طبقات المجتمع يشتركون فيه من الوزير الى صاحب الحانة ومن الصير فى الجهد الى غلام المقهى . وقال آخران نجاح المانيا الصناعى من المعجائب . وقال أحدهم الالمان كجيش منظم فيه من كل أصناف العاملين فالجندى جندي والضابط ضابط والقائد قائد والطاهى طاه ولا من ينازع الآخر فى عمله أو يتطاول الى بلوغ مداه . وقال غيره : لاجدال فى أن المانيا بلد

تعمل فيه الآلات الطابعة في المطابع العلمية عملاً كثيراً . وذكر أحدهم (١) ان السائح الذي يجتاز المانيا يدعش في العادة من أنه لا يرى بيتاً قائماً وحده في الاراضي الزراعية بل ان جميع المساكن في الحقول منضمة بعضها الى بعض بحيث يتألف منها أحياناً مدن وهذا مما يدل على فكر الاشتراك المناضل في العنصر الجرمانى الذى يستغرب حال شخص يربد الابتعاد عن أخيه . وهناك شىء آخر وهو أن معظم حكومات المانيا تحظر انشاء المساكن بعيدة عن مراكز القرى حتى لا يحرم الاولاد من الاختلاف الى المدرسة في الايام الممطرة العاصفة ويسأل الوالدان عن تأخر ولدهما اذا تخلف عن المدرسة فاذا تخلف أحدهم يجب على اقربائه أن يبينوا معدرته والا فيجازون أشد الجزاء . وعلى رؤساء المعامل الذين يستخدمون في الخلاء عملة أو موظمين أن يضمّنوا لاولادهم حملهم كل يوم الى مدرسة القرية القريبة واذا كثر العمالة في بقعة بعيدة تؤسس في الحال مدرسة عامة وتكون في العادة باطانة من صاحب المعمل وكان من أثر هذه العناية أن قل عدد الاميين في المانيا بحيث لا تجد واحداً في الالف على أنهم لم يكتفوا بتعليم المبادئ فقط بل انك لا تدخل قرية ولا معملاً ولا بيتاً الا وتجد الجرائد والكتب في الايدي تنلى ويستفاد منها بين جميع الطبقات .

للتعليم الابتدائى والاوسط في المانيا ميزتان لا نظير لهما في سائر الممالك وهى أنه لا يبعد المتعلم عن العيشة البيتية بين ذويه فيفضلون طريقة المدارس الخارجية على الداخلية أى أن يتعلم التلميذ في المدرسة في النهار ويحجى في الليل يبيت في دار أبيه وهذا التعليم سلم للتعليم الصناعى الذى تختلف درجاته وتراه ظاهرياً وعملياً في آن واحد . هذا الى ما هناك من دروس الاشياء والمجاميع النفيسة التى تراها في المدارس الالمانية والتعالم بالمظر وبالذهن والعمل والزهات المفيدة وغير ذلك من أنواع التربية . وما من المانى الا ويتعلم شيئاً من التعليم الصناعى ففي هذه البلاد التى يكاد الناس كلهم يعملون قد وقع في النفوس أنه لا يجوز

(١) من مقالة لاحد رجال الفرنسيس في كتاب المانيا العاملة عرباها مجلة المقتبس ج ٥ ص ١٥٥

لأحد أن يتعاطى صناعة من الصنائع المقررة قبل أن يتعلمها بالنظر والعمل . وهذا ما أدى الى انشاء كثير من المعاهد الملوكية والامبراطورية والبلدية والخصوصية تقصدها الامة فتستقى من مواردها قوتها المنتجة والعقلية .

وأعظم هذه المعاهد وأقدمها وأشهرها جامعاتها وعددها احدى وعشرون جامعة . وكانت كل أمانة من الامارات الالمانية فيما مضى تحاول أن تكون لها جامعة فاقدمها جامعة هايدلبرغ أنشئت سنة ١٣٨٦ وأحدثها كلية فرانكفورت أسست سنة ١٩١٣ . وقدم الجامعة عنوان شرف لها . ومن أشهر جامعات المانيا جامعة ليبسيك أنشئت سنة ١٤٠٩ وهي تفاخر بان من جملة أساتذتها الفيلسوف لايبنز ومن جملة طلابها كيتي الشاعر وفاكنر الموسيقار . وكل جامعة تنقسم الى شعب أربع وهي الالهيات (على المذهب البرتستانى والكاثوليكي) والحقوق والطب والفلسفة وهذه أربعة فروع (١) الفلسفة المجردة وعلم التربية والمنطق (ب) علم اللغات والآداب (ج) التاريخ والجغرافيا وتاريخ الصنائع والموسيقى (د) السياسات وعلم الاقتصاد (هـ) الرياضيات والطبيعات (وهي الرياضيات وعلم الفلك والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الارض) وهالك أسماء هذه الجامعات وتاريخ تأسيسها : برلين ١٨٠٩ مونيخ ١٤٧٢ ليبسيك ١٤٠٩ بون ١٨١٨ هاله ١٥٠٢ برسلاو ١٧٠٢ فرايبورغ ١٤٥٧ غوتنغن ١٧٣٧ مونستر ١٧٧١ هايدلبرغ ١٣٨٦ ماربورغ ١٥٢٧ توبنغن ١٤٧٧ بينا ١٥٥٨ كنغنبرغ ١٥٤٤ كيل ١٦٦٥ ورتسبورغ ١٤٠٢ كيش ١٦٠٧ أرلانكن ١٧٤٣ كرابنفسوالد ١٤٥٦ رويشتون ١٤١٩ فرانكفورت ١٩١٣

وهذه الكليات ^(١) مستقلة حرة ولكنها منظمة بنظام واحد . والجامعات مهما كانت وجهتها في تعليمها نظرية أو عملية لا تنافس في اعداد مهندسين وصناع والمباحث التي يستفيد منها أمثالهم يرونها في المجامع الكيماوية والعلوم الطبيعية في المدارس الصناعية هي التي يتخرج فيها أرباب الهندسة والصناعات وهذه

(١) الجامعات الالمانية في القرن العشرين لكروشته

المدارس تابعة لكل امارة تخرج كل سنة ثلاثة آلاف مهندس يدرسون فيها أربع سنين هذا عدا من يتخرجون من المدارس الثانوية الصناعية ويحرز لقب « دكتور » تلامذة المدارس الصناعية العالية كما يحرز المتخرجون في الجامعات. ولقب دكتور أشرف الألقاب وأعلاها في ألمانيا . والالمان أحرس الأُمم على لقب دكتور حتى انك اذا لم تطلق هذا اللقب الشريف على من ناله عدّ ذلك منك سخرية وفي ذلك دليل كبير على ميل هذا الشعب للعلم والتلقب بألقابه .

وفي هذه المدارس يتجلى ميل الألمان للأخصاء فيعلمون ما يعلمه غيرهم من الأُمم فرداً واحداً الخمسة أفراد قائلين ان الذهن لا يتسع لاكثر المواد عليه . والألمان لا يحرصون على تعليم الهندسة لأذكي أذكياهم بل يريدون أن يجعلوها قريبة المنال من كل أحد وهم يستعملون كل الطرق التي يرونها نافعة لئلا يتعبوا الفكر على غير طائل باغراقه مدة ساعات في حل قضية ولذلك ترى الأساتذة يأخذون تلامذتهم الى معامل خاصة ليطلعوهم بالعمل على ما ينبغي لهم الاطلاع عليه من الآلات والأدوات . وكل معامل المدرسة وغرفها وحجر كتبها وصفوفها منارة بالكهرباء أو بالغاز على صورة لا تضر بصحة العيون حتى انه ليقل جداً عدد الحسر في الألمان لشدة العناية بالعيون . وهكذا لا تمر بقرية ولا قصبة ولا مدينة ولا عاصمة في ألمانيا الا وتجد فيها مدارس صناعية كبيرة وصغيرة على ثقة الحكومة أو البلديات تعلم الصناعات المختلفة . ومن هذه المدارس ما هو أشبه بقصور الملوك منه بالمدارس لما حوى من المرافق والردهات والاروقة والساحات والأدوات .

من السكليات نشأت الاقطابات الكبرى في الفلسفة والدين والعلم (المقتبس م ٦ ص ١٣٧) ومنها نشأت الوحدة الالمانية وكان الالمان الى ذلك العهد أمة فكر وشعر يقولون في أنفسهم انهم تركوا البر لجاراتهم فرنسا تتصرف فيه على

ما نشاء والبحر لا نكثرا تسرح فيه وتمرح ولم يبق لهم الا الاحتفاظ بالسماء منزل العقل . والوحدة السياسية التي كان يراها بعضهم من الخيال قد تحققت من طريق العلم والعمل بفضل الجامعات التي كانت مركز الحياة الوطنية . والغاية من هذه الجامعات أن لا تخرج علماء صرفاً ولا رجال صناعات ممنازين بل ان تهذب طلابها تهذيباً يقيسر لهم معه أن يستعدوا لدخول المجتمع والتصدر فيه فليست العاية اذا أن تخرج تلك الكليات أسانذة وحكاماً ورجال دين للحكومة ولا أن تعد محامين وأطباء للأمة بل أن تعلمهم نعلياً عملياً وتلقنهم الخطة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها وتقفهم على أساليب البحث والمقد وتقوى فيهم ما يكد أخلاق العلماء كالعفة وخلو الغرض وسعة الفكر وتلقنهم شيئاً من العلوم المساعدة وأن يطاقوا رائد الطرف اجمالاً في الميدان الذي يجب عليهم أن يجروا فيه وبالجملة تؤهلهم الى أن يتموا هم بأنفسهم ما بدأ به أسلافهم .

يتعلم الطالب المتخرج في جامعة المانية ماهو العلم اذا اقترن بعلم خاص . فلا يكتفى بشهادة ينالها فيحق له بها أن يقضى أو يشفى أو يعلم أو يلحق الدين لمواطنيه بل ينبغي له أن يتمرن سنة في الفرع الذي يريد الاختصاص فيه ثم يقدم خصاً بعد أن تكون المدرسة قد أعدته للنظر الاجالى في الحياة العامة . ولرجال الدين والاساتذة والمحامين والفضاة والمواطنين والاطباء في المانيا الذين ينشأون من الجامعات طبقة خاصة ومنزلة سامية بين قومهم لا يبالها الا الضباط ولكن الصيارف والتجار وأرباب الصاعات والاملاك مها بلغوا من الغنى والذكاء وخدموا المصلحة العامة هم بمنزلة دون أولئك الذين تخرجوا باساتيد الجامعات . وتناغى القوم في الاعمال الحرة لقن طبقات الامة الالمانية ان أرباب الصناعات والتجارات وهم من طلاب المال والغنى لا يعيشون مها بلغوا من الذكاء الا للثروة ولذلك تكون منزلتهم في الانظار دون منزلة العاملين بأفكارهم وعقولهم

تضمن الجامعة الالمانية للطالب فيها تهذيب العقل من جهة وتربية الارادة والخلق من جهة أخرى وذلك باطلاقها حرية الطالب فيها فتعامله معاملة رجل حر

ماقل له حق التصرف بأمواله ولسان حالها يقول : « اعمل ما يروقك واعلم فقط انك ستجنى مازرعت » وفي الاناشيد الالمانية شيء كثير يشير الى أن حرية الطالب آثم شيء وانها من أوصافه الخاصة به . فالغنى لا يحضر دروس الجامعة للحصول على معارف تنفعه لاحتراف حرفة في المستقبل وما هذا الطالب الا ثانوي بل ان الغاية التي يسعى وراءها في سنيه التالاب في الجامعة هو ان يصبح رجلا وتكون له شخصية . يعينه على ذلك أساتذته وأترابه . ومن هنا نتأت فائدة جمعيات الطلبة لان الطالب يتعلم فيها أمرين مهمين الطاعة واحترام الناس له . والطلبة المتقدمون يطبعون على ذلك الطلبة المتأخرين أو المحدثين بمحافظتهم على قواعد لم يسنونها فينبعث في الطالب شعور الشرف وعزة النفس في الحياة المشتركة وتقوى ارادته على الصدمات فهو اذا خاض من سلطته في منزله بين أبويه يكون لتلك الجمعيات عليه شيء من السلطة الادبية فبالجامعة لا يصبح رجلا عالما ومهذباً فقط بل صاحب أخلاق . قال أحد العارفين أن الجامعات الفرنسية تنقصها الحرية والجامعات الانكليزية ينقصها العلم وفي الجامعات الالمانية لا ينقص هذا ولا ذاك

قالت مدام دي ستايل : ان بلاد المانيا التي ارتقى فيها البحث والمطر ارتقا بعيداً يسوغ أن تعد وطن المكر ومن المحال أن لا يكون كتاب الالمان وهم أكثر كتاب اوربا علماً ونظراً مستحقين ساعة من العناية للبحث في آدابهم وفلسفتهم . وذكرت أن العلماء كانوا يشتغلون في عهد هائل ثلاث عشرة ساعة في بعض بلاد المانيا على أسلوب ونظام وتساءلت عن النتيجة التي يحصلون عليها في بضع سنين . وقالت : امتلاً شمالي المانيا بجامعات هي أكثر كليات أوربا علماً وما من بلد حتى ولا انكلترا توفرت فيه أساليب النعم وتهذيب القوى ملها هناك والجامعات البرتستانتيية أرقى من الجامعات الكاثوليكية وجميع المجد الادبي الذي اختصت به المانيا يرجع الى هذه المعاهد . وقال أحد كتاب المرانيس أن تربيته الجامعات الالمانية تبتدى حيث تنتهى تربية عدة أمم في أوربا

قام مجد المانيا قديماً بمن نبغ فيها من الفلاسفة ثم بمن نبغ فيها من القواد والجند ومجدها اليوم مناط الاقليلا بارباب الصناعة والتجارة من أبنائها .
حاجة المدنية الحديثة ماسة للاخصاء في العلوم والفرد في الصناعات والمانيا لا تجهل أن قوتها في جهاد الامم السلمي بمن لديها من الاخصائيين الكثيرين الذين لا نظير لهم عند الامم الاخرى، بكثرتهم وتنوعهم . فقد كان كيتي يرى ضرورة الاختصاص الذي به فقط يصبح المرء عضواً نافعاً في المجتمع فان حسن المعرفة واحسان عمل شيء واحد يورث ارتقاء كبيراً أكثر من أن يعمل المرء نصف عمل ويشغل نفسه في مئة مسألة . وان أول واجب على الانسان أن يتعلم صناعة واحدة تعليماً حسناً فالتوسطون بذكائهم يكون منهم أرباب صنائع وأرباب الذكاء الواسع يصبحون رجال التفنن حتى أن النابغة نفسه يرى في الشيء الوحيد الذي يحسن القيام به رمزاً لكل ما يعمل حسناً وإشارة لكل جهاد نافع ومثمر أن ألمانيا تفاخر وحق لها التفخر بأنها موطن كبار الفلاسفة أمثال « كانت » و « ليسنغ » و « ليبنتز » و « شوبنهاور » و « فييختي » ومن الشعراء « كيتي » و « شيلر » وأن من ربوعها قام الاصلاح الديني فقلب لوتيروس بدعوته الغرب كل مقلب وأنها وطن « ورتمبرغ » مخترع الطباعة أول محسن للمدنية

أهل و الوطن

١١٦

عرفت من أخلاق الالمان في الحرب الاخيرة كما عرف كثيرون غيري من الاتراك والعرب يبوسة في الطباع لم تعرف في أخلاق النمساويين والمجريين مثلاً وذلك لان معظم من وردوا على بلادنا لذاك العهد كانوا ضباطاً والجند أشداء الشكيمة صعب مراسهم ، وأهل بروسيا من بين الالمان خاصة يشتكى من شدتهم

حتى المتحدون معهم أمثال أهل بافاريا . ولعل لاختلاف المذهب دخلا في هذا
الاشتمال لان بروسيا رتستانتية وبافاريا كاثوليكية أو لان بروسيا هي التي
سيطرت على المانيا ووحدت كلمتها . وكيف كان الحال فالامم الاوربية لا يصح
عليها الحكم خارج بلادها بل يحكم عليها بما ترى عليه في أرضها وعقر دارها
قالت مدام دي ستايل : يجب على من أراد أن يعرف بروسيا أن يدرس
سيرة مؤسسها فريدريك الثاني الذي كان يجمع الى خشونة الجندي رقة المدني
ويعزج روح الجندية بالعدل المدني وكان من القيد في محل والحرية في آخر
بحيث يعجب به كل من يقرأ سيرته ويرى آثاره في أمتة . كان فيلسوفا تخرج
بفلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية فعدت فيه الاستبداد الذي فطر عليه
الحاكم المطلق . وكان لا يشق عليه أن يسمع كلمة سوء توجه اليه فيترك الناس
وحريتهم يقولون فيه ما يشتهون . وكان هذا من غرائبه . وقد أعطى المحاكم
حريتها بحيث كانت تحكم على أقرب الناس إليه وكثيراً ما نحكم في مسائل
سياسية تخالف ارادة الملك ومن المتعذر ادخال الظلم الى محاكم المانيا . قالت
ان في الألمان بعض الاستعداد لاختراع أساليب تؤهلهم للتخلي عن السياسة
للأخذ بالعرف ولكن اذا كان يراد إحقاق حق أو ادارة مصلحة لا سبيل لأن
يدخل في عقولهم غير مبادئ العدل فان فكر النظام فيهم دع استقامة قلوبهم يطالب
بالعدل كأنه يدخل النظام في كل شيء .

وقالت أيضاً : الألمان هم بالأجمال مخلصون وصادقون وندران يرجعوا
عن أقوالهم والغش صنعة لا أثر لها عندهم وهي غريبة عنهم واذا حدث ان تسلل
الغش الى ألمانيا فذلك حسداً من أهلها للجانب فيقتدون بأخلاقهم لكي يظهروا
مثلهم في الخدق وحتى لا يكونوا أنفسهم مغشوشين ولكن الشعور الحى وطيبة
القلب تؤدي في الحال بالالمان الى أن يشعروا بأن لا قوة الا ما جاء من طبيعة المرء
وان اعتياد الحشمة لا يجعل في الانسان استعداداً للاحتيال ولو أراد . واذا
شوهدت في الأمم اللاتينية سياسة غريبة في الخدق للتملص من جميع الواجبات

فالامة الالمانية ولها الفخر في ذلك ليس لها استعداد لهذه الليونة الجريئة التي تلين كل الحقائق لاجل المصلحة وتعبث بجميع المهود أمام كل النظريات . وما الالمان الا أمة عرفت بالقدرة على العمل وفطرت على حب النظر والفكر وهما خاصيتان ملازمتان لها

وقال جناب شهاب الدين : مامن صنف من الناس يحتقر الصنف الآخر في ألمانيا بل جميع الطبقات متساندة ويحاول الالمان أن ينظروا الى أصحابهم وأعدائهم على نسبة حقيقية ويعرفون أعداؤهم معرفتهم لأصحابهم ولا ينظرون الى أحد بمجهر الشعر والحس كأن يعطوا أصدقاءهم درجة تفوق استحقاقهم ويضعوا أعداءهم الى دركة هي دون مرتبتهم الحقيقية فكما يقيس الالمانى أخاه ويفصله ويزنه ويمائنه ويحمله هكذا يعمل مع غير الالمان .

وقال لستبرجه : للالمان مرونة في الفكر تسهل عليهم ادراك ما تلتجه قرائح الاجانب وعدم محاباة فطرية تهيئهم لهمم بقبة الشعوب والحكم عليهم بأسلوب شامل ونظام عام ينظر فيه الى الكفاآت والهبآت . وقال أيضاً : الالمان يعجبون وحق لهم العجب بما أنصفوا به من الجد والنبات والاستقامة في العمل والنظام والترتيب خاصة .

وقالت مدام دي ستايل أيضاً : للالمان في الآداب عناية بالغة بما يأتي عن طريق الاجانب كما لهم عناية بسياستهم وقليل من الأوهام الوطنية . ان من الصفات الحسنة في المرء انكار ذاته واعتبار الآخرين ولكن وطنية الأمم يجب أن تكون الى حب الذات والانانية . ان إعجاب الانكليز بأنفسهم قد كان له شأن عظيم في قيام جامعهم السياسية والمالما كان حسن ظن الفرنسيين بأنفسهم العامل النافع في نشر نفوذهم في أوروبا . والكبر الشريف الذي عرف به الاسبانيون قد جعل منهم فيما مضى ملوكا على جزء من العالم .

ان الحس في الالمان — على ما قاله فوليه — كالحس في الانكليز من نوع البلغمي الحاد النصف دموى وهو بطيء التأثير . فالشعور والادراك في الالمان

قليل مضاًؤهما وورقتهما . فكما أن التأثيرات تطول انارتها في الجملة تجدها اذا هاجت الى الشدة والدوام فاحساسهم بطيء واضطرابهم شديد وهذا معدل ما يحكم به عليهم . والادراك الجرمانى مزيج من الحقيقة والخيال فتجد فيه ميلا شديداً الى الماديات مثل حبه لرشاء العيش واميالا خيالية يكون منها القنوط وجمع الفكر والغناء . ان للطبيعة والمناخ تأثيرا في ادراك الشعوب يدعوهم الى السرور أو الاتقباض والالمانى متقلب من نفسه يستغرق ساعات في السرر القليل الغلظة وله ساعات من السويداء وكثيراً ما يكون متشائماً لامتعائلاً وليس في فطرته اجمالاً ان الطبيعة صالحة والمرء طيب فيحذر ويراقب ويتهم غيره ونفسه ويرى الجهة السوداء في الاشياء والطبيعة الالابيسية في الانسان

الالمانى متشبع بفكرة الخطيئة الاصابة وبضعفنا الطبيعي عن بلوغ الخلاص والسلامة وهو على شئ من الخشونة فيه استعداد لارحمة ولا يشعر بحاجة الى الاجتماع كما هو الحال في الافرئسى بل يكتفى بنفسه مخاراً ولا يجد فيه باعناً جوهرياً على أن يبوح بذات نفسه ويبث عاصفته وله غرام تكنه جوانحه لا على طريقة سكان الجنوب الصفر او بين العصبيين بأمزجتهم وهو محصور في بعض أفكار في الحب أو البغض وفي دائرة حاصة من الطمع الشخصى . وعلى الجملة فان الالمانى يولع بعمل يعاق عليه بعض الشأز أو بعض المهمات التى تختلف مكاتها أو بعض المبادئ الاخلاقية والفلسفية والدينية والوطنية

الالمانى كالافرئسى متحمس ولكن بغير طريقة هذا . الفرئساوى حاد يهيج ويطفح . أما ازأس الجرمانى فيحصى ويشتمل في داخله ببطء ولكن بصورة متصلة فهو كنار خفم أرضى قد ينبعث منه دخان أحياناً لا كمار أغصان تلهب التهاباً شديداً بل كنار تبين أما الاكلىرى فان الاحساس العملى قد نظم ادراكه تنظيماً بحيث ترى حماسه في شعره لا في سلوكه . الالمانى يكتم حقهده فهو حقود منتقم ويظهر مافى نفسه لمن يكرهه فهو يبغض البولونى والروسى واليهودى ويصرح ببغضه لهم اما بغضه لعدوه الموروث أى الفرئساوى فادهى وامر

ذكاء الألمانى كاحساسه بطيء فى حركته ثابت مستقر وكثيراً ما يكون متثاقلاً طارياً عن المرونة والرفقة ولا يهتم للاشكال والفروق بل يبدو متيناً مقاوماً ثابتاً حراً متعلقاً كل التعلق بأهداب الحق . الألمانى يعمل فيما اتجهت همته اليه بنشاط ليس وراءه غاية وبحث طويل فليس هو من أرباب البديهة بل ان فكره يدور ويرجع طويلاً فى أصعب المسائل . قال كيتى : ان الألمان يحبون أن يبينوا ما عملوا . وقال شيلر : ان الألمان لا يكذب بعضهم بعضاً أصلاً فمن العبث أن تقدم اليهم أطعمة جيدة فلكى يتناولوها بشهوة يودون أن يسألوا عن أسمائها . ويظهر انكماش الألمانى وبحته المتصل البارد من ذوقه فى التوسع فى العلم ودرس اللغات . والألمانى كما قال روبرتسون تاجر بالجملة والمفرق فيما يختص بالعلم . وقال لاينز ان الخلق المتأصل فى الألمانى هو حب العمل وهى صفة ثمينة للعلم والفلسفة . ان حب البحث والاختراع والتركيب والبناء خاصة جوهرية فى العقل الجرمانى . وكـ من ألمانى لو ان المولى مسك يمينه الحقيقة وبشماله البحث عنها لكان قال كما ذكر ليسنغ . يارب انى آثرت البحث ومفتاح الحقيقة بيدك وحدك .

ان رأساً منظماً كل التنظيم مضافاً الى مزاج رزق كمية صالحة من التأتى تنشأ منه حركة معتدلة فى مجرى الافكار تقوم منها الممثلات الخارجة والافكار المتممة أمام الفكر . فالتفكر فى هذه الحالة يصبح طبيعة ثانية . ولقد اشتدت حياة التفكير فى الالمانى حتى انه ليقنع بها أحياناً . وليس الالمانى ممن يكتفى بالبساطة بل يحب النظر فى القضية وتقيضها فقد كان بسرك يقسم العالم الى قسمين مختصرين أحباب الامبراطورية الالمانية وأعداؤها . والالمانى أيضاً يحب الترتيب الى طبقات وبحب منها ما كان ملتبساً مشتبكاً . ويجب أن يصف أفكاره طبقات وعلى نظام بحسب المناسبات المجردة لا المعقولة ليتيسر له بعد ذلك أن ينظم أعماله على حسب مبادئه وهو فى العادة ينظر فى مبدئين أو ثلاثة فتراه لا يجب اختصار ساحة النظر بل يجب أن يرى أموراً كثيرة فى وقت واحد ونظره واسع مضطرب ويرتاح الى المتناقضات والمبهات وأعماله تشع بعمله وطول مراجعته الكثيرة للكتب فى الخزائن .

وأهم ما في الخلق الألماني الارادة وهي خلق جدير فيه بالاحترام . فان النشاط والدوؤب هما من الصفات الاولى فيه ومنها نشأ الصبر في احتمال المصاعب الملازمة للنجاح والمواظبة والتنظيم والتعلق بالواجب وكان من ذلك منشأ الشخصية التي عرف بها الجرمانى والمصدر الاكيد لنشاطه الدائم . الألماني مزيج من قوتين احدهما وحشية والثانية بنيت على الفكر والتأمل وفيه الشدة البربرية والتعليم الراقى وفيه حب الشهوات وحب العبادة والتصوف وحب القتال وحب الدين والصلابة المعقولة والشعور العقلى فهو من المولعين بالحقائق وبالخيالات في آن واحد أو كما قال نيتشه الفيلسوف الألماني : « ان للروح الالمانية معابر ومجازات وفيها مغاور ومخابىء وخلوات ولها غرام بكل مجهول . الألماني يعرف الطرق السرية التي تؤدي الى الفضاء والخلاء فكما ان شبيه الشيء منجذب اليه هكذا الألماني يحب الغيم وكل ما هو قاتم وجديد وفيه إظلام ورطوبة وغشاوة يرى آية في التحقيق ويتعلق بكل ما لم يبت شيء في حقيقته وهو في دور الجنين وعلى أهبة التأليف والنمو . وليس الألماني موجوداً بنفسه بل يوجد ولذلك كان الابداد هو العمل الحقيقي في الألماني وكما له في الدائرة الكبرى للأفكار الفاسفية . »

الألماني شخصية مفطورة على الطاعة ومن لا يحترف حرفة ولا يعرف بلقب من الالقب لا يعد فيهم شيئاً وفيه بعض جفاء حتى قال بسمرق يوماً اننا معاشر البروسيين لم نرزق قريحة تحببنا الى الخلق . وهم يحترمون كل الاحترام المعنى الداخلى في الامور وقلموا يحفلون بالصور الخارجية وكثيراً ما نرى الألماني جلفاً فلا يصرف وقته في الباس ما يقتنع فيه شكلاً لطيفاً لانه لا يعلق مكانة مهمة على هذا الشكل وكثيراً ما أهمل الحرية السياسية لانه كان موقناً أن حرية فكره لم تمس . قال فوليه الذى لخصنا عنه ما تقدم : لا يعدم الألماني ملجأ على الدوام وأعنى به شخصيته .

مثال من مزارع المانيا

١١٧

بلغ من انتشار العلم في المانيا بين عامة الطبقات ان خصت الزراعة بادىء بدء
بالعناية الكبرى وهاك ما كتبه هورن الكاتب الفرنساوى في وصف مزرعة
أحد أشرف الفلاحين في سيليزيا من بلاد بروسيا ومنه تدرك أن أمة بالغ غرامها
هذا الحد كيف لا تغنى وتسعد قال ما ملخصه : قد يظن ظان أن أشرف الفلاحين
في المانيا هم دون أشرف المدن بمعارفهم ورقة شمائلهم ولطف مآثهم والحقيقة
أنه لا ينقصهم شيء من ذلك . توفروا على استثمار مزارعهم فكانت زراعة المانيا
بهم وبفلاحيتها تأتي بمورد لا يقل عن أربعين في المئة من اللازم لعيش المانيا والباقي
تناله من صناعاتها . وثلاثة أرباع سكان المانيا يعيشون في المدن والثلث فقط
يعيش في الحقول وندر أن يكون الفلاح مالكا ولا سيما في المانيا الشمالية حيث
تكثر الاملاك الواسعة بيد شخص . هذا وثالث سكان فرنسا يعيشون في المدن
التي يربو سكانها على أربعة آلاف نسمة والثلاثان الآخران يعيشان في الحقول
لان من الفلاحين أصحاب أراض .

وصلت الى المكان الذى واعدني اليه ذك البارون لازور مزرعته فرأيت
في المحطة خادماً ينتظرني وله عربة تساق على خط حديدى فأخذنا نقطع الحقول
والمروج حتى وصلنا الى منزله الذي جمع بين لطافة الحديث وجلال القديم وفي
وسطه برج قامت حواليه أربعة أبراج وسقف القصر من القرميد ومن كل جهة
سرادق ذو طبقتين لها نوافذ تشرف على الحديقة وهى من أجزاء المزرعة
والاشجار الضخمة تغطى بأغصانها وظلالها أبراج القصر وفي داخله ثلاث قاعات
احداها حوت الظرف الجديد الساذج وهناك غرفة المائدة فرشت بالخشب الابيض
ودهايز وأدراج مزينة بعظام الايائل وحر الوحش

انتهيت الى مكتب الشريف الربيعي فرأيت بجانبه آله الكاتبة وأوراقه في أضيائرها وآلاته الهاتقة مربوطة مباشرة مع كل قطعة من ملكه وهناك مقويات فيها السندات والوصلات والمكاتبات والاحصاءات . وفي جانبها خزانة كتبه ومعظمها زراعي يبحث في عمران الارض وتربية الماشية واختيار السماد وقد طبع لوحات ذات عمد ليقيد فيها الحاصلات وخواها ووصفاتها وأساليب زراعة الارض ووارداتها وغلة كل بيعة من الحبوب والحيوانات . فيكفيه أن يفتح سجلا ليعرف بالدرهم ما صرفه على البذار والسماد ونفقات الحرث والحصاد والدرس والتعشيب وتضمن حاصلاته والربح الصافي من أرضه .

وهناك ميزان يزن فيه القمح والجاودار وفي جانبه آلة لقطع حبات الشعير والحكم على نوعها وآلة أخرى تشبه الانبيق يتحقق بها اذا كانت الأرض تحتوى القدر اللازم من الكلس وفي فناء الدار آلة للمطر وأخرى للحرارة يراد منهما الوقوف على الجو والمقابلة بين اختلافاته ومعدل نزول الامطار التي سقطت خلال السنة مع الاشارات المشابهة لها في أنحاء أخرى ليرى فيما اذا كانت هذه الاحداث الجوية متناسبة مع جودة المحصول . وفي جانبها لوحات كتب عليها يوماً فيوماً تبدل الحالات الجوية في ذاك المكان منذ سنين . واذ كانت المزرعة بعيدة عن المدينة كثيراً أقام البارون صاحبها في أحد أطرافها معملاً لتوليد الغاز لاصاءة قصره بالاسيتلين .

تتألف مزرعته من ٢٠٠٠ هكتار من الارض خاصة بزراعة الحبوب كالحنطة والقرطمان والجاودار والشعير والشوندر و ٨٠٠ هكتار غابات و ٥٠٠ هكتار مروج و ٥٠٠ هكتار بحيرات و ٥٠٠ هكتار بور أى أن مساحتها تربو على أربعة آلاف هكتار من حيث المجموع .

وبعد تناول الطعام والتفرغ قليلاً في أحد مماشى الحديقة الوارفة الظلال ركبنا عربة مع صاحب القصر فقال لى وهو باسم : ترى الآن اننا لا يلحقنا عار البطالة فان عملي ممنوع يشبه عمل وزير الدولة وادارة هذا الملك وحدها تحتاج الى عمل

متواصل فان تقارير المزارع المختلفة ترد على كل أسبوع فنحن ما فيه أن كمية كذا من البطاطا قد أرسلت الى معمل النشا ومنها أن كمية كذا من الشوندر تحتوي كذا من السكر ترسل غداً الى المعمل ومنها ان آلة حديثة للزراعة جرت تجربتها في أرضنا فبعثوا يبلغونني نتيجة تجاربها ويجب على النظر في حسابات الاستثمار والبحث في كل شيء فأكون تاجراً وزارعاً وصانعاً معاً لاني استخدم بنفسى بعض الغلات كالبطاطا مثلاً ومع هذا لا أستطيع أن أتولى كل عمل فلنا مفتشون كفأة لكل فرع من فروع الزراعة تعين الحكومة أو الولاية بعضهم وآخرون تدفع لهم تقابلات أصحاب الاملاك رواتبهم وتدفع نحن مشاهرات بعضهم . وهكذا تجد غنمى يفتشه موظف عهد اليه تفتيش القطعان في المملكة كلها وهو الذى يقدم لأصحاب الاملاك التيوس اللازمة للتناسل وتكون مختلفة بحسب جنس الغنم . ولى مفتش لغاباتي عينته غرفة الزراعة في الولاية وآخر للالبان التي تجمع من عامة اصطبلاى وحظائرى . وهذا التفتيش نافع للغاية وذلك أن لبن البقرة اذا لم يكن فيه سمن كاف يزداد في علفها وتراح . ومفتش السقى يبحث عن أقنية السقيا وعن المجارى الكبرى وعما اذا كان الزرع جيداً أو خرجت فيه الاعشاب الرديئة القاتلة له . وهناك مفتش يبحث عن الابقار وتناسلها وآخر عن الخيول المطهمة وصلنا الى حقول فيها أحجار من المحجب « كرانيت » فقال لى صاحبنا أنه لا يكفي خمش الارض في الحرث بل ان السكة البخارية تخرج الى سطح الارض كل ما يتخللها من الاحجار التي نجمعها لنبلط بها الا ما كن اللازمة أما السماد فانه يغير كل سنة ماعدا البوتاس الذى يبقى سنتين وثلاثاً واني أتفق في السنة من ٥٠ الى ٦٠ الف فرنك ثمن السماد الكيماوى والنشادر الذى نستعمله غال ايضاً وهناك انبسطت أمامنا حقول البقول المنوعة وأراني صاحبي عن بعد مزرعة صغيرة فقال : هذا نموذج المزارع العادية . مزرعة مساحتها السطحية ١٥٠ هكتاراً من جيد التربة زرعت كلها ولها غابة صغيرة على الراية وفي المنحدر بيوت بعض الفلاحين وحقول الغلات والبطاطا والشوندر . ويعيش في جوار هذا المالك كما

يعيش في جوار معظم كبار المالكين أناس أحرار من صغار الفلاحين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يعيشون كما يعيش الفطر في ظل بلوطة ولا من ينقص عليهم عيشهم ومن يملك من عشرة الى عشرين هكتاراً من الأرض يشتغل لحسابه الخاص وتعينه أسرته ومن يملك هكتاراً أو اثنين يؤجر نفسه مياومة للسيد المالك العظيم ومن المزارع ما أثقلته الديون بحيث لا يوازي دخلها فائدة ديونها أما الاشراف فلهم غرام بالأرض ومنهم من يستطيعون أن يستثمروا أموالهم في الصناعة وغيرها بفائدة ٦ أو ٧ في المئة فيؤثرون أن يستثمروها بأنفسهم في أملاكهم ولا تأتيهم بأكثر من اثنين ونصف في المئة فترى الواحد منهم اذا ورث أباه وأخاه يبادر لحضور دروس الزراعة كأحد الطلبة سنتين ثم ينقطع بجماله الى الزراعة والى تربية البهائم ومتى مات الاب يرث البكر من أولاده ملكه . وفي الغالب ان الملك هنا لا يقسم لانه مؤلف من حظائر واهراء ومحطات يستحيل فصل بعضها عن الآخر وعلى البكر أن يقدم لآخوته وأخواته ما يوازي حصتهم نقداً واذا لم يكن عنده نقد يرهن ملكه واذا لم يجد رهناً يضطر الى بيعه ومعظم أرباب الاملاك الواسعة يورثون البكر من أولادهم فيبقى الملك كله له بمعنى ان الوالد اذا لم يكن اقصد مالا في حياته يبقى أولاده بدون فلس بعده وربما بقي أكثر الاولاد فقراء لانهم اذا أخذوا نقداً فيكون جزئياً لا يكفيهم ليعيشوا ومن هنا ترى معاهد كثيرة في ألمانيا أخذت على نفسها اعاشة البنات الشريفات ممن تقدمن في السن ولم ينلهن من آباءهن ما يستطعن به أن يعشن فلم يلبثن بعد العز والرفاهية أن يعشن عيش القلة والفاقة . وألمانيا الآن في صدد تغيير هذا النظام الجائر .

• رأينا في طريقنا راعي الغنم وراعية البط والأوز وقال صاحب المزرعة ان جميع اللبن المستخرج من بقراته يبعث به الى المعمل القريب لاستخراج الزبدة والجبن وجميع ما عنده من البهائم يطعمه بمطعوم الامراض التي يخشى أن تصيبها ولا سيما الثيران والخنازير . وأراني الانبار . ومما قاله ان سمر الحبوب تعينه لجنة

أحدثها الفلاحون وصادقت الحكومة عليها واللجنة تسهر على أن تكون الاسعار التي تذكر في الصحف هي الأرقام الحقيقية وتختار الحكومة لمراقبة السوق أناساً من أرباب الأملاك وآخرين من التجار .

حاذينا حقولاً واسعة مزروعة بطاطا فقال صاحب المزرعة اننى أتفق في الخريف نحو ثلاثة آلاف فرنك علاوة على المقرر في الأجور لقلع البطاطا من مزارعى وأجرة العامل فرنك في النهار وغلتى من هذا الصنف خمسة ملايين كيلو وبعد أن آخذ منه بذارى وما يلزم للمزارعين عندي أعمل منه نشا لأن عصارة النشا سماد للأرض ولا أعمل منه الكحول لأن عصارته غير نافعة وقد كثرت عليه الرسوم . وغلتى ٧٠٠ ألف كيلو من الجاودار و ٣٠٠ ألف كيلو من الحنطة والشوفان والشعير . أما الشوندر فأنا مرتبط مع نقابة زراع الشوندر وأنا من أعضائها ولها معمل سكر من أكبر المعامل في ألمانيا فنبعث لها به بعد أن يحلل المعمل نموذجات منه يرسل لنا بكشف يبين لنا درجات السكر المستخرج من كل صنف من أصنافه وفيما اذا كنا قصرنا في تسميده وتربيته لنكون من قابل على بصيرة .

وبالقرب من معمل النشا قامت بيوت جديدة للعملة بنيت من الآجر وكل بيت فيه مخدعان أرضيان وعقد (قبو) للبن والبقول وغرفة في الطبقة الأولى وأتبار عام لعدة من الاسر يضع فيه كل واحد في ناحية معينة غسيله وفي مقابل هذا الحى اصطبل للخنازير والماعز

وعدد من يعملون في هذه المزرعة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص يدخلون في ١٢٥ أسرة وفي أيام الحصاد يستجلب كثير من العملة زيادة على الموجود ويدفع لكل مزارع مئة مارك (١٢٥ فرنكا) في السنة نقداً يتناولها على أربعة أقساط ويجب أن يكون الرجل متزوجاً والمرأة تعين زوجها في الصيف أيام الحصاد وفي الخريف في استخراج البطاطا وفي الشتاء في درس القمح واذا لم يكن للعامل زوجة يجب أن يكون له ولد في سن صالحة ليعمل ومتى عملت المرأة يدفع لها في اليوم ٧٥ سنتياً في الشتاء وفرنك وربع في الصيف لان النهار يكون أطول . والعامل يأخذ

في السنة ١٢٥٠ كيلو من الحبوب المختلفة كالشعير والحنطة والجاودار و ٣٠٠٠ كيلو من البطاطا وحطبا وخما يساوي ٦٠ ماركا ولكل واحد ١٢٥٠ مترا مربعا من الارض يزرع فيها بقولا من مثل الملفوف والشوندر وعلف بهائم وتكون في العادة غرة وبقرة وأحيانا يقوم صاحب الارض بتغذية غرتين وبقرة لكل مزارع عنده أو يعطيه لبنا يوازي ما تخرجه له بقرتان وغرة ويعاف كل عامل في زربيته خنزيرين يبيع في العادة الواحد ويملح الثاني يستعمله في طعامه . وله الحق أن يربي دجاجا يجعله في محله وإذا مرض المزارع أو العامل تدفع عنه أجرة الطبيب وثمان الدواء وإذا مات أو أحد أسرته يصنع له نجار المزرعة تابوته وخشبه من صاحب المزرعة ولا تدفع أسرته الا أجرة القس . والمزارعون ممتنون من عيشهم لان ما يأخذونه من الغلات يكفيهم ولهم غرام بأكل البطاطا والدهن وقلا يتناولون اللحم لان العملة البولونيين وأكثر المزارعين منهم لا يتناولون اللحم وإذا استأجرناهم خصوصا بعد عودتهم من الخدمة العسكرية يتطلبون اللحم اذ يكونون قد اعتادوا تناوله في الجيش . وإذا شاخ المزارع يستبقيه سيده ويطعمه ويؤويه فيدفع السيد عن كل عامل يستخدمه ١٠ دوانق (بنفخ) في الاسبوع وهو يدفع مثلها لصندوق المتقاعدين أي ٥ ماركات في السنة وفي آخر السنة يحول هذا المبلغ لا سمة في صندوق التوفير .

وعلى صاحب المزرعة أن يدفع ضريبة على ريع أملاكه وضريبة لمقاطعته وضريبة لمديريته ورسمًا للمدارس وآخر للكنائس يدفع ثلثها السكان وثلثها صاحب المزرعة وهو عرضة على الدوام للتفتيش والانتقاد يوجه اليه مفتشو العمل وحذراً من وقوع حوادث في المعمل والمزارع والحقول يجب علينا أن نضع السلام على الجدران وأن نجعل درجاتها معقفة وعربات العلف تكون مقطورة على صورة كذا ولا نجد في ذلك غضاضة علينا لاننا نرى في هذه العناية مبدءاً حسناً . والقانون قانون يجب الطاعة له

ووصف الكاتب مزرعة بجانب مزرعة مضيفه ابتاعها منذ اثني عشرة سنة

وضمها الى مزرعته الاولى وجعلها لصيد الدراج وغيره . وهو يأخذ دخلا وافراً من اسماك بحيراته قال : ولقد أخذت اعلم بعد أن رأيت ما رأيت في مزرعة هذا الشريف أن الزراعة الالمانية ليست من عمل الفلاح أو الشريف العطل بل من أعمال مثل هذا الرجل المولع بالترقي والمتوفر على تربية الماشية والنظر في الهندسة الزراعية والاحداث الجوية وطبقات الارض والعامل والمربي للصيد والاسماك والصيد والتاجر الخبير وعلمت حب البرومى لارضه وما يبذله من الجهاد المعجيب الذى جعل من رمال بومرانيا وبطائح براندبورج غابات مدهشة وحقولا خصيبة وقدرت قدر الذكاء فى اختيار الاساليب النافعة والشعور بالرقى والدوق فى الابداع وفكر التضامن والجهاد الممزوج بالصبر الطويل الذى أكره الطبيعة الشحيحة فى تلك الارض على أن تعطي بعض المواد التى يكنها صدرها وكل شئ يحسن الانتفاع به فالارض غير الصالحة للزراعة تجمل فيها غابات والبحيرات تظم وتردم أو توسع وتحفر بحسب اللزوم وكل سنة يجدد صاحب المزرعة مئات الالوف من الاشجار المثمرة وغيرها ومنها ما ينتفع منه ابنه وكل يوم يعمل عملا جديداً ويتدع أو يفكر فى طريقة يتفنن بها للانتفاع أكثر من أرضه .

قال العالم الفرنساوى وقد دامت زيارتى أرض الشريف الالماني ست ساعات فى المركبة ولم نر كثيراً من أنحائها واثنى على حسن وفادة الالمان لضيوفهم وقال ان أقراء الضيف عندهم لامثيل له فى أوروبا اللهم الا روسيا . ولا عجب فى عمل الالماني فقد خلق وفطرته تقول له لا تقف يريد المزيد دائماً . وهو يعمل من البطالة بعد قضاء بضعة أسابيع فى الراحة . أما الافرنسى فيريد أن يستمتع بالحياة بأسرع ما يمكن ويبذل لذلك جهده والانكليزى ينتظر ارثه بأن يعمل قليلا مكثراً من الالعب الجسمية والرياضات البدنية والامريكى يود لو ينال أكثر من جاره أما الاسبانيولى فهو أشبه بالشرقي يحلم بكأس من الشكولاتا يكرعها وبلقافة من التبغ يدخنها فى كل أيام حياته

هذا ما تلقفناه من كتاب برلين وقد طبع قبيل الحرب العامة وما ندرى اذا

كانت الحرب قد زادت في هم المزارعين من تلك الامة بعد أن اشتدت ضائقها على مواد الغذاء يوم حصرت من جهاتها الثلاث وتعذر ارسال الغلات اليها الا من سهول الحجر المشهورة بحبوبها وكانت قلة التغذية عندها من جملة الدواعى في إلقاء السلاح وطلب الصلح من الحلفاء

الصحة في المانيا

١١٨

الاهتمام بالنظافة ظاهر الاثر في كل مكان من بلاد ألمانيا والحشمة وجمال الهندام العام هما جماع الشعور اللطيف الذى يحس به الغريب في مدنها . واذ كان هذا النظام عاماً في جميع الأعمال والادارات والدور الخاصة نشأ منه شعور بالرفاهية وحسن اللقاء وجمال الذوق . تتنزه في الشوارع اللطيفة التى تزين وتطهر كل يوم بين أناس يكتسبون أجمل الثياب ولا ترى عليهم الا أمارات السعة حتى في احياء العملة وأنت على ثقة اذا ركبت الترام والقطار من ان أحداً لا يبصق وتركب في الدرجة الثانية والثالثة وأنت على يقين من البعد عن القذارة في المركبات أو الاختلاط المضر بالركاب وقد اتخذت جميع أسباب الحيلة حتى لا يفع ما يكدر وقد عينت حقوق كل فرد وواجباته تعييناً صريحاً فاذا حدث اشكال يقتص لذلك النظام العادل

هذه الحالة في النظافة العامة على كثرة حسناتها للفكر والاعصاب قد نشأت من انتباه الحكام ومن خضوع المحكوم عليهم للأوامر فلك بعد هذا أن تعلق صحيفة على حدود ألمانيا تكتب عليها : « هنا تطبق مفاصل القانون » . ومن أجل هذا أتى تفوق الالمان على غيرهم في هذا المعنى تفوقاً لا ينازعهم فيه منازع في أمور الصحة العامة وتطبيق القوانين لان للبلاد المتقدمة قوانين واحدة تقريباً

والاختلاف في التطبيق فقط وهذا سببه خضوع الافراد وبفضل معاونة الامة للحكومة في ألمانيا معاونة فائقة سريعة تقدم علم الصحة تقدماً لم يعهد في بلد كما هو فيها . كان مونتسكيو يقول اذا دخلت بلداً لا أسأل عما فيه من الشرائع بل أسأل عما طبق منها .

وبعد فيقال على الجملة ان ليس في المدن الكبرى في ألمانيا غبار أصلاً والرش متواصل في كل ساعة لا يقف الا لترك المجال للكسوس وكما ان ليس ثمة غبار فليس هناك وحل . ومتى أمطرت السماء تنصرف مياهها الى المجارى ويمسحها المساحون بالآلات من المطاط وفي برلين وجميع المدن تجدد أناساً في الشوارع واقفين لالتقاط السرقين والقمامات . والسيارات الرشاشة ترش أربعين كيلومتراً في الساعة من الطرق الواسعة وبدورة خفيفة ترش ساحة كبرى مهما عظمت دع الترام وايات الرشاشة التي ترش الشوارع الرئيسة والطرق المعبدة لتسهل تنظيفها وكسحها ان كان ثمة قمامات أو ورق . ومن غفل من المارة وهو نادر جداً وألني ورفقة ولو صغيرة على الارض يجد من يرده الى الصواب وينبئه الى النقاط ورقنه ولو كانت ورقة الترام ووضعها في الصندوق الخاص بها . وفي الخريف يكس الكناسون بمكانس ميكانيكية ما يتساقط من أوراق الاشجار في الشوارع والحدائق والمتنزهات والاماكن العامة ويعهد بتنظيف الارصفة في العادة الى أصحاب الاملاك فلا يخالف القانون منهم أحد وصاحب المالك مسؤول عنك اذا مررت برصيفه وتزحلت بقشرة برتقالة أو وقعت فاندقت عنقك . وتقديراً من الوقوع في مثل هذا الخطأ يمهّد صاحب المالك بتنظيف الرصيف أمامه الى شركة تتقاضاه في الشهر ثلاثة ماركات ويضمن نفسه من كل ما يصيب انساناً أمام محله من المصار

لتسهيل النظافة العامة تتفنن البلديات في استجداء طرق جمع القمامات ووضع لوائح متنوعة دقيقة وابتداع أدوات عملية لكسح القمامات على أيسر وجه . ومن أدهش الطرق التي عمدت الى اتخاذها بلدية شارلوتنبورغ من احياء برلين انها اضطرت كل مالك أن يكون لديه على الدوام ثلاثة صناديق عالية يضع المستأجرون

في الاول الرماد والغبار وفي الثاني الورق والعلب والمقوَّى وفي الثالث جميع فضلات المطبخ من بقايا اللحم والعظام والبقول والخبز وذلك لان هذه البلدية رأّت ذات يوم ان من الجنون أن تترك لادارة القمامات مثل هذه الفضلات التي يتيسر الانتفاع بها فابتاعت خنازير وهي تغذى الآن ألوفاً منها بما يفيض من السكان من هذه الفضلات والبلدية تنولى رفع هذه القمامات على حساب المستأجرين بأجرة زهيدة بواسطة عربات تطرح من صناديقها ولا يحدث منها غبار ولا غيره أما القمامات فانهم يجرون عليها تجارب ليفصلوا البوتاس عن حامض الفوسفور والنشادر لتباع من المزارعين سماداً كيمياوياً .

وان مدينة رلين لتنفق مالاً طائلاً على كنس المدينة وتولى الامرءثرون ألف كناس وجنائى ويقبض الواحد ثلاثة ماركات ونصف مارك في اليوم (وهذا قبل الحرب) وتزيد مياومته ربع مارك كل ثلاث سنين وان مدينة متوسطة الشأن مثل ميانس التي يبلغ سكانها مئة ألف نسمة لتصرف كل سنة ٧٠٠ ألف فرنك على تنظيف الشوارع . وهكذا تجد كل ادارة عامة من مثل السكك الحديدية والفنادق تنفق مبالغ على تنظيف زجاجها ومقاعدھا وأثاثها ورياشها والبلديات تهتم بصحة السكان حتى انها كثيراً ما تقضى بالهدم على بناء قديم مراعاة للصحة وتنسى مكانته التاريخية أو تناساها . وكل دار يراد بناؤها في بروسيا يقدم مصورها الى الشرطة أولاً والناس يشكون والمهندسون يتذمرون من شدة هذه المطالب

ولذلك ترى صاحب الملك اذا أراد بناء شئ أن يرسل مصوره قبل سنة من الشروع في بنائه واذا صادف أن المصور المقدم ليس فيها لغرفة الخادم القدر اللازم من الهواء لا يرخص ببناء البيت فيجب ان يكون لكل طبقة علو متوسط وأن يكون لصحن الدار مساحة تحسب على قدر علو الأبنية تضمن دخول الهواء وتفوذ النور وبعض الأراضى تبقى بلا بيع لانها ليست من المساحة لبنى بها بحسب قانون الشرطة والشرطة تتصعب اليوم بالسكنى في الطابق السفلى تحت سطح

الأرض وكان ذلك مألوفاً من قبل وإذا سمح به فلا يكون إلا إذا ثبت أن هناك كمية من الهواء وللسقف بعض العلو وبعض النوافذ . وتقضى أوامر البلديات أن تكون ميضات المعامل طاهرة كافية وإذا لم تكن كذلك تجبر الحكومة صاحب المعمل أن تكون كلها مستوفاة من كل وجه .

لاحظ الناظرون أن المرء كلما تقدم نحو الشمال يجد الاهتمام بالنظافة بالفأحده وأن شعوب الجنوب قذرة وأن للفلامنديين ولوعاً بالغسل والمسح يكاد يكون كالمرض المستحكم ، ومع هذا فقد قضت الحال في ألمانيا أن تستعمل الشدة في القانون لتطبيق قواعد الصحة وإذا كان استعمال الحمامات آخذاً بالانتشار سنة عن سنة فذلك بفضل ما تبذله جمعية أخذت على نفسها الدعوة إلى النظافة وهذه الجمعية برئاسة طبيب مشهور في برلين وله تأثير في جميع ألمانيا فتدعو جمعياته إلى عقد المؤتمرات وتذشر المنشورات وتبث دعائها تحمل من مدينة إلى أخرى دعوتها وتعطى المديرية ما يلزمها لآلة العقول مجاناً وتمد إليها المعاونة بلا مقابل ويشترك في هذه الجمعية وزراء وأمرء وعلماء . ويهتم بها كبار الحكام اهتماماً زائداً وهي عبارة عن ١٤٠٠ عضو يدفعون تقاسيط ، وقد نجحت هذه الجمعية بأن قضت على جميع المدن الألمانية تقريباً أن تجعل لها حمامات بلدية وكثير من القرى لا تحرم من هذه الحمامات وقد أخذت الجمعية تصرف اهتمامها إلى القرى

ولا تنشأ مدرسة بدون قاعات للاستحمام وقد لاحظ الأطباء أنه منذ أخذ الطلبة بالاستحمام أصبح آبائهم أكثر نظافة من قبل وأنشأوا يختلفون إلى الحمامات عن رضى وشعار هذه الجمعية : « حمام في الأسبوع لكل ألماني » وبفضل هذا العمل الذي أسس منذ بضع سنين أنشأ كل جندي وكل نوتي يستحم مرة في الأسبوع . وانك لترى شركات السكك الحديدية وإدارات المعامل وجميع أرباب المشاريع الضخمة تبادر إلى تسهيل أمر الاستحمام على العملة كل أسبوع وتعطى أنواطاً من النفضة إلى كل مجموع أو فرد يستحقون المكافأة مقابل تنظيفهم وقد جروا على مثل هذه الطريقة في الولايات المتحدة وفي أسوج فأخذت الحركة نحو النظافة في ازدياد .

وكثير من مدن ألمانيا تحتوى اليوم على محال لاستحمام الفوغاء أحدثها البلديات وجعلت فيها أحواضاً من الماء الجارى ومنها ما يتغير مرتين فى اليوم ومقاصير للاغتسال بالماء الحار أو البارد ومستحمات وغير ذلك .

وأما كن الاستحمام فى برلين وهامبورغ وهانوفر ومونيخ قصور حقيقية . ومن المدن الصغرى مثل غوتنغن وسكانها ٣٥ ألفاً ماله حمامات أكثر استعدادا وحسناً من حمامات العواصم ويكلف الانغماس فى ماء الأحواض عشرة بنن (أى جزءاً من عشرة أجزاء من المارك) وهى أبداً فى حالة معجبة من النظافة ويبدو ماؤها الاخضر الازرق صافياً كماء البحيرات ويقضى على من يسبحون فيه أن يعركوا أبدانهم كلها بالصابون وأن يرسلوا الماء عليها قبل نزولهم اليها والمقاصير نظيفة صحية مزينة بالستور الوردية وهناك معلمون يلقنون من يريد دروسا فى السباحة ويختلف عمق الحوض فى العادة من ٧٥ سنتيمترا الى ٣ أمتار و ٢٥ سنتيمترا مما يتيسر معه الانغماس فى الماء كما يريد السابح وطول الحوض من ٤٠ الى ٦٠ مترا .

وتكون الحمامات الحارة فى مقاصير من القيشانى لها مستحمات جميلة مستحدثة والحمام يكلف ٦٠ بنن فى الدرجة الاولى و ٢٥ فى الثانية ويتولى شؤون الحمام أناس لهم مهارة فى أيديهم ورشاقة فى حركتهم ، ولا يجد الداخل فى الدهاليز والادراج المصنوعة من الحجر والمرمر ذرة من الغبار ، وان حماماً واحداً فى برلين ليستحم فيه فى اليوم ثلاثة آلاف انسان دع المضخات (الدوش) ويبلغ فيها عدد المستحمين ليلة بعض الاعياد الكبرى سبعة آلاف وبعض الحمامات يستحم فيها كل السنة مليون شخص ويتناول أولاد المدارس فى برلين والمدن الصغرى بطاقات مجانية أو ذات أسعار طفيفة تخولهم دخول الحمامات .

وقد أوصى المسيرو مولر فى مونيخ بمليونى فرنك لانشاء مكان للاستحمام العام فأضافت البلدية الى ذلك ٥٠٠٠٠٠ فرنك فتم العمل وقام البناء على شاطئ الايزير فى آخر ممشى فيه أشجار ضخمة فاذا دخلت الى هذا الحمام صرت الى مكان

فرش بالرخام وبنى بالقيشاني اللامع وفيه وفي أحواضه من التأنيق والالطف شيء كثير كما أن فيه من الطهارة والنظافة ما تقر به عيون المستحامين . وأقامت بلدية مونيخ حماماً مجانياً في الصيف استقت ماءه من الآيزر وهو يتغير مرتين في اليوم ومنها حمامات شمسية مجانية .

نظافة الطعام كنظافة الاجسام معتنى بها كل العناية في بلاد المانيا فلها ادارة اسمها ادارة صحة الماء كل ترأقب اللحوم وتفحصها بالجهر فاذا وجدت سريضة أو مضره تغرم بائعها وذابحها وكذلك السكر فانك اذا أخذت قطعة منه واشتبهت في كونها من الجنس العاقل تأخذها الى معمل مكنب الصحة وفي الحال يحللها ويحكم على بائعها بالعقوبات الشديدة . ولا يشرب أحد في براين الا من الآبار الارتوازية التي قد تنفق على الواحد منها ثمانية ملايين فرنك . ولا تسلم عن مراقبة الصحة للالبان فكل يوم ينبث كثير من المفتشين يستوقفون مركبات الحليب في الشوارع ويوزن فاذا رأوه مطابقاً لما قضت به الصحة فيها والا فيكفتمونه في الشارع ويعاقبون حامله بأشد العقوبة ولذلك ترى الغش قليلا جداً في هذه الاصناف . وفي برلين معامل كثيرة للألبان منها معمل كبير يصله كل يوم من الضواحي على بعد مئة كيلو متر ١٤٠ ألف لتر من اللبن فيعقمه في معمل كبير فيه ألفا عامل وكل هذا اللبن يوزع على المنازل في ٢٥٠ مركبة .

لم تكتف الحكومة والمجالس البلدية في المانيا بتحسين أسباب الصحة العامة والسهر على نظافة المساكن وجودة المواد الغذائية بل تراها تحمي الصحة العامة بواسطة ادارات المراقبة الطبية التي تعمل على الدوام بكل ما فيها من قوة بفضل ذمة الموظفين الذين عهد اليهم التوفر على العمل فاذا حدثت مثلاً اصابة بالجدرى أو الخناق أو التيفوئيد أو الطاعون أو الكوليرا لا تلبث أن يبلغ أمرها مكتب الصحة ففي الحال يعطى الامر بالتطهير وينحف الطبيب الرسمي الى الدار الملوثة يتولى جميع أساليب التطهير في أسرع من لمح البصر . وفي المدارس ادارة البحث

الطبي تعمل على الدوام فتفحص جميع الاولاد في كل وقت واذا لاحظت أقل مرض أو انحراف طرأ على ولد تعزله عن رفاقه وتطبه في الحال والذين تأصل فيهم المرض تبعث بهم الى البحر في الغابات أو الى المصاح . وقد انشأت جمعية الصليب الاحمر ستين مصحاً من مثل هذه وتساعد عدة جمعيات في الاتفاق عليها ويعدها كثير من المدن بالمال .

والعناية بالغة في الحذر من مرض السل فتراقب المدارس جداً المراقبة بواسطة أطباء مفتشين لهم اختصاص بهذا المرض مشهود لهم به وهم في خدمة هذا الديوان لا يسوغ لهم أن يطبوا أحداً غير أبناء المدارس يبحثون في صحة التلامذة بصورة منتظمة ويعطى كل تلميذ ورقة كل مدة تنبئ بانه سالم من هذا المرض حتى يبلغ سن الرشد ويدخل في الخدمة العسكرية وهكذا يقضى التلميذ مدة دراسته وهو يتقلب بين أيدي الاطباء يبحثون في صدره وقامته ووزنه وغددته وأسرته وما كان فيها من الامراض الى غير ذلك مما يقضي التنبيه له بالقضاء على المرض من أساسه .

ويعزل المصابون بالسل وفقر الدم والحمى وعلّة القلب والصرع والهستيريا كل واحد عن الآخر ويعلم في مدرسة الهواء الطلق وسط غابة في صاحية برلين وهذه المدرسة تفتح أبوابها في نيسان وتغلقها في كانون الثاني وهي على غاية من السذاجة في بنائها ومرافقها ويكثر في أرجائها النور والهواء ولهم نوافذ متحركة ذات مقاعد من حشب جعلت بقدر قدّ الولد . والمدرسة عبارة عن أكواخ منظمة يريدون منها أن يعيش الطفل في سذاجة ويرجع الى المطرة الاولى في حالته ويعتنون في المدرسة بتنظيف الجسم من وراء الغاية وفي هذه المدرسة يدخل الذكور والاناث على حد سواء

في المانيا ٢٥ مجمعاً علمياً لصنع مطعموم الجدري ولذلك لا يموت أحد فيها بهذا المرض ولها مجامع علمية تنظر في ارتقاء الدروس العلمية وانتشار علم الصحة دع مجامع كوخ ومجامع الصحة في المملكة التي تبحث بمن فيها من العلماء في الابحاث

البكتريولوجية المنوعة مثل فخص الشاي والقهوة ومنافعها ومضارها ومثل البحث في المرض الزهري الذي كانت الحكومة السبب في اكتشاف دوائه ومنها جمعيات تبحث في مياه الأنهار التي تلوثها المعامل والمستشفيات في برلين من أنظف ما رأى الراؤون وأكثرها استعداداً خذ لذلك مستشفى فيركوف العالم الكبير فانه بدى بإنشائه سنة ١٨٩٩ ونجز في سبع سنين وكلف ٢٥ مليون فرنك على أرض مساحتها السطحية ٢٧ هكتاراً وهو على طريقة جعلت سرادق سرادق ففيه ٦٢ بناية ويسع النى مريض وحجمه كحجم مستشفى همبورغ وهما أعظم مستشفيات المانيا وفيه ٩٥ طبيباً و ٣٧٥ ممرضة وممرضاً وعدد الخدمة ٣١٢ وفيه جميع أنواع الراحة وفيه تتولد القوى الكهربائية للإنارة والدفع وغير ذلك

تاريخ المشرقيات في المانيا^(١)

١١٩

كان نهوض الدروس العربية في المانيا خلال القرن التاسع عشر وان كانت اللغة العربية قد درست في المدارس الالمانية في القرون السابقة ولكن تدريسها لم يكن على أسلوبنا هذا بل كانت الغاية منه تفسير الكتب العبرانية . وكان بعض المدرسين من الالمان في القرن الثامن عشر قد ابتداءً ابتداءً حسناً في العلوم العربية ومن مشهورهم يوحنا يعقوب ريسكه المتوفى سنة ١٧٩٧ في ليبسيك الذي نشر تاريخ أبي القداء ونقله الى اللاتينية وغير ذلك من الكتب العربية ومنهم أولاف غوستاف تيكنسن المدرس في الجامعة الروسية ومؤلف كتاب جليل في النقود العربية . ولم يشتهر الالمان في هذا العهد كبير اشتهار

(١) كتب لنا هذا الفصل بالعربية صديقنا العلامة الاستاذ بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية المشهور فله منا الشكر الجزيل

في أمور الشرق غير أن المتساويين كانوا في تجارات وصلات سياسية مع الدولة السنية العثمانية وعلى هذا نهضت في فينا الدروس التركية التي جدها العلامة فون هامر المتوفى سنة ١٨٥٦ وكان هو أيضاً محباً للآداب العربية ونشر كتاباً جسيماً في تاريخها لكنه لم يبلغ الغاية فيه لنقص تعمقه في أسرار العربية .

كان في ابتداء القرن التاسع عشر العلامة المشهور سلفستري دى ساسى يدرس العلوم العربية في المدرسة الشرقية في باريز وهو مجدد الدروس العربية في أوروبا خصوصاً على الصرف والنحو فقصده باريز بعض الطلبة الالمان ليأخذوا عنه العربية منهم مالىنوخ لبرخت فليسر (١٨٠١ - ١٨٨٨) ومالىنوخ ايفلد (١٨٠٣ - ١٨٧٥) فكانا هما مؤسسى الدروس العربية الجديدة في المانيا فقد أصبح الاول مدرساً للغات الشرقية في مدينة ليبسيك والثانى شغل مثل هذه المهمة في غوطنغن . فخر ايفلد الكتب الجليلة في الصرف والنحو والعروض العربي ونشر فليشر الكتب العربية مصححة غاية التصحيح منها تفسير القرآن للبيضاوى . وتقد أيضاً العلوم العربية خصوصاً كتاب النحو لشيخه دى ساسى تقدماً مفيداً وألف فيه كثيراً من الرسائل الجليلة ثم أسس الجمعية الشرقية الالمانية التي نشرت مجلتها المشهورة وكثيراً من الكتب العربية المشهورة لاسيما كتاب الكامل للمبرد لمصححه ريت الانكليزى ومعجم البلدان لياقوت تصحيح وستيفلد وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح يان وكتاب الآثار الباقية للبيرونى تصحيح سخاو

قصده طلبة الالسة الشرقية مدينتي غوطنغن وليبسيك فكان من مشاهير تلامذة ايفلد تيودروس فولدكه المولود سنة ١٨٣٦ الذى كان مدرساً في مدينة ستراسبورغ منذ سنة ١٨٧١ الى أن فتحها الفرنساوية سنة ١٩١٨ . فالف فولدكه تاريخ القرآن الذى جده في الطبع الثانى فريدريك شوالى وصحح دواوين بعض شعراء الجاهلية وترجم من تاريخ الطبرى الجزء المتعلق بالدولة الساسانية وحرر غير ذلك من الكتب الجليلة في اللغات السامية خصوصاً السريانية . ومن

تلامذة فولدكه ادوارد سخاو مؤسس المدرسة الشرفية في مدينة برلين وبروكلمان مؤرخ الآداب العربية وناشر كتاب عيون الاخبار لابن قتيمة خليفة سخاو في المدرسة البرلينية وغيرها من المستشرقين المشهورين في المانيا وغيرها .

ومن أشهر تلامذة ايفلد يوليوس ولوسن (١٨٤٤ — ١٩١٨) خليفته الثاني في مدرسة غوطنغن وله من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الاموية وكتاب جليل في دين العرب في الجاهلية وطبع الجزء الثاني من ديوان هذيل الذي كان نشر الجزء الاول منه كوسفرتن المتوفى سنة (١٨٨٠) فكات همة تلامذة ايفلد وهمة تلامذة تلاميذه في نقد تاريخ العرب ودينها وآدابها لكن فليشر وتلامذته كانوا منخصصين أكثر منهم في النحو العربي ونقد اللغة ومن مشاهير تلامذة فليشر العلامة توربكه (١٨٣٧ — ١٨٩٠) الذي نشر كتاب درة الغواص للحريزي والقسم الاول من المفضليات . ومنهم أوغست مولر (١٨٢٨ — ١٨٩٥) مؤرخ الدول الاسلامية وغيرهم كثير من المستشرقين المشهورين

ومن تلامذة ديساسي في المانيا ماعد ايفلد وفليستر كثير منهم غوستاف فلوغل (١٨٠٣ — ١٨٧٠) الذي نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكتاب الفهرست لابن النديم وألف رسائل كثيرة في تاريخ الآداب العربية وويلهلم آلورد (١٨٣٨ — ١٩٠٢) الذي صحح دواوين الشعراء الستة والاصمعيات ودواوين الرجاز العجاج ورؤية الزفیان وصنف فهرست المخطوطات العربية في دار الكتب البرلينية في عشرة أجزاء جسيمة فانتشرت العلوم العربية في جميع المدارس الالمانية ونهضت نهضة جائلة فنشر منذ ١٢ سنة غير مجلة الجمعية المشرقية الالمانية المجلة المصيرية في تاريخ الاسلام التي أنشأها كارل ماينوح بكر المولود سنة ١٨٧٦ وهو الآن من النظار في وزارة المعارف في برلين

الممالك الجديدة

١٢٠

قالوا ان القومية هي أن يقوم أهل عناصر من أصل واحد لهم تقاليد ولغة مشتركة فيؤلفون مملكة واحدة سياسية . وهذا المبدأ قد قلب العالم الاوربي رأساً على عقب مدة تربو على ألف سنة فتجارت شعوبها كلها حتى تؤسس ممالك كبيرة من القوميات الصغيرة . أما السادة الجدد في العالم فينزعون اليوم الى غاية تخالف تلك وهي أن يحرروا الممالك الصغيرة من سلطة الممالك الكبيرة التي خضعت لسلطانها . يريدون اليوم أن ينفذوا أيديهم من سلطان الغريب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم

وحدث ان الشعوب المحكوم عليها اذا كانت مؤلفة من عناصر مختلفة أن يضطهد القوي منها الضعيف . وحوادث كثيرة تبين درجات هذا الاضطهاد فقد رأينا آخر امبراطرة النمسا لما عفا عن المجرمين السياسيين يوم جلوسه خرج من المطابق ثمانية عشر ألف سجين اعتقلهم الحكام الذين كانوا من العنصر السائد ليس في أوربا عنصر خالص من الدخلاء بل فيها مجموعة عناصر تكونت بالهجرة أو بالمحيط الواحد أو بالمصاحبة المشتركة أو بالدين المتحد فتمازجت مع الزمن وألفت عنصراً بعينه . وأكثر هذه العناصر اختلاطاً العنصر الانكليزي الذي تألف من أجناس وأجيال مختلفة وكان هو ولغته المفتحة المصدر لكل جديد أول الشعوب الاوربية التي ألفت أمة منظمة تعرف نفسها ^(١) وقد ساعد الانكليز على ذلك أمران موقعهم الجغرافي والنظام الشديد الذي أخضعهم اليه

(١) فلسفة العهد الحديث للدكتور غوستاف لونون Gustave Le Bon . Psychologie des temps modernes والقومية ومقاييسها لرامساي مور Ramsay Muir : Nationalisme et internationalisme والمقابلة بين القوميات لارنولد فان كينب Arnold van Gennep . Gratie comparatif des nationalites

الفاتحون الاجانب من أهل الدول المنظمة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر . ثم جاءت فرنسا وكونت قوميتها

بيد ان مبدأ القوميات لم يقل أحد الساسة به الا بعد الثورة الافرنسية الكبرى أواخر المئة الثانية عشرة للميلاد وفكرة القومية حديثة و الجملة والفضل للفرنسيس فى أول من دعا اليها ثم لما رينى (١٨٧٢) الايضالى أول عامل فى الدعوة الى الوحدة الايطالية وسرت دعوته الى الأمم المشتتة والقوميات المبعثرة قاستفادوا منها ثم للحركات القومية التى لفتت أنظار أوروبا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٠ فلا بدع اذا قلنا ان الانكليز والايكوسيين والفرنسيس كانوا فى مقدمة شعوب أوروبا بل العالم الذين تشبعوا بروح القومية وانتهوا بتنظيم ممالك وتوطيد أركان جامعات وكلهم من عناصر مختلفة وأجيال من الناس كثيرة . ثم تألفت اسبانيا والبورنقال وهما أيضاً من عناصر متباينة جداً وقد أخذتا درساً فى قوميتيها من حربهما الطويلة مع العرب وفهما معنى الوحدة بزعامة رؤساء مستبدين ملؤوا صدورهم كبرياء حتى حملوهم على أن يفتحوا الفتوح فى الخارج

لا جرم ان العوامل فى تأليف القوميات كثيرة منها الوحدة الجغرافية ووحدة العنصر واللغة والدين والاشتراك فى المصالح الاقتصادية وكل أمة تتحد لا بد لها من أحد هذه العناصر لقيام أمرها وليس وجود أحد منها بعينه ضربة لازب . وقد تألفت فى القرن الماضى سبع دول ثنتان منها كبيرتان وهما ألمانيا وايطاليا فنادى كل منهما بوحدته وقد قامت الاولى بصنع أهلها أنفسهم وقامت الثانية بمعاونة دعاة القومية فى الأمم وبهمة رجالها أما الدول الخمس الصغيرة فهى اليونان وبلجيكا وصربيا ورومانيا وبلغاريا

ولنا أن نقسم تاريخ أوروبا السياسى الى دورين . عمر الدور الأول ألف سنة تألفت خلالها الممالك الكبيرة من القوميات الضعيفة والثاني وهو حديث تداعت فيه أركان الممالك التى أسست ببطء كروسيا والنمسا والعثمانية وانقسمت الى ممالك وتجزأت أجزاء من القوميات ولقد كان اندماج الممالك الصغيرة فى ممالك قوية

على ما يظهر من النواميس الثابتة في التاريخ فان فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا التي كانت فيما مضى مؤلفة من ولايات منفصلة هي نموذج من هذا التمازج ولم يكن عاماً على إطلاقه اذ وجدنا قرب تلك الممالك الكبيرة ممالك صغيرة كهولاندا واسوج والدانيمرك وسويسرا قد نجحت بالاحتفاظ باستقلالها ، وتزعم انها ستحتفظ به أبداً الدهر .

وان الدول الثلاث روسيا والعثمانية والنمسا المستبدة التي ظالما قاتلت مبادئ القومية قد قُلت بها فتمزقت كلمتها بعد ان كانت تحكم مائتين وخمسين مليوناً من أجيال الناس في أوروبا وآسيا ومن كان يظن ان الحرب العامة التي نشب أوارها سنة ١٩١٤ ووضعت أوزارها سنة ١٩١٨ تنشأ منها ممالك جديدة ، وتتألف قوميات فقد انسلخ من جنم ألمانيا والنمسا وروسيا مملكة كبرى وهي جمهورية بولونيا التي كانت تلك الدول الثلاث تقاسمتها بينها في القرن الثامن عشر وسكانها ثمانية وعشرون مليوناً ونشأت أربع جمهوريات في شمالي روسيا وهي جمهورية فنلندا واستونيا وليفونيا وليتوانيا ونشأت جمهورية أوكرانيا في الجنوب الغربي على شواطئ البحر الاسود . وكذلك جمهوريتا أذربايجان والكرج جنوبي قافقاسيا .

وانبتر من جسم الدولة العثمانية سورية وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ومن النمسا انفصلت المجر مؤلفة من مئة ألف كيلو متر مربع ونحو ثمانية ملايين من المجرين وكذلك جمهورية التشيكوسلوفاكيا المأهولة على الأكثر من الصقالبة كالتشك في بوهيميا والمورافيين والسلوفاكيين وهي ١٤٥٥٠٠ كيلو متر مربع ونحو ١٤ مليوناً من السكان ، ومملكة اليوغوسلافيا ، وهي مؤلفة من الصربيين والخرواثيين والسلوفين . وهي مملكة الصرب القديمة أضيفت اليها مملكة الجبل الاسود والبلاد السلافية في الجنوب من النمسا القديمة مثل البوسنة والهرسك ومساحتها ٨٠ ألفاً وسكانها ١٠ ملايين ومملكة رومانيا التي اتسع حجمها من بلاد المجر والروس التي غالب سكانها رومان ومساحتها ٣٠٠ ألف

كيلومتر وسكانها ١٣ مليوناً . وأصبحت النمسا القديمة جمهورية صغيرة ينزلها
العنصر النمساوي أو الألمانى ومساحتها ٨٢ ألف كيلومتر وسكانها ٦٢٠٠٠٠٠ وهذا
أفظم أنواع البتر فى الممالك .

وأخذت إيطاليا اقليمى التراتن وفريول وجزءاً من اقليم ايستريا وتوسعت
اليونان من الأراضى البلغارىة والعثمانية وأضيفت الى البلجيك أراضى أو بن
وماليدى وأخذت الدانيمرك من ألمانيا جزءاً من شاشويق هولستين بلادها
القديمة واسترجعت فرنسا ولايتى الألزاس واللورين فققدت ألمانيا عشر ممالكها
قبل الحرب . وانقلبت جمهورية بعد ان كانت ملكية مقيدة وفقدت تركيا سبعة
ملايين من السكان وأنفصل عنها جميع البلاد العربية وانقلبت روسيا الى جمهورية
اشتراكية مؤلفة من العنصر السلافى فقط ويخرج منها بضع جمهوريات كبرى ،
وانقرض آل رومانوف قياصرة روسيا وطرد آل هوهنزولرن امبراطرة ألمانيا
وآل هابسبورغ امبراطرة النمسا وفصلت الدولة العثمانية الدين عن السياسة فأصبح
خليفة فروق ولا سلطان له على الامور الزمنية وسلطته روحية صرفة .

كان القطار قبل هذه الحرب يجتاز بنا فى الرحلتين السالفتين زهاء عشرين
ساعة فى أرض امبراطورية النمسا والمجر فقطعنا المسافة من حدود بافاريا الى حدود
إيطاليا هذه المرة مجتازين بأراضى النمسا فى ساعات قليلة وفقدت النمسا بلادها
الصناعية وبلادها الزراعية وأصبحت فىنا الجميلة عاصمة لا راض لها الا قليلا
تجوع وتمرى وكانت عاصمة خمسة وخمسين مليوناً انفصلوا عنها باسم القومية
وكانت تعاملهم بالشدة كلما رفع دعائهم رؤوسهم للمطالبة بحقوقهم الطبيعية فلما
أمكنتهم الفرص قلبوا لها ظهر المجن .

اتار العرب في ايطاليا

١٢١

رسخت أقدام العرب في جنوبي ايطاليا ولا سيما في جزيرتي صقلية وسردانية أيام كان المسلمون كما قال ابن خلدون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (يعنى بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للمفتح سائر أبامهم وكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومرقة وياسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وفبرص وسائر ممالك الروم وكان أبو الفاسم الشيعي وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة على جزيرة حنوة مرات فتمتصّاب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الاكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الاسلامية نجيز البحر في أساطيلهم من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوّة الشمالية فتوقع ملوك الفرنج وتشنخ في ممالكهم كما وقع في أيام بنى أبي الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرمانية لا بعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته اه

ولقد أبقت العرب في البلاد التي حكمت فيها زمناً مصانع كثيرة من قصور منيعة ومنازل شايخة شريفة كما قال الادريسي وكثيراً من المساجد والمناقد والحمامات وحوانيت التجار الكبار والجامع الاعظم في بلرم عاصمة صقلية الذي كان بيعة في الزمن الاقدم وأعيد على حالته في سالف الازمان وصفته الآن (في عهد الادريسي) تغرب عن الازدهان لبديع مافيه من الصنعة والفرائب

المفتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات وذكر ابن حوقل أن في بلرم ثلثمائة مسجد ونيفاً وقد كثرت الجوامع في أكثر المدن مثل قطانية ولم يبق الآن^(١) من تلك الابنية الفاخرة التي شيدها العرب شيء غير أن في بلرم أوفى غيرها من مدن صقلية مباني وقصوراً اقتنى مهندسوها مثال المباني الفاخرة التي شيدها الامم الممددة المعاصرة للعرب ومن تلك المباني قطران جليلان اسم أحدهما قبة واسم الآخر زيزا ولعل أصله في العربية عزيزة (أو زيزاء) فكانت مباني العرب هذه مثالا لمن خلفهم من سائر الامم فحذا الخلف في أبنيتهم حذوها

وفي متاحف إيطاليا وخزائنها سيوف وآلات نقلت من الشرق ولا تزال محفوظة فيها . وأهم ما في إيطاليا من آثار العرب كتبهم المحفوظة في خزائن ميلانو ورومية وغيرها من العواصم الايطالية ولم تبرح شواهد بعض القبور المكتوبة بالكوفي أو بالقلم النسخي ماثلة في تينك الجزيرتين . نورد مثالا منها لما نشره المستشرق اماري الايطالي^(٢) ومنه يستدل على ارتقاء الادب العربي على ذلك العهد . من ذلك ما كتب على شاهدة قبر في بلرم :

لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء ولكم في رسول الله أسوة حسنة .
هذا قبر ميهونة بنت حسان بن علي الهذلي عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل في الأرض من باقى أودافع الموت أوله موت من راقى
الموت أخرجني قسراً فياً أسنى لم ينجنى منه أبوابى واغلاقى
وصرت رهناً بما قدمت من عمل محصى على وما خلفته باقى
يا من رأى القبر إنى قد بليت به والترب غير أجفاني وآماقى

(١) محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوروبا وخصوصا بإيطاليا للعلامة اغناطيوس جويدي

(٢) الكتابات العربية في صقلية Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

في مضجعي ومقامي في البلى عبرٌ وفي نشوري اذا ماجئت خلقي
وفي كتابة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذراً وبراً
وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وعزاء...

وكتب على شاهدة قبر في نابلي
وكيف يلذ العيش من هو سائر الى جدث يبلى الشتات منازل
ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه سريعاً ويبلى جسمه ومفاصله
وكتب على قبر رجل اسمه يسين بن علي بن يعيش توفي عام أربع وسبعين
وسمائه :

بعدت فما في العيش بعدك طيب وغبت عن الدنيا فلست تؤوب
مقيم الى أن يبعث الله خلقه لقاءك لا يرجى وأنت قريب
ووجهك يبلى كل يوم وليلة وودك لا ينسى وأنت حبيب
عليك سلام الله ما ذر شارق وما اهتز في دوح الاراك قضيب
وكتب على شاهدة في بلرم : هذا قبر ابراهيم بن خلف الديباجي توفي سنة
أربع وستين وأربعمائة وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً
عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الصراط حق وان الساعة آتية
لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور . على ذلك حيي وعليه توفي وعليه يبعث
ان شاء الله رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة آمين رب العالمين
ومن القبريات المسيحية ما كتب بالعربية أيضاً

توفيت أنه أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية
العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعطرة بالله المزوزة بقدرته المنصورة بقوة
مالكة ينطاليه وانكبردة وقلورية وصقلية وافريقية معزة أمام رومية الناصرة
لليلة النصرانية صرمد الله مملكته يوم الجمعة العشر العشرين من اوسنة سنة ثلاث
وأربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجد الى هذه

الكنيسة حنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة العشا . العشرين مائة سنة أربع وأربعين وخمسة وبنى على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت أنه على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين وفي أول الكلام اشارة الصليب .

الحضارة الغربية

١٢٣

يجدر بنا وقد انتهى بنا تقس الكلام على ممالك أوروبا العشر التي زرناها وخبرناها بما رأيناها وسمعناها وقرأناه عنها منذ وعينا على أنفسنا ما فصلناه للقاري فنأتيه بنبذة تدلنا على ما قامت به في الجملة كل أمة من هذه الامم من العمل النافع لهذه الحضارة الغربية الحديثة التي بهرنا خبرها ومخبرها وأن نبين منشأها والسرف في وصولها الى هذا الحد فنقول : يمكن ارجاع الامم الرئيسية في أوروبا الى ثلاث عناصر مختلفة . العنصر اللاتيني والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر اللاتينى هم الطليان والفرانيس والاسبانيون والبور تقاليون وقدورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم . والالمان والسويسريون والانكليزوالاسوجيون والدانيمركيون والهولنديون هم من الشعوب التوتونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية . قالت مدام دى سنابل أن الامم التي كان تهذيبها العقلى من أصل لاتينى هى أعرق في المدنية من غيرها ورثت الا قليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم في ادارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية ولما جاءت أم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التي اتمتحتها . وهذه الملاحظات تختلف ولاشك باختلاف الاهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلاً في ايطاليا آثاراً لاتمحيى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب أن قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظام في الاسبانيين . ويقال

بالاجمال أن هذا الجزء من أوربا الذى اشتقت أسنته من اللسان اللاتينى وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ فى صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما غير من الزمن وثنية . ولما كانت الامم الجرمانية قد قاومت ساطة الرومان لم تتشبع بالمدينة الا مؤخرآ دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية . فلم تلبث فى الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحي . أما مدينة الاسكلافونيين فهى أحدث المدن وأسرعها من سائر حضارات الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الابداع والاختراع

لا جرم ان الحضارة عمل الأمم^(١) بأسرها ومصادرها متنوعة وذلك ان للأمم التى رأيناها فى هذه القارة والتى لم نرها فيها وفى غيرها تمدناً عاماً نشأ من المدنية القديمة وانتقل الى جميع الممالك المصرية وكلها تعمل على تحسينه . ولهذه الممالك بأسرها نفس الأدوات للعمل وعين الطرق فى الصناعة ومثلها فى باب وسائل النقل ، ولهم كلهم معامل وآلات بخارية وسكك حديدية وأسلاك برقية وكلهم يستثمرون معادنيهم وأرضهم . وجميع البلاد الممدنة مرتبطة بشبكات من السكك الحديدية وبطرق بحرية يمحّر البخار عبابها وبأسلاك البرق والهاتف وأسلاك بحرية واتحاد يريدى عام فى البر والبحر ويريد جوى فى الطيارات ، ويتقايضون حاصلاتهم ورءوس أموالهم وهم على اتصال بينهم أبداً ، والصحف تنقل حوادث العالم أجمع يوماً بيوم وساعة بساعة .

وقد كاد طرق الحياة أن يكون واحداً فى الأقطار الممدنة ففى كل مكان تجد مدناً كبرى ذات شوارع مخططة وساحات عامة وأسواقاً مباحطة حفت بأرصفتها وتشهد العجلات والحافلات والسيارات وأضواء الغاز والكهرباء ومجارى المياه القذرة والمياه الجيدة المجلوبة من الأماكن البعيدة ، ولئن كان بعض الفلاحين

(١) تاريخ المدينة الحديثه لسيوبوس Ch. Signobos . Histoire de la Civilisation Contemporaine وكتاب السياسة لبونشلي Bluntschli . La Politique وكتاب الحياة الاجتماعية وتقارير البرويسل Ernest van Bryssel . La vie sociale et ses evolutions.

في تلك الامم ولا سيما في أوروبا الشرقية قد احتفظوا بعاداتهم فان مصطلح أهل الطبقة الوسطى من الناس متحد في اللباس والزي والتثيل والصحافة والاندية والبورصة . والأفكار تنتقل من بلد الى آخر على أسرع وجه والعلماء في كل صقع يعملون بأسلوب واحد ويشتركون في خدمة العلم ويعقدون مؤتمرات علمية دولية . والتصوير والنقش والهندسة والموسيقى عامة تتناولها الشعوب كلها . ولم تبق غير الآثار الأدبية مقصورة على كل أمة برأسها لتخالف اللغات ولكن بالترجمة ينقل في الحال ما فاضت به قريحة نابغة فامتازت به أمة على غيرها وتقتبس الأمم المتحضرة بعضها من بعض أسلوبها السياسي فقد أدخلت الامم أسلوب الحكم الدستوري مستعيرة له من حكومة انكلترا وقوانين الثورة الفرنسية .

وقد جعل في حكم المشاع كل ما تتألف منه حياة الشعوب المتهدبة من صناعة وتجارة وحياة عملية وعلم وفنون وأخلاق سياسية . ومع هذا لم تخرج تلك الامم وظلت على تنافسها مدفوعة بعوامل قديمة من الاحقاد والحفاظات يتجاذبها عاملان متناقضان المدنية العامة المشتركة التي تدفع الشعوب الى أن يشعروا بالتضامن والتقارب والمنافسات والاحقاد التي تستدعيها الوطنية فتنبذ بها الى العزلة . والى معاملة الغير معاملة الاعداء . ومصير العالم مناط القوة التي يرزقها أحد هذين التيارين .

تعيش الطبقة الوسطى في الغرب بما بلغت من الغنى وأسباب الهناء والرفاهية عيشاً لم يحلم به أهل الطبقة العليا في الأعصار السالفة فتتمتع بألوف من طرق الراحة من مثل سرعة المواصلات وجودة الطرق واستجادة الفنادق والحمامات البحرية والرحلات للنزهة والصحف والمجلات ودور التمثيل والغناء والمتاحف والطرق المبلطة المنارة المكنوسة . وروح هذه المدنية « العلم » الذي كان في القديم أداة من أدوات الظرف للخواص ومنذ وضعت أساليبه وتحققت نتائجه دخل في طور عملي وأصبح قائد الصناعة والتجارة وبقواعده أخذت السياسة تنظم

وتدور وأصبح لجميع طبقات الشعب اداة تربية العقل والخلق وغدت المدارس ودور الكتب من المعاهد العامة. والحكومات تتولى انشاء المدارس الابتدائية ولم يبق من أصول الانظمة القديمة الا نظام الأسرة والتملك وسقطت العادات التي كان يستمتع بها بعض الافراد ، فلم يبق لطبقة على طبقة امتياز والعالم سواء في الاستمتاع بالحق والخضوع للواجبات وأصبح اعتبار العملة والزراع كاعتبار المالكين . وقد جعلت عامة هذه التبدلات الحياة متنوعة سهلة حرة . وما قط جمعت المدنية حولها عالماً أكثر من اليوم يتناولون أسباب الهداء على السواء فتبدل كل شيء في الحياة المادية والعقلية والاجتماعية وأصبحت جميع الامم تحكم نفسها وعليها تبعة عملها اعد ان كان معظمها تحت سلطان حاكم يدعى انه ظل الله في الارض يستمد بزعمه من قوة سماوية تحكم عليه فيحكم بها على الناس .

فن أين استمدت المدنية الغربية وما هي العوامل التي أثرت فيها فبلغت هذا النظام الذي لم يسبق له مثال في المدنيات القديمة ؟ فالجواب على ذلك بحسب رأى بلونشلي الالماني أن المدنية الحديثة التي تنشرها اليوم أوربا وابنتها أميركافى أنحاء العالم قد اشتقت من مصادر ثلاثة وهي أولاً : المدنية القديمة اليونانية الرومانية وأثر اليونان باد في الفلسفة والشعر والهندسة والنقش . وأثر المدنية الرومانية ظاهر في الحقوق الخاصة والسياسة والتاريخ والهندسة. والعامل الثاني النصرانية التي قوت محبة القريب وسنت الشفقة على البائسين أيا كانوا وانشأت كثيراً من ملاجئ الاحسان وكان لتأسيس الكنيسة وانتشار سلطتها تأثير بالواسطة . واذا كان الناس في الغرب اليوم أقل تديناً وتعلقاً بالمعتقدات من أهل القرون الوسطى فان الاحسان وحب الخير عند المسيحيين أصبحاً أكثر شمولاً وأوفر عائداً مما كانا في سالف الاعصار .

ثالثاً ان الجرمانيين رفعوا مستوى المصدرين السالفين وبدلوا فيهما ولا سيما ما كان له علاقة بحب الحرية وحسن الاخلاق واحترام البشر . وليست هذه المصادر الثلاثة على اتساعها هي المعول عليها وحدها في المدنية الحديثة فان كل

امة من الامم المعاصرة قامت نحو الحضارة تبسط من العمل والنجاح ومنهم
الطليان الذين ورثوا المدنية القديمة مباشرة وأوجدوا قبل غيرهم لساناً وبياناً
وطنياً مجدداً وبلغوا غاية التألق في تزيين المدن ونشروا تجارتهم وألفوا أول
قانون تجارى . ونهضة الفنون زينت ايطاليا بمصانع مغلدة من آثار الهندسة
والتصوير والنقش وتغلبت على ظلمات القرون الوسطى

والمدنية مدينة بأقل من ذلك للاسبانيين والبورقاليين فانهم اذا طردوا
المسلمين خارج أوروبا فذلك بثورة التعصب وبالقضاء على مدنية العرب الزاهرة .
وأهم ما قاموا به من الاعمال الصالحة اكتشافاتهم ما وراء البحار ونجاحهم
في الشؤون البحرية وكان لأدبهم شأن عظيم ، بيد أن استبداد الامراء ورجال
الكهنوت قد قضيا للحال على هذا الترقى الباهر وكان لتينك المملكتين شأن
الى أواخر القرن السادس عشر ولم تلبثا أن هاجتها طغمة اليسوعية المشؤومة -
على قوله - فحولوا القوى التى اقتبسوها من المدنية ليحاربوها بها

قال وكان للفرنسيين من بين الشعوب الرومانية الكعب المعلى فى خدمة
المدنية فان هذا الشعب العظيم يشعر من نفسه أكثر من غيره لان يعمل
فى الخارج مدفوعاً بعامل فكر المدنية فقد كان لهم مما بلغوه من الرشد وعرفوا
به من البديهة وحب التجدد فى الافكار وحقهم فى سطها للناس وسلامة ذوقهم
ولطف مأثامهم وسلاسة لغتهم وغناها ما أهلهم لان يكونوا مدة قرون فى رأس
المجتمع الاوربى . وقد زادت فى نفوذهم وحدة دولة وطنية قوية ذات عاصمة
بديعة من بين العواصم . فالمجتمع الفرنساوى كان كالمشرف الملقن لعامة المجتمع
المهذب وكان افرنسا من آداب عصر لويز الرابع عشر والقرن الثامن عشر ومن
أفكار الثورة ونبوغ نابوليون ضمانه فى هذا الشأن طال معه تفرداها بالاولية
فى أوروبا وتؤخذ على الفرنسيين عدة عيوب مهمة وهى النظر الى الاشياء نظراً
سطحياً والعجب والمزاج الذى يحملهم على الغلو وتجنهم فى الابداع والتغيير
وهذه النقائص قد عبثت بمرکزهم العالى ، ولكن ما انتجته قرائنهم يستحق
شكر العالم

أما الشعب الانكليزي الممزوج من عناصر جرمانية ورومانية كالشعب
الافرنسي ولكن على صورة معكوسة وكذلك أخته الفتاة أميركا فقد اشتهرا
في ميدان السياسة وكانت لهما اليد الطولى في تأليف الحكومة الدستورية فسميا
لترقية المبدأ في الحكومة الملائكية المقيدة وتأليف المجالس النيابية وقيام الجمهورية
لا جرم انهما كانا يهتمان خاصة بحريتهما الوطنية ومصالحهما العامة ولكنهما كانا
ولا جدال المثالين الاولين في عالم السياسة الحديث ، والى هذين الشعبين يرجع
الفضل على الحرية وما جهزت به من الأسلحة المشروعة والضمانات الحقوقية .

وكان لأمركا عمل عظيم في باب حرية الوجدان والمفصل بين الدين والسياسة
والانكليز أرقى من الفرسان ويون من حيث الشعور بالتقاليد واحترامها فقد بنوا
بناءهم السياسى على أسس تاريخية مضمونة على حين قاما سلم العرايس الا فى قلب
كل ما كان لهم ليقيموا البناء من جديد . ولا انكلترا وأميركا الفضل الأعظم
في رقية الفنون العلمية والصناعات والبحرية والنجارة فى العالم . وما من شعب
يشبهها من حيث البحث عن الطرق العملية حتى كادت ننقلب هذه الصفة فيهم
أحيانا الى أنانية باردة فى التقدير والسرد . والعلم مدين للانكليز والأمركيين
بشيء كثير من النجاح الذى بلعه . ولئن كان استعداد انكلترا للفنون الجميلة
أقل من استعداد غيرها فانها انبغت أعظم شاعر فى العالم .

قال وامتاز الشعب الألماني خاصة بالخدمات التى خدم بها الحرية السياسية
والدينية والعقلية فقضى أولا على سلطة رومية المستبدة ، وهيا للقوميات مجالا
متسعا لتتألف جامعتها ويقوم أمرها وحال فى القرون الوسطى دون استرسال
الباباوات فى تسلطهم تسلطا عاما . ونادى فى القرن السادس عشر بحرية الوجدان
وأثار العقول ببيعه وتربيته الحديثة . ثم ان جهاده الدائم فى البحث عن الحق
وغيرته المتناهية فى العلم وعقله المستقل الفعال والميول الأدبية التى فطرت عليها
نفسه وتحمسه بالجميل والجيد — كل هذا نشأت منه سلسلة من الأعمال العلمية
والادبية والصناعية والفنية التى تفعت الانسانية .

وقد جاء زمن ظن فيه الناس ان الشعب الألماني الآخذ نفسه بهذه الأعمال قد نسي أن يجعل له مقاما في الحركة السياسية الجديدة . وذلك ان مملكة ألمانيا الرومانية قد تداعت أركانها وظهر أن تحالف العناصر والدول والاديان يحول دون توحيدها وترك الأولية للغرب . وما كانت ألمانيا تظهر بأنها مثيلة لجاراتها الا في ساحة الافكا . والمقل وكانت حكومتها السياسية أحط منها بكثير ، خال دون اجتماع القوى المتفرقة وربطها برباط محكم ما فطر عليه الألماني من الجفاء في العشرة والتصلب في الرأي والشدة في الشكيمة واخلاص عدة من القبائل لامرائهم الى التي ما بعدها . وقد عرفت بروسيا الاستعداد السياسي والحربي في الأمة الألمانية فقامت الامبراطورية الألمانية مملوءة قوة ونشاطاً بين أم أوروبا وحاولت تحرير الأمم وان تنقذ العقول من تربية اليسوعيين البليدة ومن وثنية البابا الممصوم .

هذا ما قاله بلونشلي الألماني في الامم التي رأيناها وكان لها شأن في الحضارة وقال ولز الانكليزي (مجلة العرفان م ٨ ج ٢) أن نور العلم والمدنية أتانا من طريق العرب لا من طريق اللاتين . نعم أن العرب حملت للامم الاوربية كثيراً من أساليب الحضارة أبانوا بها كما في دائرة المعارف الافرنسية الكبرى أنهم حذاق في صناعة الحرب وحذاق في صناعة السلم . نقلوها الى جنوبي ايطاليا وفرنسا واسبانيا ومنها انتقلت الى سائر الامم الغربية ونقل الصليبيون عن المسلمين طائفة صالحة من هذه الطرق مدة حروبهم معهم نحو قرنين في الشام ومصر

أخذ الغرب عن العرب ما وسعه أخذه والباقي اقتبسه كما قال بلونشلي من المدينتين الرومانية واليونانية واذا أنصفنا لانجد مدنية الغرب الالتمة المدينيات القديمة بما فيها من وثنية أقرت النصرانية بمضها ولا تزال الى اليوم ظاهرة الاثر فيها كما أقر الاسلام بعض طادات الجاهلية . وقد وصل الغربيون بالمدنية الى هذه الدرجة من الرقي بالعمل والثبات وحسن التنظيم ، وأهم ما أنجح مقاصدهم اضعافهم من سلطة الملوك ووضع الحكومات في نظام معين ارتقى بالزمن وتسلسل

الفكر في أعمالهم وأنظمتهم الاجتماعية ، ثم ان لهواء بلادهم دخلا كبيرا في رقيهم دعاهم الى العمل والانكماش والحرص والاقدام على العظام أكثر مما كان من ابن آسيا وأفريقية .

وقد عملت كل أمة في الغرب بحسب موقعها وتقاليدها والاحوال التي طرأت عليها . هذا في الامم الكبرى أما الامم الصغرى فقد أحسنت الى الحضارة على قلة أسبابها فأنشأت لها اجماداً ربما كانت أعرق فيها من الامم العظيمة . وربما كانت المدنية أرسخ قديماً وأشد مرونة في الدائمرك واسوج ونزوح وسويسرا وهولاندة والبلجيك أكثر من الامم القديمة العظيمة التي شغلت بالحروب وكاد حبها يمتزج بأجزاء روحها ، وأصبحت حياتها وحياة أبنائها معلقة على تحديد سلاحها وتفنها في سياستها لاستصفاء بلاد غيرها وتكبير رقعة سلطانها واغفال المعنويات في الاحايين والنظر الى الماديات فقط ^(١)

(١) قال درابر الاميركي بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم حولوا أفسارهم نحو المعارف والعلوم فامتازوا فيها وبرزوا على معاصريهم إذ كان من مبدإهم أن يرقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر ملاحظته اهم لم يعتمدوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد الطربل على المرافبة والامتحان بواسطة الآلات وذلك ماصيرهم مبتدعي الكيمياء وقادهم لاختراع ادوات التصفية والتنحير ورفع الاتمال ودعاهم الى استعمال الربيع والاصطرلاب في علم الهيثة واستخدام الموازنه في الكيمياء مما خصوا به دون سواهم والى صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيثة كالتي اصطنعت في بغداد والاندلس وسمرقند وذلك جعلهم أيضا يوجدون تحسينات عظيمة في قصايا الهندسة وحساب المثلاث واخترع الجبر واستعمال الارقام المديدة في الحساب وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا في علم الهيثة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم أيضا مطلقين على دوات القدر الأعظم أسماء عربية لاتزال ترد على كراتنا الفلكية وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والحسوف ووضعوا الشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وادركوا الاعتدالين ولا حظوا أشياء بعثت نوراً هراً على نظام العالم واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الملكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين في استعمال الساعة الرقاصة لذلك وهم انشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المالحات الطبية اذ كانوا أول من نشر النرمكوبيا والمستحضرات المعدنية وهم قرروا في الميكانيكيات نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأي جلي من جهة طبيعة الجاذبية ورأى

أما الأمم التي استقامت في العهد الأخير كالليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولونيا وفنلندا وغيرها فأكثرها ذات مدنيات قديمة عرض لها مامزق شملها زمناً لسلطان جائر قبض بمخالبه على أعناقها واستعادت بعد الحرب حالتها السياسية في الجملة فأصبحت كل واحدة تحيا باسم القومية كما حييت الممالك الكبرى من قبل وكلها تحتذى مثال الدول المنظمة القديمة وتأخذ عنها أحدث الأساليب حتى أصبح بعضها موضوع إعجاب المنصفين من الباحثين مثل يونان ورومانيا وبلغاريا بأنها نهضت في مدة قليلة ما كان منه مثال للشرق في أمة تريد أن تحيا وقد رأينا مصر والاستانة أخذتا يحظوا فر من الحضارة الحديثة وتوشك أن تأخذ سائر البلاد المستعمدة في هذا الشرق القريب — ولا سيما بلاد العرب والفرس — حظها من مدنية تعبت أوروبا قرونًا طويلة في نسج خيوطها وقادت بألوف الألوف من البشر لقيام نهضتها وقتلت عشرات الملايين من الجنس الأصفر والاحمر والأسود بل والابيض لتقيم محلهم المستعمرين من أهلها وعسى أن يكون شأن العرب والفرس من ذلك شأن يابان أخذت عن الغرب مامت إليه حاجتها ومزجته بمدنيتها القديمة فهي خير مثال يحتذى والسلام

خاتمة الرحلة الثالثة وبها انتهت الرحلات الثلاث

سديد بالقوات الميكانيكية واسطنعوني الهيدروستاتيك الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات على عوم الاجسام وغرقها في الماء واصبحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون اشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيظهره . أما هم فقالوا ان الشعاع يمر من المرئي للعين وفهموا مسوس انعكاس النور وانكساره واكتشفوا طريق الشعاع المنحني في الهواء وبرهنوا على انا نرى الشمس والعمر قبل الشروق وبعد الغروب قال والذي يدهش كثيراً ان تتصور أشياء تفتخر أنها من مواليد وقتنا ثم لا طبت ان نراهم سبقونا اليها فتهلينا الحاضر على الشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم وحققا انهم وصلوا به الى الاشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسي في الكيمياء عندهم المطهر الطبيعي للاجسام المعدنية (انتهى ممر بآ من مثالة في جملة النعمة بقلم الاستاذ عبده كحيل)

فهرس غرائب الغرب

الجزء الثاني

الرحلة الثالثة

صفحة	صفحة
٢	٧٠ العربية والافرنسية
٥	٧١ مواطن اللغة الافرنسية
٩	٧٢ علائق العرب بالفرنسيس
١٢	٧٣ الامراء العلماء
١٤	٧٤ احتفال الفرنسيس بالادب
١٨	٧٥ والعلم
٢٨	٧٦ صفحة من تاريخ فرنسا
٣١	٧٧ قصر فونتيذبلو
٣٤	٧٨ الموسيقى الغربية
٣٨	٧٩ لغة عامة
٤٣	٨٠ البلجيكي
٤٨	٨١ عمران هولاندة
٥٢	٨٢ هولاندة والاسلام
٥٨	٨٣ هولاندة والعرب
٦٤	٨٤ معاهد انكلترا - المتحف
	٨٥ البريطاني جامعة اكسفورد
	٨٦ جامعة كبريج
	٨٧ المجتمع الانكليزي -
	٨٨ السياحة والانكليز -
	٨٩
	٩٠
	٩١
	٩٢
	٩٣
	٩٤
	٩٥
	٩٦
	٩٧
	٩٨
	٩٩

صفحة		صفحة	
١٧٥	١٠٠	قرطبة والزهاء	٢٣٧
١٨٠	١٠١	مدينة اشبيلية	٢٤٢
١٨٢	١٠٢	مدينة غرناطة	٢٤٧
١٨٥	١٠٣	قصر الحمراء	٢٥٤
١٩٣	١٠٤	كتابات الحمراء	٢٦٠
١٩٧	١٠٥	ذكرى مؤلمة	٢٦٦
٢٠٠	١٠٦	جلاء المسلمين وتنصيرهم	٢٧٣
٢٠٦	١٠٧	سقوط الاندلس	٢٨٠
٢١١	١٠٨	جبل طارق	٢٨٣
٢١٣	١٠٩	علم المشرقيات في اسبانيا	٢٨٧
٢١٧	١١٠	اسبانيا بعد العرب	٢٩٠
٢٣٢	١١١	البورتقال بعد العرب	



❦ الخطأ والصواب ❦

« وقعت بعض أغلاط مطبعية في الجزء الأول والثاني من غرائب الغرب »
وها نحن أولاء نصحيحها ونترك بعض أشياء يهتدى القارئ اللبيب من نفسه الى
وجه الصواب فيها »

« الجزء الأول »

صفحة ٧ سطر ١٢ خطأ — لحدودها — صواب لحدوها ص ٢٥ س ١٣
أى — أياً ص ٣٧ س ١٨ رأو — رأوا ص ٣٩ س ٥ تسعة أعشار — أحد أعشار
ص ٦٨ س ١٣ Thiers - Chiers ص ٦٩ س ١٤ اعانهم — أعانهم ص ٧٤ س ١٢
الصلاة - الصلات ص ١٠٢ س ٦ أوتقلت - لوتقلت ص ١١٦ س ٨ لوز الرابع —
لوز الرابع عشر ص ١٣١ س ٢٥ La pulicité - La publicité ص ١٣٩ س ٩
ستاسبورغ — ستراسبورغ ص ١٥٥ س ١٢ الا وأخذ — الا وأؤخذ ص ١٦٢
س ٢٤ بها ان — بها ابن ص ١٩٦ س ٢٤ بألا يفكرون — بأنهم لا يفكرون
ص ١٩٥ س ٥ تحتاج حسن — تحتاج في حسن ص ١٩٩ س ٢٤ مقدماً — مقدساً
ص ٢٠١ س ٣١ و٣٠ والتقبن — وانتقبن . والتخصب — والتخصب ص ٢٠٧
س ١٢ شاهدة — شاهد ص ٢١٧ س ٧ التثبت — التنت ص ٢١٦ س ١
دينياً — وبيننا ص ٢١٩ س ٧ مقعد . معتقد ص ٢٢٤ س ٢٠ قانون — قانوناً
ص ٢٢٩ س ٢٤ ليعملا — ليعملوا ص ٢٣٢ س ١٠ مازوتى — مازوتى ص ٢٣٣
س ٢١ و٦ الميتر — المنبر . عد مثلها — عن مثلها ص ٢٣٤ س ٦ و١٤ اعانات المدارس —
اعانات لمدارس يتمخضون — يتمخضون ص ٢٤٧ س ١٣ ازدهاء — ازدهار
ص ٢٤٨ س ١٦ ويزاء — ويزا ص ٢٤٩ س ٦ الاسلامى — الاسلام ص ٢٦٠
س ١٦ يعالجها — يعالجها ص ٢٦١ س ١٦ ليتمثل — يتمثل ص ٢٨٨ س ١
أعمادها — اعتمادها ص ٢٨٩ س ٨ قصدوا — فصدوا ص ٢٩٢ س ١٥ عادة —
عادات ص ٢٩٧ س ١ الآخريان — الأخريان ص ٣٠٩ س ٨ برنال — برنار

٣١٠ و ٣١١ (الصفحة ٣١٠ والاربعة الاسطر الاولى من صفحة ٣١١ تابعة للحاشية الواردة في صفحة ٣٠٩ بالحرف الدقيق) ص ٣١٤ س ٢٢ المجرد — المجز ص ٣٢٠ س ١٩ بقضاء — بقضاء ص ٣٢٣ س ١١ الوالدين الذين — الوالدين الذين ص ٣٢٦ س ١٨ الوجود — الوجوه ص ٣٢٨ س ٢٢ ووجدنا — ووجدنا ص ٣٢٩ س ١٥ الفلامنديين — الفلامنديين ص ٣٣٣ س ٢٥ Artin la Grèce nouvelle Martin : La Grèce nouvelle ص ٣٣٤ س ٢٥ تعدنيه — تعدينه ص ٣٣٥ س ٣ الا باستخدام — الا باستخدام ص ٣٣٦ س ١٦ لا أنسى — لا أنسى .

« الجزء الثاني »

ص ٦ س ١٨ والكوانلوب — والكوانلوب ص ١١ س ٢٤ dérivés ص ١٥ س ١٢ بارتز - بارتو ص ١٧ س ٢٢ بل مقلدين أو مجتهدين — بل مقلدين ومجتهدين ص ١٨ س ٢٠ و ٢١ Ram Band - Ramnobses, Rambaud Seignobes ص ١٩ س ١٣ وكانت — وطافت ص ٢١ س ٢٥ فيسبوس الملاح القلودنسى — نيسبوس الملاح القلودنسى ص ٢٢ س ١٥ باستعمال — باستعمال ص ٢٣ س ١٥ رفعتها - رفعتها ص ٢٥ س ١٨ برناروس — برناردس ص ٢٧ س ١٥ و ١٥ نفحة — نفحة . بضائع — بضائع ص ٢٨ س ٢١ تبهجتك — تبهجتك ص ٢٩ س ٩ ما اشتهر بنيتها — ما اشتهر في بنيتها ص ٣٠ س ١٨ و ١٩ وساحتها — ومساحتها . و ٤٠٠٠ هكتاراً و ٤٠٠٠ هكتار ص ٣٢ س ١٧ و ٢٢ غير نكير — من غير نكير . وان لم يفهما — فهو وان لم يفهما ص ٣٤ س ١ سازه ساين — سان ساين ص ٣٩ س ١٤ مقولا — معقولا ص ٤١ س ٤ لا فرقاً — لا فرق ص ٤٤ س ١٠ و ١١ مع الحياة — مع المياه وهذا — هذا ص ٤٦ س ٧ على هنيته — على هنيته ص ٤٨ س ٢٢ L' Encyclopédie - L. Encyclopeodie ص ٥٢ س ١٧ أن يرسل — أن يرسل ص ٥٥ س ٤ علماً للمعاجم — على المعاجم ص ٥٦ س ١١ و ١٨ جوها لا بريل — جوهان بريل . والسنسكريتية . . . الآرتية — السنسكريتية . . . الآرية ص ٥٧ س ١٤ عينة — عبيد ص ٥٨ س ٢١ بلندرا

أكثر - بلندرا كثر ص ٦١ س ١٠ غير القسيس - غير القسيسين ص ٦٣
 س ١٦ و ٦٦ وتعريف - وتصريف . وبكريج - كبريج ص ٧٠ س ١٦ الناس
 أربعة - الفلس أربعة ص ٧١ س ٨ بخطر غريب - بحظ غريب ص ٧٣ س ١٨
 و ١٩ و ٢٠ و ٢٢ Esson'd, nue Essaid'une Taine Caine
 peuple ang'ais au X L X siecle - peuple anglais au X L X e siecl
 Européens - Européene ص ٧٩ س ١٢ وجدت - وجوت ص ٨٠ س ٢
 شادوا - ساووا ص ٨٧ س ٢٠ والمباهات - والمباهاة ص ٨٩ س ٢٠
 والزمانديين ص ٩٠ س ٨ كأنه - كأن ص ٩٧ س ١٤ العربية -
 القريبة ص ٩٨ س ١٦ و ٢٤ تدفعها - يدفعها . Blene - Blene ص ١٠١ س ٣
 تقي أشخاص - تقي الأشخاص ص ١٠٥ س ٦ صرحت - حرصت ص ١١٢
 س ١٨ Lavisse - Lavisse ص ١٢١ س ٧ فشتيلية - قشتيلية ص ١٢٥
 س ١٣ و ١٦ وان يعدل - وأين يعدل . أنارها - أنهارها ص ١٢٩ س ٨
 شاهدها - شادها ص ١٣٩ س ١٦ مائلة - مائلة ص ١٤١ س ٢١ Justituto
 Instituto ص ١٦٨ س ٧ و ٢٣ و ٢٤ طليطة - المتوخت - المتوختة .
 ويوئه - ويبوئه ص ١٧٤ س ٤ فن - فن شقائه ص ٢٠٥ س ٢٣ Gatauca
 Catholica ص ٢١٨ س ٦٥ و بالتصرف - بالتصوف . الامنة - الامة ص ٢٢٢
 س ٢٤ تساعد - ساعد ص ٢٢٣ س ٤ الكتلانكيين - الكتلانين ص ٢٢٤
 س ٣ و ٤ وزارته - ووزارته . يقين - تعيين ص ٢٢٩ س ٢٢ غريانا - غويانا
 ص ٢٣٠ س ١٤ الشائقة - الشائقة ص ٢٣١ س ٣ و ١٥ و ٢٠ الاعتناء - الاغتناء .
 وطنيتها - وطنيتها . وما تدرى أيلتئم - وما تدرى أيتم ص ٢٣٨ س ١٤ و ٢٣
 و ٢٤ متوافر - متواز . درسله - درسد . Jules - Gules ص ٢٤٣ س ٩
 و ٢٢ الواردات - الولادات . اشتغلت - استغلت ص ٢٤٦ س ١ القرن
 التاسع - القرن التاسع عشر ص ٢٤٧ س ١٢ و ١٩ والفيناسيتين - الفيناسيتين .
 مساحة - مساحة ص ٢٥٠ س ٩ البروسية - البروسية ص ٢٥٢ س ٢١ سادوثا -
 سادوثا ص ٢٥٦ س ١٨ و ١٩ و ٢٤ كنغبرغ - كنغبرغ . كيش - كيل .

کرایفسوالد — کرایفسوالد . روشتون — روشتوت . لکروشته — لکروشہ
ص ٢٥٩ س ٣ فالغی — فالغی ص ٢٨١ س ٨ و ٢٠ و ٢١ فلیسر — فلیشر . فولدک —
نولدک . فولدک — نولدک ص ٢٨٢ س ١٠ و ١١ فلیستر — فلیشر . المعجاج —
والمعجاج ص ٢٨٣ س ٢٢ و ٢٣ internationalisme nilernationalisme
Traité - - Craite ص ٢٨٤ س ٤ الثانية عشرة — الثامنة عشرة ص ٢٨٧ س ١٦
ضربت — ضربت ص ٢٨٨ س ٦ قطران — قصران ص ٢٩٠ س ١ حنت —
سنت ص ٢٩١ س ٢٤ و ٢٥ evolutions - Bruyssel Bruyssel
e'volutions ص ٢٩٤ س ١ تبسط — قسط

